ريكاردو أوريزيو

حديث الشيطان

مقابلات مع سبعة طغاة

ترجمة: عهد علي ديب



حديث الشيطان

Talk of the Devil

Encounters with Seven Dictators

حديث الشيطان

مقابلات مع سبعة طغاة

تأليف: ريكاردو أوريزيو

ترجمة: عهد علي ديب



دار بترا للنشر

* حديث الشيطان

* تأليف: ريكاردو أوريزيو

* ترجمة: عهد علي ديب

* الطبعة الأولى 2004. موافقة وزارة الإعلام 78015

* الناشر: بترا للنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق. 5128483

* التوزيع: **دار ورد** للنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق. 5141441

دار بترا

سوريا ـ دمشق. هاتف 5128483

في لبنان: **دار الفرات**

لبنان ـ بيروت ـ شارع الحمرا ـ بناية رسامني. هاتف 750054

* التوزيع على الانترنت:

www.darpetra.com
www.alfurat.com

المحتويات

مقدمة

احتفظتُ، طوال عدّة سنوات، بقصاصتيّ صحيفة عتيقتين مصفرّتين لم تواتني الشجاعة قط لكي أتخلص منهما على الرغم من تصميمي التام على ذلك عدّة مرات. وحين كانت محفظة الجيب تهترئ، كنت أنقلهما إلى محفظة جديدة. وعندما تجعدتا، ضغطُّهما بين ورقة نقدية وبطاقة هاتف بلاستيكية.

وعلى الرغم مما بدتا عليه من رداءة نوع وهشاشة، إلا أنهما صمدتا أمام جميع ضروب سوء المعاملة. فقد سقطتا، على مرّ السنوات، في أماكن شتى: في رواق فندق في اسطنبول عند قدمي **رجل مافيا** يرتدي قميصاً أرجوانياً؛ وفي مكتب تدقيق جوازات السفر في مطار سبليت؛ وفي حُفرٍ حديثة العهد خلّفتها قذائف البحرية الصربية؛ وفي منزل صديق دراسة قديم في مدينة برسيا. بل أذكر بأنهما وقعتا مني بينما كنت أفتش عن بطاقة عمّالية قبيل إجراء مقابلةٍ مع الزعيم الجمهوري جيري آدمز في غرفة بلا نوافذ وراء باب فولاذي في شارع فولز في بلفاست. وفي كل مرّة كان ثمة ما يغريني بأن أتركهما ملقيتين على الأرض، بيد أني كنت ألتقطهما وأعيدهما إلى المحفظة، مانحاً إياهما فرصة عيشٍ جديدة.

سارت الأمور على هذا النحو، ويبدو أن هاتين القصاصتين عاشتا حياةً غريبةً مليئةً بالمغامرة. والحق أنهما رافقتاني معظم الوقت إلى غرفة الأخبار في الصحيفة التي عملت فيها كمراسل في مدينة ميلانو،

وقاسمتاني ساعات طويلة من السأم والإحباط. وأحيانا، خلال ساعات ما بعد الظهر عندما كان لا يزال يتعين علينا تنضيد الصفحات، وبينما كنا نتساءل إن كانت الصحيفة ستصل إلى الأكشاك صباحا، كنت أُخرج هاتين القصاصتين وأنظر إليهما. بل كنت أقرؤهما بين فينة وأخرى. فقد كانتا، بطريقتهما الخاصة، تحافظان على روحي المعنوية عالية.

عثرت على هاتين القصاصتين بينما كنت أنقّب كيفما اتفق بين الصحف الأجنبية التي انتهينا منها في انتظار أن يتم إتلافها. وبالطبع، لم تكن هاتان القصاصتان الوحيدتين اللتين احتفظت بهما. فقد كان عندي أكوام من القصاصات، مصنّفة بحسب مواضيعها. لم تكن مواضيعها تلك المواضيع التي عُنيت بها في العادة؛ بل كانت مواضيع حلمت بتغطيتها، إلا أن المحرر لم يكلفني بها قط. كان لدي ملف ضخم خصصته لجزر لفوكلاند، وآخر يُعنى بقتال المرتزقة في مختلف الحروب ما بعد الكولونيالية، كما خصصت ملفا آخر لآخرِ المستوطنين البيض في سيريلانكا، وملفات أخرى لبلدان أفريقية غامضة مثل غينيا الاستوائية وتوغو، مسارح لمآسٍ لم تجد الصحف مكانا لها. والحق أننا كنا جميعا نقوم بنفس الشيء، فأنا أذكر زميلا كانت لديه خزانة مليئة بمواد عن إرهابيين إسلاميين لم يسبق لأحد أن سمع بهم في ذلك الوقت. كما كان لدى زميل آخر مجموعة تستحق جائزة وضعها في ملف أسماه «بلغاريا».

بيد أن قصاصتيّ كانتا مختلفتين. كانتا معاً تعويذتي. فكرت أنهما ربما تغدوان ذات فائدة يوماً ما. وفي نهاية المطاف، غدت هاتان القصاصتان جزءاً مني، مثل بطاقة الهوية التي نحتفظ بها في جيوبنا نحن الإيطاليون.

لقد صعقني التشابه بينهما، فقد أشارت كلتاهما إلى شخصيات متهمة

بأكل لحوم البشر، إلى ديكتاتوريين أفارقة سابقين. كنت قد قصصتهما من **الغارديان**، صحيفة لندنية لطالما راقبتْ ما يجري في العالم من شرور. عُنونِت إحدى القصاصتين «إمبراطور سابق يعود إلى وطنه ويعلن بأنه قدّيس»، فيما عُنونِت الأخرى «ديكتاتور أوغندا السابق يتسوق في جناح الأطعمة المثلّجة». أشارت القصاصة الأولى إلى جان بيدل بوكاسا، فيما أشارت الأخرى إلى عيدي أمين.

وإذ أذعنت للامبالاة صحيفتي بجزر الفوكلاند وغينيا الاستوائية، أخرجت القصاصتين ذات يوم واستخدمتهما كمنطلق لبحث في هؤلاء الطغاة الذين سقطوا. اقتفيت آثار طغاة آخرين، في بلدان مختلفة وطوال عدة سنوات، بل لقد استمر البحث حتى بعد أن تركت العمل في الصحيفة. مَثَّل كل واحد من هؤلاء الطغاة فصلا غامضا ومنسيا من فصول التاريخ. كان بعضهم راغبا بالتحدث إلي، ووافق آخرون على التحدث إلا أنهم رفضوا أن أُورد عنهم ما قالوه.

كان فالنتين ستراسر، ديكتاتور سيراليون السابق، واحدا من المجموعة الثانية على الرغم من أننا شربنا معا عددا من زجاجات الكوكاكولا على طاولة في أحد فنادق لندن. كان فالنتين آنذاك في الخامسة والثلاثين، طويل وله نظرات عارض أزياء. وصل إلى الحكم بواسطة انقلاب عندما كان في السادسة والعشرين من عمره، وبذلك كان أصغر رئيس لإحدى دول الكومنولث. في اجتماعات القمة مع زملائه رؤساء المستعمرات البريطانية السابقة، كان ستراسر يتسلل إلى مرقص بعد أن ينام الآخرون. وبعدما أُطيح به (وقد كان نقيبا في الجيش) بانقلاب آخر بعد خمس سنوات فقط، حَجَزت له الحكومة البريطانية مكانا في جامعة ووريك. ومن السخرية بمكان أن ذلك تم بواسطة منحة من الأمم

المتحدة. بيد أن تطلعات ستراسر الأكاديمية لم تدم طويلا، فقد طُرد من الجامعة بعد أن تعرّفت عليه طالبة من سيراليون، كانت ابنة وزير سابق زَج به ستراسر في السجن، حيث أبلغتْ عنه اتحاد الطلبة الذي طالب، بدوره، بالنقل الفوري لطاغية أفريقي من قاعات التعليم النقية في وورويك.

عندما قابلت ستراسر للمرة الأولى كان مجرد واحد من كثير من الأفارقة المشردين في لندن. كان يبيت ليلته أحيانا في منزل واحدة من صديقاته، وفي أحايين أخرى مع بعض معارفه من سيراليون. وغالبا ما انتهى به المطاف في منزل موظف في سفارة سيراليون كان لا يزال يشعر بالامتنان لوظيفة خارجية أمنها له ستراسر قبل عدة سنوات. فعندما كان ستراسر رئيسا، كانت سيراليون تنضح بالدماء، والأسلحة، والماس، بيد أن الوسيم ڤالنتين لم يحفل إلا بالدماء والأسلحة فحسب حتى أنه لم يكن لديه حسابٌ مصرفي. كان أثمن ما اقتناه قميص فرساتشي من قماش لماع يجعله يبدو كما لو أنه على وشك أن يتجه مباشرة إلى مرقص.

في أيار عام 2000 ضُرِب ڤالنتين ستراسر في الشارع من قِبل مجموعة من مواطنيه، كانوا أقرباء لضحايا رئاسته القصيرة والمضطربة. هرب من لندن ووجهه لا يزال متورما مليئا بالكدمات وتقدم بطلب اللجوء السياسي إلى غينيا التي كان يحكمها رجلٌ ظنّ ستراسر بأنه صديقه، بيد أن طلبه رُفض. وفي نهاية المطاف، عاد إلى فريتاون في سيراليون حيث يعيش مع والدته ويتحرش به المارة عندما يتجرأ على المشي في الشارع.

لا يزال ستراسر شابا وبمقدوره، ربما، أن يعيد بناء حياته. كان طموحه، على الأقل عندما رأيته آخر مرة، أن يكون مدير تسويق. وربما

تراه في المستقبل وراء مكتب في أحد مكاتب لاغوس أو لومي، غفلاً منسيا.

لكن ماذا يدور في خلد رجل كان لديه كل شيء وخسر كل شيء، ولا وقت لديه كي يبدأ من جديد؟ وكيف يهرم ديكتاتور سابق تصفه كتب التاريخ بأنه عديم الرحمة، وبلا أخلاق، أصابته السلطة بالجنون؟ ماذا يقصّ على أولاده وأحفاده عن نفسه؟ وماذا يقول هو لنفسه؟

قال السير يان ماكلين الذي أعاد إلى الحياة، خلال مسيرة فاعلة على مدى أربعين عاما، وحوشا من كل حقبة زمنية بدءا بإياغو وصولا إلى راسبوتين، "واحد من الدروس القليلة التي تعلمتها من دراسة الناس الذين يرتكبون الفظائع هو أنهم جميعهم إنسانيين جدا، وأننا قادرين تماما على القيام بأي أمر تقريبا".

كانت القصاصتان المصفرتان جواز سفري، وقد قادتاني، في النهاية، إلى بوكاسا وأمين. وجدت بوكاسا في بنغي، عاصمة جمهورية أفريقيا الوسطى، يعيش في واحدةٍ من فيلاته التي باتت متصدعة الآن، ويرتدي الأردية البيضاء التي يرتديها رجلُ دين. لقد نصّب بوكاسا نفسه حوارياً للكنيسة الكاثوليكية. وفي مصادفة ساخرة، كان عيدي أمين أيضاً، عندما أدركته في النهاية، متسربلاً بالأبيض من رأسه حتى قدميه، والسبب أنه يعيش الآن في العربية السعودية حيث يغدو شيئا فشيئا مسلما ورعا. لقد ترك كلاهما انطباعا لدي بأنهما مجنونان وعاقلان في الوقت عينه.

شجّعتُ هذين اللذين كانا طاغيتين ذات يوم على الإفصاح عن أفكارهما. بيد أني اخترت عن عمد أولئك الطغاة الذين سقطوا من السلطة إلى الخزي، إذ لا ينزع أولئك الذين يسقطون واقفين لأن يتفحصوا ضمائرهم. فلا يزال أوغستو بينوشيه، على سبيل المثال، رجلا ذا سلطة

يحترمه عديد من الناس في تشيلي. كذلك خُلع سوهارتو من الحكم في أندونيسيا، بيد أن ثروته تحميه. وعلى الرغم من اتهام إميلدا ماركوس بالفساد، إلا أنها عادت إلى مانيلا وجمعت مجموعة أخرى ضخمة من الأحذية غالية الثمن. أما ألفريدو ستروسنر، الطاغية الأميركي اللاتيني المثالي الذي طرد من باراغواي عام 1989، فسوف تضمن له البرازيل جنة آمنة له في ربوعها دوماً.

يفتقد طغاة هذا الكتاب عزاء الثروة، وإذا كانوا يعيشون في بحبوحة فإنهم يفتقدون عزاء الحصانة. فمن بين أكلة لحوم البشر في القصاصتين، مات بوكاسا المصاب بجنون العظمة فقيرا. فيما يتمتع عيدي أمين بصحة تامة، بيد أن أكثر الأشياء التي يحصل عليها قربا من حياة الرخاء هو اشتراك في صالة رياضية في أحد فنادق جدّة. كذلك ظلّ جان كلود دوڤالييه، لفترة من الزمن، من الفقر بحيث لم يقدر أن يدفع فواتيره المنزلية. وقد قضى عديد منهم، مثل نيكسمي خوجا، فترة في السجن ويعيشون الآن حياة جدّ متواضعة. أما الآخرون الذين يخشون أن يلاقوا المصير ذاته فهم الجنرال فويسيتش ياروزلسكي، مينغيستو هايل ـ مريم وميرا ميلوزوفيتش (التي يقبع زوجها وشريكها، سلوبودان، خلف القضبان) أحيانا، يكون عزاء هؤلاء الناس معرفتهم بأن البلدان التي أُرغموا على الهروب منها هي الآن أسوأ مما كانت عليه عندما كانوا في الحكم.

إن هؤلاء الطغاة الساقطين يبدون أنهم ليسوا السبب في جميع المصائب التي تحل ببلدانهم، وإنما في بعضها فحسب. فبرأيهم، أنهم غير مسؤولين حتى عن تلك المصائب، أحيانا.

فلا يشك فويسيتش ياروزلسكي بأن بولندا تدين له لأنه جنّب البلاد

التدخل السوفيتي بتطبيقه القانون العرفي في كانون الأول عام 1981. وإيغون كرينتز، أحد الذين يفضلون البقاء صامتين، آخر رئيس لألمانيا الشرقية، الرجل الذي خَلَف إيريك هونيكر قبل أن ينهار عالمه: النظام، الجدار، والشيوعية ذاتها. ومع أنه حُكم عليه بالسجن لست سنوات ونصف لإعطائه الأمر بإطلاق النار على لاجئين حاولوا العبور إلى برلين الرأسمالية، فإن كرنيتز سيكون أيضا شابا كفاية لأن يصنع بحياته شيئا ما عندما يُطلق سراحه. وكما ياروزلسكي، يعاني كرينتز من إحساس بالظلم. قال لي "يقولون بأني قاتل، لكنني كنت سياسيا، وكانت لي مُثُلي. لقد آمنت بالاشتراكية، فإن كنت مخطئاً فإن الجيل برمته مخطئ أيضا، إن أي شخص في مكاني كان ليفعل الشيء ذاته".

تلازم هذه الفكرة الطغاة السابقين الآخرين أيضا. لا أعلم إن كانت فكرة صحيحة أم لا، بل إني لا أعلم إن كان بمقدورنا أن نسامحهم. فكل ما يسعنا القيام به هو أن ندرسهم عسى أن يساعدنا ذلك على الوصول إلى فهم أكبر لأنفسنا.



عيدي أمين

قَرع موظف أشيب يرتدي سترة رسمية طويلة جرسا، وبعد أن اعتدل في وقفته، قرأ من ورقة: يرحب فخامته، الرئيس الأبدي، المشير الحاج الدكتور عيدي أمين دادا، حامل وسام صليب فكتوريا ووسام صليب الجيش، سيّد جميع وحوش البر وأسماك البحر وهازم الإمبراطورية البريطانية في أفريقيا عموما وأوغندا خصوصا برجال البلاط في كامبالا وأصحاب المقامات الرفيعة في المدينة إلى مأدبته السنوية هذه.

من أخر ملوك سكوتلندا لـــ غايلز فودن

تبدو مدينة جدّة، عندما يطير المرء فوقها عند الفجر، كما لو أن شخصاً رمى لتوّه دلواً من الطلاء الأبيض فوقها.

أشرقت الشمس لكن الهواء لا يزال باردا. يبدو المطار الكبير مهجوراً، فالصالات المفتوحة للعامة، خمس أو عشر صالات تصطف وراء بعضها، فارغة. أما الصالات الخاصة بالعائلة المالكة فتلمع في الصحراء، محكمة الإغلاق والدخول إليها غير مسموح. صفوف المجمعات السكنية البيضاء التي بنيت خلال النمو الاقتصادي مفصولة عن بعضها بمساحاتٍ من الرمل الدبق. تبدو الجوامع والمجمعات التجارية متجمدة في الغطاء الجليدي السريالي، الدبق والشفاف، الذي يغطي الصحراء العربية في الفترة ما بين الليل والنهار.

وفيما لم يقطعه بعد هدير مكيفات الهواء، فإن صمت الفجر في جدّة هو صمتٌ مشؤوم.

استقليت سيارة برفقة مرافقي الرسمي، موظّف في وزارة الإعلام،

رجل طويل شديد الريبة. كان بانتظاري عند سلم الطائرة عندما وصلت قادما من روما. ودون أن يسألني حتى عن اسمي، كما لو كان يعرفني معرفة جيدة، اجتاز بي سريعاً نقطة تدقيق جوازات السفر والجمارك موجِّهاً كلمات فظة للموظفين. أما السائق فهو رجل أجنبي، أفريقي أسود. لم تتقابل نظراتنا ولو لمرّة واحدة. كان كلاهما يرتديان الزي الرسمي للتابع السعودي المخلص: الرداء الأبيض الطويل المسمى بـــ **الثوب**، صندل إيطاليّ أسود، وعلى الرأس **الغطرة والعقال**، شالٌ مثبّت بسلك أسود.

شعرت بالقلق، فقد انتابني إحساسٌ بأن مرافقي، عبد الله، يقرأ أفكاري وأنه يعرف سرّي. حاولت أن أشتت انتباهه بأسئلة غير منطقية بخصوص العلاقات التجارية بين بلدينا والصداقة التي تجمعهما. ثم استجمعت الشجاعة لأسأله عن الإجراءات الصارمة التي تبنَّتها الحكومة السعودية، التي تتألف، في الواقع، من أفراد عائلته، للسيطرة على الأزمة الاقتصادية غير المسبوقة. رد عبد الله بكلمات من مقطع واحد، ولم تنفرج أساريره إلا عندما بيّن لي أنه عمل لمدّة عامٍ في لندن، في مكتب وكالة الأخبار السعودية. أسأله، "هل عملت كصحفي؟" كلا. جرّبت احتمالا بديلا. "مدير مبيعات؟" جواب آخر بالنفي. ولذلك آثرت الصمت. وبعد برهة قال "عملتُ كمراقب للحياة الإنجليزية". ثم يضيف بأسى واضح "بيد أن وزارة الإعلام سحبت التمويل فاضطررت للعودة".

لا بد أن عبد الله أدرك أنني أول صحفي إيطالي تُمنح له فيزا منذ زمن طويل. لذلك حدّق بي بفضول بينما جلسنا في السيارة. لعله تساءل من هم أصدقائي في المناصب العليا. فلولا مبادرة حديثة العهد وغريبة من وزير خارجيتنا الذي زار العربية السعودية ثلاث مراتٍ في أقلّ من

عام لما كنت هنا بالتأكيد. اعتُبرَت الزيارة الأولى بأنها وفاء بدين دبلوماسي تأخر استحقاقه زمنا طويلا. أما الزيارتان اللتان تلتا بفترة قصيرة فقد أدهشتا حتى السعوديين الذين وصفوهما بأنهما «دليلٌ لا لبس فيه على الاهتمام بنا». وهذا صحيحٌ تماماً. ففي معظم الأحيان لا تحبّ الشخصيات الغربية رفيعة المستوى سوى القيام بزيارات قصيرة ومتقطعة للعربية السعودية، حيث الحرارة شديدة الارتفاع والابتسامات شديدة البرودة دوما.

عندما كنت في السفارة السعودية في مايفير في لندن، قال لي بصراحة تامة صحفيّ محنك يعمل الآن كناطقٍ رسمي: "فيزا؟ لا أتذكّر آخر مرّة وقّعت فيها واحدةً. لديّ مئات الطلبات في الدرج. ولكي أكون صادقاً معك، لا أريد أن أزيد آمالك".

بعد عدة أشهر حصلت على موعد في السفارة السعودية في روما، فيللا من القرن التاسع عشر يحكمها أمير ذو سلطة من العائلة المالكة، حيث خضعتُ لنوعٍ من «اختبار لأهلية الثقة» على شكل محادثة تنقّلتْ دونما هدف بين عدة مواضيع بشأن ما كنت أريد القيام به في العربية السعودية ولماذا. كان المسؤول عن الاختبار دبلوماسياً شاباً بدا واضحاً أنه لا يعرف ماذا يفعل بي. فقد قضى هذا الدبلوماسي معظم الوقت يتلقى الاتصالات على هاتفه الجوال من أصدقائه وأقربائه من شتى أنحاء العالم، ويعتذر لي بعدئذ: "كان هذا قريبي فلان يتصل من تورنتو. كان هذا أخي، من أبو ظبي".

اتفقنا على أن يبدأ برنامج الرحلة في جدّة، العاصمة المالية للبلاد، ثم جبيل، مجمّع صناعي في الصحراء يتألف من عدد من مصافي البترول

والمصانع بنته شركة فلبينية عن طريق عقد، ويعتبره السعوديون «مدينة نموذجية»، ثم الرياض. ثبّتنا التواريخ وحجزنا المواعيد. قال الموظف الشاب بابتسامة ساخرة أن العربية السعودية لطالما كانت حريصة على أن تتلقى الصحافة الأجنبية كل مساعدة ممكنة.

اجتزت امتحان أهلية الثقة. لم أكذب، بيد أنني أخفيت جزءا من الحقيقة، فقد أوضحتُ بأن صحيفتي تريد مقابلات مع متعاقدين إيطاليين يعملون في العربية السعودية، ومقالاتٍ عن تطوّر الاقتصاد من الاعتماد على النفط إلى التنويع الصناعي، وهذا كله صحيح. بيد أنه كان لدي برنامج عمل سري لم يكن ليجتاز أيّ اختبار.

كان هدفي الحقيقي في جدّة أن أجد رجلا في الثانية والسبعين من عمره، طوله 1,96 متر ووزنه 150 كيلو غرام، غائبٌ منذ زمنٍ طويل عن الساحة الدولية التي تسيّدها فيما مضى. عملاق كان يتفاخر بأنه آكل للحوم البشر كارهٌ لها، يتذمر من أن لحم البشر مالحٌ جداً. رئيس دولة أرسل برقيات إلى الملكة إليزابيث مخاطباً إياها بـ«ليز» يدعوها لزيارة بلده «إن أرادت لقاء رجل حقيقي». رئيس دولة أعلن إرسال سفينة محملة بالخضار إلى بريطانيا «كيما تخفف من حدّة الركود الاقتصادي الذي تمرون به». رئيس أمر أن يبث التلفاز إعدام خصومه بثا حيا ومباشرا، حيث قال بالحرف «بأنهم يجب أن يرتدوا ثيابا بيضاء كي تصبح رؤية الدم أسهل».

كان الرجل الذي أبحث عنه هو عيدي أمين دادا، العرّيف في الجيش الذي أصبح «بيغ دادي» أوغندا، «العملاق اللطيف» غير المؤذي _ كما أشارت إليه الصحافة الأوربية عندما جاء إلى الحكم _ الذي تحوّل إلى وحش.

يغادر الأفارقة جدّة في هذا الوقت: السودانيين، الأوغنديين، الصوماليين، والنيجيريين. بدأ هذا الخروج في نهاية التسعينيات، عندما أرغمت الأزمة الاقتصادية التي جلبها انهيار أسعار النفط الحكومة السعودية على قطع الإعانات الحكومية وتطبيق قوانين الهجرة. حيث جرى حرفياً تطويق بعض الأفارقة في الشوارع ومن ثم ترحيلهم.

وبعد الأفارقة جاء دور الباكستانيين، البنغاليين، والهنود.

يصارع الأفارقة الذين بقوا في منطقة القصبة القديمة لكي يُبقوا دكاكينهم مفتوحة، حيث يبيعون عطوراً مزيفة، أحذية ملونة، صابون، ومرايا. بضائع متواضعة للمهاجرين أمثالهم الذين تتضاءل أعدادهم يومياً.

أما السعوديون فيتسوقون في أماكن أخرى، في المجمعات التجارية التي تظلّ مزدحمة حتى منتصف الليل. هذه المجمعات هي الأماكن الوحيدة التي يسمح للنساء بالتردد عليها، حيث يتجولن، متحجباتٍ من رؤوسهن حتى أقدامهن، لساعات طويلة ضمن مجموعات كبيرة بينما يمسكن بأيدي أطفالهن البدناء. وجوههن مغطاة بأغطية فيها ثقبين للعينين وواحد للأنف، ويرتدين قفازات سوداء طويلة تشبه تلك القفازات التي اعتادت النساء الأوربيات ارتداءها عند الذهاب إلى الأوبرا في بداية القرن العشرين.

وبينما يقهقهن ويتهامسن فيما بينهن، تعاود النساء السعوديات الشراء مرّة تلو أخرى، إذ ليس ثمة شيء آخر يقمن به. وإذا ما ضُبطن وهنّ يتحدثن إلى رجل غريب، فبمقدور دوريات الشرطة الخاصة المسؤولة عن فرض احترام العادات الإسلامية أن تضربهن بعصيّ الخيزران.

لجدّة واجهة بحرية جميلة مهجورة نهاراً، إذ تقوم العائلات بنزهاتها

ليلا، عندما تكون القدرة على احتمال الحرارة أكبر. في الليل تتداح الموسيقا العربية من راديوات سيارات الـــ بي. إم. دبليو. ويجلس الرجال متربعين على الرمال، يدخنون، بينما تشكّل النساء وأولادهن مجموعات منفصلة. وبجوارهم يلعب الصبية كرة القدم. تسهم النزهات على شاطئ البحر في الحفاظ على الروابط مع التقاليد البدوية لدى الأجداد الذين سافروا على دروب الصحراء مع قوافلهم.

كان بحثي عن عيدي أمين يبدأ كل ليلة، عندما يتركني عبد الله في الفندق بعد يوم من اللقاءات مع المصرفيين، ورجال الأعمال، والموظفين الحكوميين، حيث كنت أستقل سيارة أجرةٍ وأطلب من السائق أن يأخذني إلى القصبة، وهناك أبدأ بالتصيد في دكاكين الأفارقة وأكشاكهم بينما أسلك الطريق الذي تسلكه العائلات في نزهاتها على شاطئ البحر. عادة ما كان سائق سيارة الأجرة سعوديا نكدا ذا تكشيرة غاضبة تكشف عن فم مليء بالأسنان الذهبية، لكن صادف في إحدى الليالي أن أوقفت سائقا هنديا. سألته كيف هي حياته في العربية السعودية فقال "جيدة"، ثم أضاف على سبيل الإيضاح "كان ثمة إعدام على مرأى من العامة في ساحة قريبة من هنا. يقولون بأنه أجنبي. باكستاني".

سألت عن عيدي أمين في منطقة القصبة. أثار هذا الاسم تعاطف الجميع. كانوا ينفعلون كما لو كانوا يتحدثون عن قريب لهم كسب ثروة وانتقل إلى حيّ أكثر رقيا، "غالبا ما كنا نراه هنا في مركز المدينة، قبيل الصلاة في الجامع أو بعدها. مرّ وقت طويل منذ أن رأيته. لقد سمعت بأنه يتسوق في واحد من المجمعات التجارية الراقية. بمقدوري أن أرشدك كيف تصل إلى هناك"، عرض عليّ سوداني من وراء طاولة تكدست عليها زجاجات الشامبو.

ذهبت إلى السوبر ماركت. جميع المحاسبين هناك فلبينيين إذ يحبّهم السعوديون لأنهم يبدون ذليلين ولأنهم يزعمون أنهم جاؤوا من جزيرة ميندناو ذات الأغلبية المسلمة. الساعة الآن الحادية عشر والنصف ليلاً، ولا زالت العائلات تتدافع أمام محلات الأطعمة كما لو كانوا في شارع أولد بوند.

"أمين؟ نعم لقد اعتاد المجيء إلى هنا" تقول فتاة فلبينية. والآن؟ تهز كتفيها. "كان يعيش في هذا الحي. لكنه انتقل كما أعتقد. إنه يتسوق في مكانٍ آخر".

حالفني الحظ في اليوم التالي، فقد قابلت شابا صوماليا قال لي بعد أن جعلني أقطع وعدا بألا أعرضّه للمشاكل، "كان عيدي أمين ملاكما. لقد خاض النزالات في الحلبة قبل وبعد أن غدا رئيسا". إن هذا الرجل على حق، فأنا أتذكر بأني قرأت عن ولع أمين بالملاكمة. فعندما كان عريفاً في الجيش عام 1951 فاز بلقب وزن الثقيل في أوغندا واحتفظ به حتى عام 1960 ثم خسره أمام عامل بناء إيطالي يدعى سيرا كان أقصر من أمين لكنه أسرع حركة منه. عاوده حبه للملاكمة في عام 1970 بعد أن اعتلى سدة الرئاسة عقب إطاحة ميلتون أوبوتي بانقلاب عسكري. وعندما هدّد بأن يختار نفسه بنفسه للمنتخب الأولمبي الأوغندي، خاض أمين نزالات مع عدد من المتبارين، هُزِموا جميعهم شرّ هزيمة.

"إن أردت إيجاده" قال الصومالي بموضوعية، "اذهب إلى الصالات الرياضية، فهناك يعرفونه جيدا".

في اليوم التالي قالوا لي في الفندق بأن أفضل الصالات الرياضية والمراكز الصحية تملكها الفنادق المنافسة مثل فندق الإنتركونتنتال،

الميريديان، والسوفتيل. الساعة الآن الرابعة عصرا، وقد سألني عبد الله الذي أُنهك تماماً إن كان بمقدوره الذهاب إلى المنزل. لذلك قررت أن الوقت حان لزيارة الصالات الرياضية.

في آخر صالة رياضية ذات تيراس ومسبح وإطلالة على الشوارع الغربية والعريضة التي تكتنفها الأشجار في جدة، فتح مُدلِّك مصري دفتر المواعيد لأجلي، وبعد أن وضعه على منضدة كتلك التي يوضع عليها الكتاب المقدّس في الكنيسة، أشار إلى اسم أمين مقابل انتساب يعود تاريخه إلى ثلاثة أشهرٍ مضت ثم قال: "كانت تلك آخر مرّة رأيته فيها".

صرت، خلال الأيام القليلة التي تلت، أعرف كل مدلّك في جدة، وبدأت أعيد تركيب حياة أمين. أخبروني بأنه يصل في سيارة رانج روفر بيضاء. اقتنى أمين، خلال السنوات الأولى من منفاه، سيارة كاديلاك لونها أزرق فاتح. ثم اقتنى شيفروليه كابريس. لطالما أحبّ أمين السيارات، فعندما كان في كامبالا، اقتنى سيارة مازيراتي حمراء، وكانت إحدى متعه الصغيرة أن يعطي إشارة البدء في الرالي السنوي عبر السافانا، ليقفز بعدئذ إلى سيارته الرياضية ويلحق بالمتنافسين الذين كانوا يسمحون له بأن يتجاوزهم، من باب الأدب، إن لم نقل من باب الحكمة.

في جدة، يعهد بالسيارة التي يصادف أنه يقودها في ذلك اليوم إلى مُستخدَم الفندق الذي قرر أن يبدأ يومه فيه. عادة ما يتناول أمين الغداء في الميريديان ثم يذهب إلى السوفيتل ليشرب الشاي أو العكس بالعكس. أما بالنسبة إلى السباحة أو المساج فإنه يفضّل الإنتركونتيننتال. وتنتهي أمسيته بتناول القهوة مع عائلته في فندق الواحة، فندق صغير لا يقصده الأجانب كثيراً.

يحيا أمين في قاعات الاستقبال، مثل شخص دائم الترحال. لعله بذلك

يوهم نفسه بإمكانية أن يستأنف رحلته الخاصة، أو لعل الفندق هو المكان الوحيد الذي يسعه فيه أن يجد شخصاً يبادله أطراف الحديث خلال النهار. ومنذ العام 1980، لم يعد لعيدي رسمياً ما يفعله سوى أن ينفق الراتب الذي وهبته إياه الحكومة السعودية باسم «التكافل الإسلامي».

يتذكر المدلك المصري وزميله المدرب المقيم في صالة الإنتركونتيننتال الرياضية بحنين بقشيش عيدي أمين وضحكته. "كل ذلك الكلام عن الجرائم والقتل محض هراء" يقولان بثقة رجلين شاهدا العالم ودلّكا الكثير من الأرداف المشهورة. "إنهم الأمريكيون، ينشرون الأكاذيب كالمعتاد. تبين لنا من مشاهدتنا له أن عيدي أمين جنتلمان حقيقي لا يؤذي ذبابة. إنه رجل رائع طالما أنك لا تسأله عن حياته كرئيس، فهو لا يحب الأسئلة بخصوص الماضي. وعندما يأتي إلى هنا مع أولاده فإنه يضحك ويمزح مع الجميع". ثم يضيفان، كدليل إيجابيّ عن استقامته الأخلاقية بأنه "يسبح كي يحافظ على رشاقته".

في اليوم التالي، وأثناء دخولنا القاعة الرئيسية لمصرف تسوده صور الملك وولي عهده، سألني فجأة عبد الله الذي بدا عابسا أكثر من المعتاد "أخبرني ماذا تفعل مساء؟"

أجبته بأني أخرج أحيانا لكي أتعرف على معالم المدينة. ثم أضفت بأني "أخرج للتسوق أيضا". بدا وكأن كلامي هذا أرضاه لكنه، على أية حال، أسدى إليّ نصيحة، "غدا هو الجمعة. أقترح أن تلازم غرفتك في الفندق، أو اسأل إن جرى إعداد برنامج للأجانب".

والحق أن الفندق أعدّ شيئا من هذا القبيل. قال موظف الاستقبال الذي أعطاني مفاتيحي دون أن ينتظر مني أي اعتراض ممكن "أنتم جميعكم

ستذهبون غدا إلى الشاطئ". والمقصود بـ«أنتم» هو الكفرة، الأجانب. ولكن إلى أي شاطئ؟ لعله امتداد للصحراء، هناك حيث تكون ثياب السباحة مسموحة كما أخبرني أحد معارفي. إنه شاطئ مخصص لغير السعوديين. يقولون بأن الحيد المرجاني مدهش.

في اليوم التالي وقفتْ حافلة مكيفة لنقل الكفرة أمام الفندق. ثمة طاقم كامل لشركة لوفتهانزا على متنها. التفّت النسوة بحجاب أسود من رؤوسهن وحتى أقدامهن كما ارتدين قفازات. طفقن يضحكن ويضايقن بعضهن بالألمانية. الحق أنه يوم عطلة ممتع وإن كان إجباريا. كانت الأسماك ملونة بألوان قوس قزح. صادفنا عائلة لبنانية تلعب المونوبولي ومعها، كالعادة، مربية فلبينية. أما الألمان فظلوا بمعزل عن الآخرين.

بيد أني كنت أتحرق لأن أستأنف الصيد، إذ أن وقتي ينفذ. هدفي التالي هو فندق الواحة. بحثت عن اسم الفندق في الدليل الذي يُعطى للأجانب، بيد أنه غير موجود. سألت في الاستقبال، إلا أنهم لم يعرفوه. في النهاية، وبعد أن حلّ الظلام، عرفه سائق تكسي.

ثمة أضواء خضراء خافتة، وأكوام من القمامة في موقف السيارات. كما أن نصف أضواء النيون الموجودة على لافتة الفندق معطلة. إن كنت تبحث عن الهدوء، ففي فندق الواحة الكثير منه. الهواء في الداخل عفن. ثمة أرائك جلدية بَهُتَ لونها، ولوحات لفان كوخ مقلّدة تقليداً سيئاً تتدلى على الحائط. قال لي شابان في مكتب الاستقبال أن أعود غداً، لكنني رفضت أن أتزحزح من مكاني. سمعت صوتاً قادماً من مكتب المدير، ثم قالا لي "يقول المعلم أن تدخل إليه".

المدير رجلٌ هندي له شارب مقصوص بشكل جميل ويرتدي خاتما كبيرا في إصبعه. بدا فخورا بالشهادات التي نالها من الفندق ومن كليات

التدريب الفندقي والتي تدلت وراء مكتبه. قال لي "أوه، نعم، أعرف كل شيء عن عيدي أمين. إنه واحدٌ من أفضل زبائني. رجلٌ يبعث على السرور".

يبدو بأن عيدي أمين، طباخ الجيش الذي ارتقى إلى رتبة جنرال ليعلن نفسه في النهاية بأنه «الرئيس الوحيد على اتصال مباشر مع الله»، مولعٌ بفندق الواحة المتواضع. روى المدير لي كيف يدخل أمين إلى الفندق، ويجلس على الأرائك مع زوجته وأولاده، ثم يطلب الشاي والكعك، ويدعو ضيوفاً آخرين للانضمام إليه، كما يعقد اجتماعات.

"يأتي إلى هنا يوميا، ولا يكاد يفوته يوم". قال المدير وهو لا يزال غير مصدق. "غدونا أصدقاء بعد فترة قصيرة من بدء تردده إلى هنا. لا يتحدث أمين العربية بطلاقة ومعي يستطيع أن يتحدث الإنجليزية بحرّية. ذات مرة سألته بجرأة كبيرة عما إذا كانت الإشاعات صحيحة، كلّ تلك القصص المرعبة.... قتلُ الآلاف من معارضيه، وترحيل آلاف الهنود من أصحاب المتاجر مع عائلاتهم.... انفجر ضاحكا ثم أجاب «يا صديقي، هذه كلها أكاذيب اخترعوها لكي يشوّهوا سمعتي. قال الأميركيون والإنجليز أنني مجنون لأنني لم ألعق أحذيتهم. هل أبدو مجنونا بالنسبة إليك؟»".

"كيف للمرء ألا يصدقه؟" سألني الهندي ونظر إلي مترقبا ينتظر ردي. بيد أني لم أستطع أن أفكر برد. بدا بأنه يقدّر تحفظي. "يا صديقي، العربية السعودية مكان مضلِّل، فليس كل شيء كما يبدو عليه. كما أن الناس لا يقولون الحقيقة دوما". أضاف مسرورا بإيضاح كهذا.

ما الذي يحاول هذا الرجل قوله؟ تلفّت الهندي حوله، ثم تكلم كما لو أن جدران فندق الواحة (التي كانت بحاجة ماسة إلى طبقة من الدهان)

تخفي مجموعة من الأسرار البذيئة، "خذ النساء مثلا. محجّبات ولا يمكن الاقتراب منهن، صحيح؟ ومع ذلك، شاهدت بأم عيني أميرة من العائلة المالكة تخلع ثيابها أمام مجموعة من الرجال وتدعوهم لكي..." يكبح الهندي جماح نفسه. "فتاة جميلة. عندما خلعت رداءها كانت ترتدي تحته ثيابا مثل امرأة أوربية، على آخر موضة".

وماذا حدث بعدئذ؟

هزّ المدير رأسه متمتما "لا أستطيع، لا أستطيع"، وسرعان ما عاد إلى موضوع عيدي أمين. "لدي رقم هاتف منزل عيدي أمين وعنوانه. الغريب أني لم أره لبعض الوقت. امنحني بعض الوقت لكي أقوم بتحرياتي وسأكون بعدئذ قادراً أن أدلك على مكانه. ينبغي علينا نحن الأجانب أن نساعد بعضنا، صحيح؟"

لابد أن كلاما دار في الفندق بأني أطرح أسئلة. فذات يوم، وبينما كنت أنتظر سيارة أجرة، تحدثت مع بوّاب الفندق. قال لي غامزا، "أنا من أوغندا" ثم انتظَرَ. تظاهرت بعدم الفهم وسألته عن عائلته وعن حياته كغريب، بيد أنه لم يحفل بهذا الكلام التافه، لذلك انتقلت إلى صلب الموضوع "كيف لي أن أجد عيدي أمين؟"

أجابني البواب مباشرة، "كان أحد وزراء العدل السابقين لديه يعمل هنا في الفندق، في قسم الحسابات. وقد صار لديه الآن عمله الخاص". قلت بأني أود الاتصال بأمين. نظر الصبي إليّ مندهشاً كما لو أني طلبت مقابلة مع الملك. "إنه مشغول. سأحاول أن أكلمه بنفسي، فهو لا يحبّ الغرباء. لكنني وأمين أصدقاء حميمون". أظن أن بيغ دادي لا يقدر أن يفلت مني الآن . ولذلك استرخيت.

وبينما شعرت بالثقة بشأن قنصي البشري، أدركت أنني كنت أُهمل أبناء بلدي فقررت أن الوقت حان كي أتصل بهم. لا يزال في جدة عدد كبير من الإيطاليين، حيث شكلوا فيها واحداً من أكبر المجتمعات الأجنبية في السبعينيات والثمانينيات. عملوا ببناء الطرق والبيوت، كحالهم في أنحاء العالم منذ أيام الإمبراطورية الرومانية. وفي العربية السعودية كانت ثمة صحراء ينبغي ملؤها وثروات لا حصر لها ولا عدد ينبغي سرقتها. وعلى الرغم من أن هذين العاملين باتا منسيين الآن، إلا أن الطليان بقوا. وفي منزل القنصل الإيطالي، أدلى إلي أحدهم، وهو ممثل شركة كبيرة للشحن بالسفن في جدة، ببعض المعلومات السارة، فمنذ أشهر قليلة فحسب كان هذا الرجل على وشك أن يدخل في صفقة مع الرجل الذي أبحث عنه، عيدي أمين.

"ذات يوم... دخل أمين إلى المكتب كان مرحا وواثقا من نفسه. طلب أن يتحدث إليّ واستفسر مني عن إمكانية شحن بعض الحاويات لأجله. قال بأن ذلك أمر ملح وهذا حديث طبيعي جداً. ثم عرفته، ودعوته باسمه، سيد أمين، وسألته أين يريد أن يرسل هذه الحاويات". فأجاب "إلى شمال أوغندا، قرب الحدود السودانية. إنها مادة سريعة العطب، كما تعلم. حمولة مهمة". حك الإيطالي رأسه الأصلع، فقد جعلته فكرة المخاطرة التي تجنّبها في اللحظة الأخيرة ـ مؤامرات أفريقية تتضمن حرباً ونشاطاتٍ يقوم بها المتمردون، إلى جانب التجارة غير المشروعة ـ جعلته يتصبب عرقا. "قلت له بأني آسف، وأنه ليس لدينا متسع على متن سفننا ضمن المستقبل المنظور".

إذاً لا يتركز انتباه عيدي أمين حصراً على أحواض السباحة وصالات الرياضة. كما أنه لم يعتد بعد على كرسيه الهزّاز، صحيح أن

شمال أوغندا هو مسقط رأسه، بيد أنه أيضاً المنطقة التي تخوض فيها القوات الحكومية للرئيس يوفيري موسيفيني صراعاً دائماً مع المتمردين المدعومين من الحكومة الإسلامية في السودان. لعله، وبموافقةٍ سعودية، يساعد المتمردين المسلمين، آملاً بأن تمهد خطوته هذه الطريق أمام عودته إلى كامبالا.

لعلّ هذه الخطة كانت جزءاً من برنامج عمله منذ بداية عام 1979. فعلى سبيل المثال، ذات يوم من أيام شهر حزيران عام 1981، أجرى، من هاتف عمومي، اتصالاً مفاجئاً بـــ **الغارديان** البريطانية (طلب منهم أن يعاودوا الاتصال به عندما نفذت منه الفكّة) حيث أعلن، بإنجليزيته الرطنة، "أقول لكم سلفاً بأن قواتٍ موالية لي تتقدّم لتسترد كمبالا بقيادة القائد تسعة ـ تسعة".

لم يظهر القائد الغامض تسعة ـ تسعة في المدينة قط. لكن يبدو بأن عيدي أمين لا يزال يحاول بعد مرور عشرين عاما.

من غير المستغرب أن يلجأ أمين إلى الإيطاليين عند الحاجة. يُشاع في جدّة أن الطائرة التي أقلّته عام 1980 إلى العربية السعودية قادما من طرابلس، حيث كان العقيد القذافي قد أعطاه لجوءاً سياسياً مؤقتا بعد فراره من كامبالا، كانت تحمل العلامة الخاصة بشركة الخطوط الجوية الإيطالية. بقيت الطائرة مهجورة على مدرج مطار جدّة القديم عدّة سنوات، ولم تستردها الشركة قط. لعلها كانت تخص الجناح المؤيد لليبيا في البوليس السري الإيطالي. ولعل نقل أمين من طرابلس إلى جدّة كان طريقة إيطاليا في ردّ دين قديم للقذافي، وقد عيل صبرها للتخلص من هذا الصديق المسلم المسبب للمشاكل.

ما أن وصل أمين إلى جدّة حتى أدلت حكومة الرياض ببلاغ رسمي

بأن الرئيس أمين يزور المملكة في «رحلة حج مديدة». لقد حافظ الملك فهد، الذي موّل بناء عدّة جوامع في أوغندا وزار البلاد شخصياً، على وعده بالمساعدة عند الضرورة.

لا تزال رحلة الحج تلك مستمرة. حيث يوقّر الناس أمين ويحترمونه لتقواه. أوضح عبدول، صيدلاني شاب من السودان، "لعله ذبح آلاف الناس، بل لعله أكل لحوم أعدائه، لكن يأتي وقت يكون فيه من الصواب أن نصفح. ففي الأخير، ليس أمين الوحيد في أفريقيا الذي ارتكب أفعالاً كهذه".

والحق أن كلام عبدول صحيح تماماً. بيد أن عيدي أمين دادا هو الوحيد الذي ارتكب هذه الأفعال بحماس يبلغ حدّ الهزء، وبمثل هذه البراعة المسرحية التي كادت أن تكون سخرية من كل ما هو سياسي.

فعلى سبيل المثال، التُقطت بتاريخ 19 تموز 1975 صورة لأمين وهو يجلس في محفّة حملها أربعة رجال أعمال انجليز هزيلين تحت أنظار وزراء خارجية الدول الأعضاء في منظمة الوحدة الأفريقية. ومشى وراءه رجل خامس أبيض من السويد يحمل مظلة لحماية رأس الرئيس من أشعة الشمس الحارقة. كان ذلك سخرية كاملة من الصور الكولونيالية القديمة. في اليوم التالي، وبحضور نفس أصحاب المقامات الرفيعة، احتفل أمين مرّة أخرى بزواجه من زوجاته (اللواتي كنّ ثلاثاً آنذاك)، وأصر على أن يقدموا له هدايا الزواج له بوصفها من حقه.

أحبَّ أمين أن يُذلَّ الناس على مرأى من العامة. فبعد تلك الحادثة بوقتٍ قصير دعا طاقماً من المصورين الفرنسيين لتصوير اجتماع للحكومة. وأمام وزرائه المرعوبين، ألقى أمين خطاباً طويلاً غير مترابط

مثل عرّيف يدرّب مجموعة من المجندين الشباب الجدد غير المنضبطين. كان وعيده المعروف هو الموضوع السياسي الرئيس للاجتماع، "إنها المرّة الثالثة على التوالي التي اتصل بها بأحد الوزراء فلا أجده في مكتبه ـ ذلك لأنهم يقولون لي بأنه غير موجود، وبأنه منصرف إلى عمله أو شيء من هذا القبيل ـ هذا الوزير مطرود، ووزير الخارجية مطرود معه". صورت إحدى الكاميرات الرجل تعيس الحظ، ورأسه مدفون في الأوراق التي يحملها، كان الجميع يعرفون المصير المأساوي الذي ينتظره.

لم يفقد عيدي قط شهيته للمهازل الوحشية. فخلال برنامج تلفزيوني طرد وزيرة خارجيته الجديدة لسوء سلوكها الجنسي، لا أكثر ولا أقل. كانت بطلة هذه العلاقة الغرامية الأميرة الجميلة إليزابيث باغايا، ابنة ملك شعب التورو (إحدى القبائل الرئيسية في أوغندا). كانت إليزابيث أول امرأة أوغندية تحصل على إجازة في القانون، وأول امرأة تتخرج من جامعة أوكسفورد وتمارس القانون في لندن. كما كانت ممثلة وعارضة أزياء لمجلة **فوغ**. ظلت إليزابيث رفيقة عيدي الدائمة لفترة من الزمن (في تلك الأثناء كان لعيدي أربع زوجاتٍ طلّق ثلاثة منهن دون سابق إنذار خلال خطاب تلفزيوني آخر). لا أحد ينسى عندما قبّلته على مرأى من العامة، في نهاية واحدةٍ من مباريات الملاكمة المشهورة في كامبالا. كانت تلك لحظة رمزيةً إلى حدّ كبير. فقد وقف الصبيّ الأمي ذو العضلات القادم من الريف، بينما قبّلته الحسناء الأرستقراطية الأنيقة. كان الأمر كما لو أن أوغندا بأسرها ـ «جوهرة الإمبراطورية البريطانية» الرقيقة والجميلة ـ قد قبلت به. عيّن عيدي أمين، الذي شعر بالامتنان، الأميرة إليزابيث سفيرة إلى باريس، ثم إلى الأمم المتحدة، ثم وزيرة للخارجية عوضا عن سيء الحظ ميشيل أونداغا. جرى عرض التوبيخ الذي

تعرّض له أونداغا أمام العامة في فيلم وثائقي فرنسي. وبهذا الخصوص، تباهى عيدي أمين أمام طبيبه الخاص، شابٌ اسكتلندي، بأنه أكل لحم أونداغا، بيد أن هذه لم تكن سوى مزحة جيدة قالها أمين، فالأمر، ببساطة، هو أن أونداغا وُجد ميتاً بين تماسيح بحيرة فكتوريا.

بدا، لوهلة، أن من غير الوارد أن تلقى إليزابيث مصير أونداغا. بيد أن عيدي أمين، بعد عدّة شهور من تعيينها في منصبها، ظهر على شاشة التلفاز غاضبا، "وزيرة خارجيتنا"، قال شاجبا، "جلبت العار على أمتنا بممارستها الحب مع رجلٍ أبيض في تواليت في مطار باريس. إنها مطرودة". هربت إليزابيث إلى كينيا، وهناك قبلت ضيافة بيغ دادي آخر، يومو كينياتا.

عادت الأميرة في النهاية، فوضعت شهاداتها وجمالها تحت تصرف المتمردين المناهضين لأمين وأصبحت الناطقة باسمهم في أوروبا. وما إن أصبح يوفيري موسيفيني رئيساً حتى عيّنها سفيرة في واشنطن. واليوم، تمارس إليزابيث القانون في كامبالا وتتزعم زمرة من عائلة تورو الملكية المنقسمة. وحيث أنها لا ترغب في الحديث عن الماضي، تكتفي إليزابيث بالقول "كان عيدي أمين مجنونا، ولطالما عرفت ذلك".

كان أحد وزراء المالية أوفر حظا. فعندما أَعلم هذا الوزير الرئيس بصورة غير مباشرة بأن خزائن الحكومة فارغة، انفجر عيدي أمين غاضبا، أمين هو كاليغولا* إفريقي حقيقي "لماذا تأتون أنتم الوزراء وتشتكون إلى الرئيس أمين في كل الأمور. إن لم يكن لدينا المال فالحل سهل جدا: يتعين عليكم أن تصكوا أموالا جديدة". انحنى الوزير وغادر الغرفة ثم فرّ إلى لندن، وبذلك أنقذ جلده.

---

* إمبراطور روماني (12 - 41م) عُرف بسياسته الاستبدادية. اغتيل. (المترجم). (ملاحظة: كافة هوامش الكتاب هي للمترجم).

لا أحد يقدر أن يتّهم عيدي أمين بأنه منافق. فعندما اتُّهِم بالفساد لم ينكر ذلك أبدا وإنما أجاب "إن إدارة دولة تشبه إدارة عمل تجاري ضخم، إذ يتعين عليك أن تمنح نفسك راتباً لائقاً".

بيد أن، شغف عيدي أمين الحقيقي كان الدبلوماسية الدولية. ذات مرّة، أعلن على راديو كمبالا "ليس هنري كيسنجر، على ما يبدو، رجلا بالغ الذكاء، إذ أنه لا يأتي أبدا إلى كمبالا كيما يستشيرني فيما يخص القضايا الدولية".

كان البلد الذي تبناه أمين هو اسكوتلندا. ففي الخمسينات كان أمين جندياً في فرقة اسكوتلندية تتمركز في كينيا الكولونيالية. أحبّ الضباط الإسكوتلنديين قوته الجسدية وضحكته العالية، وبدوره أحبّ أمين سخريتهم من الإنجليز. وعندما أصبح رئيساً أغراه إتباع مثال زميله الديكتاتور جان ـ بيدل بوكاسا في أفريقيا الوسطى، فأعلن نفسه إمبراطوراً لأوغندا. إلا أنه اختار، في النهاية، لقب «آخر ملوك اسكوتلندا»، وأصدر مرسوما ينص بأن على الحرس الرئاسي أن يرتدي تنانير اسكوتلندية ويعزف القُرَب كي يشير إلى دعمه الروح الانفصالية الاسكوتلندية.

لعل عيدي أمين بات سيد التناقض رغما عنه، فقبيل ساعات قليلة من لقائه بالبابا يوحنا بولس السادس، وصل إلى الفاتيكان وهو يرتدي بزة عسكرة تثقلها أوسمة زائفة «منحته إياها» رتب لا وجود لها في سلاح الفرسان، واختُرِعَت أسماؤها في محاكاة دقيقة للأسماء في بريطانيا الملكية، فهل كان ذلك إيماءة سياسية؟ كانت الفاتيكان لا تزال في تلك الأيام مكاناً رسميا يقصده الأرستقراطيين ببزّاتهم الرسمية ورجال البلاط بألقابهم الغريبة والمعقدة. لذلك أقنعه الأساقفة المسؤولون عن البروتوكول في آخر لحظة أن يبدل ثيابه بطقم أسود أقل تكلّفاً، ذلك لأنهم خافوا من أن

يلعب أمين لعبة المحاكاة. بعد مغادرته روما، زار أمين مصنع أوغستا لطائرات الهليوكوبتر حيث أنفق عشرات الملايين من الدولارات على الآلات الحربية. ثم أنهى رحلته في ربوع إيطاليا بزيارة لمعرض التجارة، حيث فاجأ الصحفيين المتجمعين عندما قال لهم "أنا هنا لأشجّع السياحة في أوغندا، بلدي الجميل. أدعو شخصياً جميع الإيطاليين للقدوم إلى أوغندا واصطياد أي فيلٍ ووحيد قرنٍ يريدون بكلّ حرية".

بل لقد كانت زيارة الدولة الأولى التي قام بها إلى لندن في تموز 1971 أكثر غرابة. بدايةً، وصل أمين بصورة مفاجئة تماما. ونزل مع حاشيته في فندق. وكما ينص البروتوكول، دُعي في اليوم التالي لتناول الغداء مع الملكة ورئيس الوزراء إدوارد هيث ووزير الخارجية السير أليك دوغلاس _ هوم. وبينما كانوا يتناولون القهوة سألته الملكة أخيرا، "قل لي، سيدي الرئيس، إلامَ ندين بشرف زيارتك المفاجئة؟" جاءها الجواب دون تردد "كل ما في الأمر هو أنني أردت القيام ببعض التسوق. ففي أوغندا، جلالتك، يصعب إيجاد زوجٍ من الأحذية من مقاس أربعين". آثرت الملكة أن تعتبر هذا الرد ظرافة.

على أية حال، ثمة من جعله يفهم أن زيارات الدولة تتطلب أخذ العلم. لذلك أذاع راديو كمبالا في شباط من العام 1975 بأن قصر باكنغهام تلقى الرسالة التالية من عيدي أمين:

عزيزتي الملكة

أنوي الوصول إلى لندن في زيارة رسمية في الرابع من آب هذا العام، بيد أنني أكتب في هذا الوقت لتقومي بجميع التحضيرات اللازمة لإقامتي بحيث لا يُلغى أي شيء مهم. أنا مهتمٌ بالطعام

بوجه خاص، لأنني أعلم بأنكم تعانون أزمة اقتصادية. كما أود أن ترتبي لي زيارة إلى اسكوتلندا، إيرلندا، وويلز كي ألتقي بزعماء الحركات الثورية الذين يناضلون ضد قمعك الإمبريالي.

بعد عدّة سنوات، وأثناء الاحتفالات بالذكرى السنوية الخامسة والعشرين لاعتلاء الملكة العرش، أعلن عيدي أمين بأن "دولة صديقة" ـ ليبيا على الأرجح ـ أعارته طائرة أراد بواسطتها أن يسلّم "مفاجأة صغيرة". سرَت شائعات في لندن مفادها أن أمين كان ينوي الهبوط بمظلّة فوق الموكب الملكي. وهكذا، تم تحذير سلاح الجو الملكي لكي يراقب السماء.

أحب أمين كتابة البرقيات عندما لم يكن في زيارات رسمية أو في زيارات دولة. وقد دخل عديدٌ من هذه البرقيات حوليات التاريخ الديبلوماسي.

كتب إلى ريتشارد نيكسون خلال أزمة ووترغيت: "إن كانت بلدك لا تفهمك، تعال إلى بابا أمين الذي يحبك. أُقبّلك على خديك". وكحاشية للرسالة، كتب نصيحة: "عندما يكون استقرار الأمة في خطر فإن الحل الوحيد، لسوء الحظ، هو أن تسجن قادة المعارضة".

إلى ليونيد بريجينف وماوتسي تونغ "كنت أفكر مؤخرا بالإتحاد السوفيتي والصين، فأنا قلق بشأنهما. أود أن أراكما سعيدين. علاقاتكما ليست ودية. إن احتجتما إلى وسيط فأنا تحت تصرفكما".

إلى الحكومة الإسرائيلية خلال حرب يوم التكفير: "آمركم بالاستسلام".

إلى كورت فالدهايم الأمين العام للأمم المتحدّة (وضابط الحرب السابق): "أعبّر عن دعمي لشخصية أدولف هتلر التاريخية، الذي شنّ

الحرب بغية توحيد أوروبا وكان خطأه الوحيد أنه خسرها". وقبل أن تُرسل هذه البرقية ببضع ساعات أذاع راديو كمبالا بيانا للمشير عيدي أمين يعلن فيه أنه على وشك بناء تمثال لهتلر.

إلى الأمين العام لرابطة دول الكومنولث البريطانية: "نظرا لنجاح الثورة الاقتصادية في أوغندا، أؤكد لكم أنني المرشح المثالي لقيادة لكومنولث بدل بريطانيا التي تعاني أزمة اقتصادية خطيرة".

إلى الحكومة التركية عقب غزو قبرص مباشرة: "أطلب رؤية خططكم العسكرية وفيلما عن عملية الإنزال لأنها ستكون ذات فائدة يوم يهاجم جيشي جنوب أفريقيا".

وخلال التدريبات العسكرية التي جرت تحضيراً للهجوم على جنوب أفريقيا، أطلق المشير عيدي أمين اسم «كيب تاون» على جزيرة قبالة الفيلا الخاصة به على بحيرة فكتوريا وقصفها قصفاً مستمراً بواسطة سلاح الجو. كما أعطى، باسم التحضيرات العسكرية أيضاً، الأمر بغزو تنزانيا. عندئذ قرّر الرئيس التنزاني يوليوس نيريري، مثقف ماركسي من الوزن الثقيل على الرغم من ضآلة بنيته الجسدية، كان أمين قد تحداه ذات مرّة ليلعب معه مباراة ملاكمة، أن يواجه أمين في حلبة الملاكمة للمرة الأولى والأخيرة.

لكن في نيسان عام 1979، أنقذت طائرة خاصة أرسلها القذافي عيدي أمين من أن يُعدَم بدون محاكمة على أيدي الجيش التنزاني والمتمردين الأوغنديين. الرئيس الليبي، الذي أقنع أمين بأن يقطع علاقاته الدبلوماسية مع إسرائيل وأن يؤيد المنظمات الإرهابية العربية في مقابل معونة اقتصادية، عرض عليه أن يستخدم فيلا على شاطئ طرابلس، ثم أرسله إلى السعوديين لاحقا.

في تلك الأثناء كانت الأدلة تظهر شيئا فشيئا في كمبالا بأن رائحة الدم تفوح من المظاهر الاحتفالية لدى «بيغ دادي». اكتُشِفَت الرؤوس المقطوعة لبعض خصومه في ثلاجات مقر الرئاسة. كما اكتُشِفَ معسكر إبادة على هضبة ناكاسيرو، بالقرب من إحدى فيلاته. في ذاك المعسكر بقي السجناء الذين هزلت أجسامهم على قيد الحياة بأن قضموا عظام أولئك الذين توفوا حديثا. أُرسل مستشار أمين المقرب، رجل إنجليزي يعرف بـ «الميجور بوب» أو «ثاني أكثر رجل مكروه في أوغندا» إلى السجن بعد أن اتُّهِم بأنه كان يدير «مكتب بحث الدولة»، أي القوات المسلحة السرية المسؤولة عن ذبح الآلاف. بل لقد كان ثمة ضحايا من عائلة أمين نفسها، فعندما ماتت زوجته كاي، قريبة أونداغا سيء الحظ، قُطعَت يديها ورجليها بناء على أوامر الديكتاتور لأنها أجهضت. ثم أمَرَ أن تُخاط الأطراف، اليمين لليسار والعكس بالعكس. وبعدئذ عرضها للعديد من أقربائه قائلا، "ها أنتم ترون الآن ما يحدث للأمهات الشريرات".

بات اقتصاد البلاد منهارا، بصرف النظر عن ـ أو لعله بسبب ـ «الحرب الاقتصادية» التي أعلنها أمين. ففي عام 1972، تم طرد 80000 هندي من أوغندا بين ليلة وضحاها لأنه، كما قال، رأى حلما وفيه "أمرني الله أن أفعل ذلك". سرت شائعة مفادها أن «بيغ دادي» كان على خلاف مع الآسيويين لأن أشهر عائلاتهم، عائلة المضفاني، وهي سلالة حاكمة لها استثمارات ضخمة في أفريقيا، رفضت أن تزوجه أجمل بناتها.

حتى رئيس الأساقفة الأنجيليكان تعرّض للتعذيب ثم قُتل. قالت الإذاعة الرسمية بأنه كان "حادث سيارة". جعلت الطلقات سيارته كالغربال.

كانت علاقة عيدي أمين بإسرائيل علاقة غريبة من الحب والكره. فعندما كان ضابطاً شاباً واعداً تلقى أمين تدريباً عسكرياً في تل أبيب، وأثناء وجوده هناك تلقى علاجاً للسفلس. من ناحية أخرى، كان أمين يعلم بوجود قبيلة في أوغندا تحوّلت إلى اليهودية؛ بيد أنه اختار الإسلام وطرد جميع الإسرائيليين، ناعتا إياهم بـ"المجرمين". ولذلك لم يتفاجأ أحد عندما ظهرت تفاصيل ما جرى في الكواليس خلال مأثرة اختطاف طائرة الأنتيب. ففي عام 1976 اختطفت مجموعة من الفلسطينيين طائرة إيرفرانس تحمل قرابة مئة إسرائيلي سمح أمين للخاطفين أن يستخدموا المطار، بيد أن جنوداً أرسلتهم إسرائيل حرروا جميع الرهائن ما عدا واحدة، إمرأة اسمها دورا بلوتش كانت قد أُصيبت وأُرسلت إلى مستشفى كمبالا. لم تعد دورا بلوتش إلى ديارها قط: لقد غدت ضحية أخرى لحادث سيارة.

قتل ما لا يقل مجموعه عن 30000 إنسان أثناء حكم عيدي أمين.

وبينما كنت في جدّة، حاولت الاتصال بمدير فندق الواحة الهندي، الذي وعد بمساعدتي، بيد أنني لم أجده في مكتبه قط، كما اختفى أيضاً الوزير الأوغندي السابق. كان البواب قد أعطاني رقم هاتف أمين، إلا أن أحداً لم يرد. قال البواب "لابد أنه في إجازة" في إجازة؟ ولكن أين؟ قال البواب بأنه لا يعلم. وبدل ذلك اقترح علي "عرف أين يتعين عليك الذهاب، هناك حيث ستجد الرئيس أمين على الأرجح" أجبته بأنني لا أعرف وأنني لهذا السبب أبحث عن الوزير. نظر إلي بعينين جاحظتين، فقد أدهشه أن أجهل أمرا بسيطا كهذا، "يقضي عيدي أمين ساعات طويلة في المطار. ذاك هو المكان الذي يتعين عليك أن تذهب إليه". صعقتني

الفكرة لغرابتها. هل يحاول الفرار؟ كلا، إلا أن المشير السابق يشرف الآن شخصيا على التخليص الجمركي للطعام الذي يرسله إليه أقرباؤه من شمال أوغندا.

عدّد البواب واسع الإطلاع المواد الغذائية المرسلة إلى عيدي أمين بدقة مثل طباخٍ يعيد تموين بيت المؤونة عند زيارته للسوق في الصباح: الدقيق الشهي المطحون يدوياً من كوبوكو؛ الموز الأخضر الذي يسمى ماتوكه من مدينة ماساكا، المنيهوت والدخن من دكانه المفضل في كمبالا. واختتم هذا البواب الخبير كلامه "يحبّ الرئيس لحم الماعز المشوي مع المنيهوت والدخن، وبوسعه التهام أي كمية منه".

أكّدوا هذه المعلومة في المطار. نعم، غالباً ما يأتي أمين إلى هنا، إلا أن أحدا لم يره اليوم، إذ ليس ثمة موز يتعين تخليصه. أحبطني هذا الكلام.

يلعب أحد أبناء عيدي أمين كرة السلة في إحدى كليّات بوسطن، فيما يدير آخران اتحاد كرة السلة الأوغندي. أما زوجته مادينا فقد عادت إلى كمبالا وقد أعاد لها الرئيس موسيفيني بيوتها وأرضها. كما ويعمل واحد آخر من أبنائه كمنتجٍ لأشهر وأقل برنامج إذاعي احتشاماً في أوغندا، **عصابة كابيتال،** الذي يبث على أثير إذاعة كابيتال. كان هذا الابن سيُعتقل ويُعذّب لو أنه عمل ذلك خلال حكم والده. أما بالنسبة لعيدي أمين، فليس العفو عنه بالأمر المستبعد. إذ يريد تشابا كاروانغا، زعيم حزب المعارضة الذي يُدعى المؤتمر الوطني الديمقراطي، أن يعفو عنه باسم «المصالحة الوطنية». بيد أن ثمة سبب آخر، "أثناء وجودهما في المنفى يقوم أمين وأوبوتي بدعم الحروب الأهلية التي تُقسّم البلاد. فإن نحن أعدناهما سَهُلت علينا السيطرة عليهما".

والحق أن الإشارة إلى دعم الحروب الأهلية إنما هي إشارة إلى ابن عيدي، تابان أمين، الملّقب «شريف»، الذي يعيش منذ عدّة سنوات في الكونغو (زائير حتى عام 1997) مركز جميع ما يدور في إفريقيا من حروب، وهناك يتزعم جيشاً صغيرا من المرتزقة. يحارب هذا الجيش أينما يكون في مقدوره أن يضايق الجيش الأوغندي الذي يُفترض بأنه يسيطر على المنطقة الشرقية. في الماضي، عندما كانت أوغندا تدعم جوزيف كابيلا وتعارض موبوتو، حارب ابن أمين مع موبوتو، صديق والده. بعدئذ، عندما وصل كابيلا إلى الحكم في الكونغو وتخاصم مع أوغندا، بدّل «شريف» تابان أمين مواقفه وبدأ يدعم الحكومة التي يرأسها كابيلا.

اضطر شريف تابان أمين في تشرين الأول عام 1998 لتسليم الحامية العسكرية في كيندو، إحدى المدن القليلة التي كانت لا تزال في قبضة حكومة كينشاسا. وقد أباد الأوغنديون المدينة عن بكرة أبيها. يقع مستشفى الأمراض العقلية المضطرب هذا بين مقاطعة كيفو في شرقي الكونغو وجنوبي السودان وشمالي أوغندا، حيث دارت طوال سنوات رحى ما دعاه الدبلوماسيون «أول حرب عالمية» في إفريقيا.

تراجع تابان أمين إلى مبانداكا، حامية أخرى منسيّة في الغابات، حيث يقود تحالفا غير مقدّس قوامه رجال الميليشيا من القبائل السودانية (فالسودان المسلمة تكره أوغندا) ومقاتلي هوتو السابقين المسؤولين عن الإبادة الجماعية لشعب التوتسي في رواندا. أما حليفه الآخر فهو جيش ثوار غامض يدعى جبهة ضفة النيل الغربية كان يتزعمه وزير خارجية أمين السابق، جوما أوريس. أصبحت الأمور واضحة بالنسبة لي الآن: كان تابان أمين هو الشخص الذي خطط أمين أن يرسل له الحاويات على

متن السفينة الإيطالية، ولم تكن تلك الحاويات مليئة بالموز الأخضر.

أنا على وشك أن أغادر جدّة في طريقي لزيارة مصافي النفط في جبيل. اختفى مرافقي عبد الله. ذهبت لوداع البوّاب الأوغندي الذي سألني "هل ستذهب الآن وقد وجدنا الرئيس؟" "وجدنا؟" "أقصد أنا ووالدي، الوزير السابق".

عبّر وجه الصبي عن ذهوله لإخفاقي في ربط الأمور بعضها ببعض "لقد ذهب عيدي أمين ليمكث في مكة لبعض الوقت، في منزل يخص العائلة المالكة".

مكة مدينة لا يَدخُلها الكفرة. لا ريب أنهم يبعدون أمين عني أو عن السفن المتجهة إلى إفريقيا. فرّت طريدتي وفاز بيغ دادي.

"لا تقلق. لديّ رقم هاتفه. لنذهب ونتصل به"، قال البواب.

بعد ذلك بساعتين كنت أتحدث من كشك هاتف عمومي. أجابني صوت عيدي أمين القوي ضاحكاً. "علمت بأنك كنت تبحث عني، لكن كان علي أن أتأكد أولاً بأنك لست جاسوساً. ما الذي تود معرفته؟ فأنا لم أعد مهتماً بالسياسة".

كيف هي حياتك هنا، سيدي الرئيس؟

"إنها جيدة. جيدة بكل تأكيد. أنا مسلم صالح لا أهتم هذه الأيام سوى بالإسلام. بات أولادي شباناً وغادروا جدة. أرسلت اثنين منهما إلى الجامعة في الولايات المتحدّة مؤخراً. لديّ ابنة صغيرة اسمها إيمان، وزوجة شابة، بيد أنني متفرغ للدين لا غير. أحفظ القرآن، أعزف على الأرغن، وأذهب للسباحة وصيد السمك في منتجع قرب الحدود اليمنية. الأسماك هناك شهية، صدقني. أحيا حياة هادئة".

إلامَ تفتقد، سيدي الرئيس؟

"أفتقد الطعام الأوغندي. كما أفتقد أصدقائي. عندما كنت رئيساً كنت أخرج ليلاً برفقة أصدقائي، زملاء سابقين في الملاكمة، أو برفقة الشباب من المنتخب الوطني لكرة القدم. أحببت الذهاب إلى الرقص مثل بقية الناس. أنا في الأساس بطل ملاكمة، كما تعلم. رياضي".

هل تطّلع على الأحداث السياسية؟ وهل لا تزال ناقداً لبريطانيا والولايات المتحدة؟

"صارت هذه الأشياء من التاريخ، بمعنى أنها صارت من الماضي. أتابع الأخبار الدولية، إلا أنني لا أريد أن أشغل تفكيري بشؤون القوى العظمى. لديّ في منزلي في جدّة خمسة صحون لاقطة، إنها تحفة فنية. أشاهد البرامج التلفزيونية من شتى أنحاء العالم. وأتحدث عدّة لغات، بما فيها اللينغالا، لغة الكونغو، حيث كنت قائداً لفرقة عسكرية موالية لموبوتو عندما كنت ضابطاً شاباً. يجب أن أقفل الخط. لا تريد الحكومة أن أتحدث إلى الصحافة فأنا مجرّد ضيفٍ هنا".

وماذا تقول عن أوغندا في الوقت الحاضر؟ وعن موسيفيني؟

"أقول بأنه يجب أن يتوقف عن تشويه سمعتي. أدعو وأصلي لله العظيم أن يبتليه بمكروه. كذلك آمل أن يتوقف عن مهاجمة الكونغو وعن جعل الأفارقة يقتلون بعضهم".

هل تشعر بالندم؟

"كلا. أشعر بالحنين فحسب".

إلامَ؟

"إلى الوقت الذي كنت فيه ضابط صفٍ أقاتل ضد الماو ماو في كينيا وكان الجميع يحترمني. كنت قوياً مثل ثور. كنت جندياً جيداً في الجيش البريطاني. أتذكر الرعب الذي بثه الماو ماو. ولدت في عائلة شديدة

الفقر، ولذلك تطوعت هرباً من الجوع. كان قادتي اسكوتلنديين، وقد أحبوني. الإسكوتلنديون أخيار، كما تعلم".

ثمة أغنية قديمة لفرقة مانهاتن ترانسفير يغنيها سلينغر فرانسيسكو أسمها «مطلوب: ميتا أو حيا». تقول الأغنية:

ينهار حكم الطغاة
في العام 1979
من أوغندا إلى نيكاراغوا
لايوجد سوى القنابل والطلقات
بها يخرّبون، بها يحتقرون
ولذلك ليس ثمة سوى الإنقلابات
حقوق الإنسان ينتهكون
يظنون بأنهم عظماء، ملعونون

وهكذا يعيشون الآن في خزي وعار في المنفى
غايري رجلٌ مطلوب
عيدي أمين رجل مطلوب
شاه إيران حاول جهده لكي ينجو
كان أيضاً مطلوب ميتاً أو حياً.

عند عودتي إلى جدّة بعد أسبوع حياني البواب بابتسامة عريضة. "الرئيس أمين في المدينة، لكن ليس لوقت طويل. لعل بمقدوره أن يراك الليلة. سآخذك إلى هناك".

كان بيغ دادي بانتظاري في الطابق الثاني من فيلا بيضاء تحيط بها فيلات بيضاء أخرى. عملاق برداء طويل مشدود بحزام حول الخصر وقلنسوة ضيّقة. لم تتغير تلك العينان الجاحظتان اللتان تبدوان على وشك أن تقفزا من الصور التي يرتدي فيها بزّات عسكرية مزركشة. بيد أن عيدي أمين دادا، الرجل الذي نصّب نفسه هازم الإمبراطورية البريطانية، لا يريد سوى أن يريني آخر ألعابه، تلفزيون بصحن لاقط. ترتعش يداه انفعالاً. لا يزال صوته المشهور خفيضا كما كان منذ عشرين عاما مضت، عندما كان يمضي رئاسته في إعداد مضن لغزو زائف لإسرائيل، فيما أسماه «التدريبات العسكرية» الهدف منها إثارة إعجاب العالم الإسلامي والفوز بحظوته.

"أردت أن أبرهن لك بأنني، **إن شاء الله**" ـ رفع عينيه إلى السماء بما يتوافق مع الشريعة الإسلامية ـ "لا أعيش معزولا عن العالم، كما يكتبون في الصحف الأوغندية. لا يزال لدي أصدقاء عدّة، ولا أزال أتابع الأخبار. لا زالت لديّ خبرة بالحياة".

الشاشة واسعة بقدر ما هو عيدي أمين ضخم. انتقل العريف السابق بين القنوات ضاغطاً على أزرار جهاز التحكم عن بعد بنوعٍ من الجنون التام: ب ب سي، التلفزيون الليبي، التلفزيون السعودي. وكان ينطق بهذه الأسماء كما لو كانت آيات من القرآن.

بعدئذ اعتذر، إذ أنه مضطر للمغادرة. قال بأن لديه "موعداً مهماً". "ربما نتحدث عندما تأتي إلى جدّة في المرّة القادمة".

أشار لي البواب بأنه يتعين عليّ أن أغادر. لمحت سيارة كاديلاك بيضاء تغادر المرآب. وسمعت صوت طفل يبكي من إحدى الغرف.

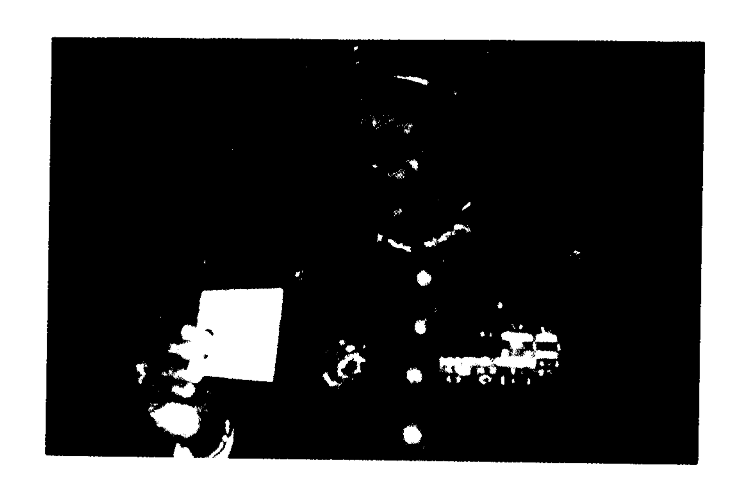
كانت مانهاتن ترانسفير مخطئة. صحيح أن عيدي أمين «رجل مطلوب»،

بيد أن بيغ دادي "لا يجد البقاء على قيد الحياة صعبا".

لقد تفوّق عيدي أمين على أناه الأعلى؛ الجندي الإفريقي المتواضع الآخر الذي تنقل بين الرتب الكولونيالية ليصبح رئيساً وديكتاتوراً لبلاده: جان ـ بيدل بوكاسا رئيس أفريقيا الوسطى. كلاهما متهمان بأكل لحوم البشر، وقد ارتد كلاهما إلى الإسلام مرضاة للعقيد القذافي ولكي ينالا بترو ـ دولاراته. كان بوكاسا وأمين شديدي الشبه لكي يصبحا صديقين، ولذلك نادراً ما التقيا. بيد أن التاريخ شاء أن تنتهي إمبراطوريتهما المفزعتين في العام ذاته: 1979، وبالطريقة ذاتها: عمل عسكري تقوم به قوّة أجنبية، فرنسا في حالة بوكاسا وتنزانيا في حالة عيدي أمين.

كان لكليهما ميلٌ إلى النساء، والأوسمة الزائفة وحياة الجيش، وربما لحم البشر. كما فرّ كلاهما عام 1979، العام ذاته الذي فرّ فيه شاه فارس من طهران. كان عاماً سيئاً على الطغاة. بيد أن العريف السابق لم يُحاكم ويُسجن كما جرى لبوكاسا. فبينما حُكم على بوكاسا **غيابًا** بالموت عام 1980 وصل عيدي أمين سالماً إلى جدّة، حيث رحَّب به عدد كبير من أفراد العائلة المالكة السعودية. وعلى عكس الضابط الفرنسي السابق الذي انقلب على أسياده المستعمرين السابقين، وجد بيغ دادي كمبالا، يوم سقط، دادي أكبر يعتني به.

سقط الملاكم القديم، ولكن بدون ضربة قاضية.



بوكاسا

كان من الصعب التصديق بأن الغول تغيّر فعلا، بيد أن أمورا غريبة تحدث عندما تنقلب أحوالك.

من البدوي لـــ ماري آن فيتزجيرالد

على حائط أبيض في الطرف المقابل من الغرفة اتكأت آخر التذكارات الباقية من إمبراطوريته: عرش مذهّب مُنجَّد بمخمل أحمر وبزّة مدرعة. "هل ترى ذلك؟" سألني مشيرا بعصاه ذي الرأس العاجي دون أن ينهض عن الأريكة. كان العصا هو نفس «**عصا العدالة**» المشهور الذي استخدمه في عام 1977 ليضرب المراسل الصحفي الإنجليزي مايكل غولد سميث. "تلك البزّة المدرعة من القرون الوسطى أصلها من إسبانيا. إنها هدية الجنرال فرانكو بمناسبة تتويجي. لقد تعيّن على أعتى زعماء العالم القدوم إلى بنغي في ذلك اليوم. وللمرة الأولى انحنى هؤلاء الزعماء لإمبراطور إفريقي. نعم" أضاف، وعلى وجهه ارتسم تعبير ينم عن نشوة، "هنا في بنغي. كما تعيّن على كل واحد منهم أن يجلب لي هدية رائعة".

توقف عن الكلام ونظر إليّ. كانت عيناه تلمعان كعيني طفل صبيحة عيد ميلاده. تركت رأسي مطرقاً وتظاهرت بأني أدوّن الملاحظات. وبالرغم من أن عدم رغبتي بمشاركته بهجته أحبطه، إلا أن جان ـ بيدل بوكاسا تابع قائلاً "لم أَعُد، في ذاك اليوم، الشخص الذي يتعين عليه أن يقدم الهدايا دوماً: الماس، العاج، النساء... احترمني زعماء الدول لأنني كنت إمبراطورا". ومرّة أخرى أشار برأس العصا العاجيّ إلى البزّة المدرعة، كما لو أن هذا الأثر القديم ضمّ ـ إلى جانب حفنة من الحشرات

الإفريقية التي حمّصتها الحرارة حتى اهترأت ـ برهانا على هيبته الإمبراطورية.

إلا أن أغرب حفل تتويج في التاريخ الحديث لم يجرِ تماما كما تذكّره بوكاسا.

في ذلك اليوم المشهود، يوم 4 كانون الأول 1977، كان الغائبون أرفع شأناً من الحاضرين في قصر جان ـ بيدل بوكاسا للرياضة، الواقع في جادة بوكاسا، بالقرب من جامعة جان ـ بيدل بوكاسا. ولم يكن حفل التتويج هذا الأول الذي انحنى فيه «العالم المتمدن» لإمبراطور إفريقي.

فلأجل تتويج هيلا سيلاسي عام 1930، عندما استمرت الاحتفالات ثلاثة أيام في هضاب أديس أبابا التي يلفّها الضباب، أرسلتْ جميع القوى العظمى وفوداً عالية المستوى أو أفرادا من عائلاتها المالكة على الرغم من متاعب الرحلة. فقد سافر من لندن دوق غلوشستر، شقيق إدوارد الثامن، وبصحبته جورج السادس. كما قَدِم الأمير يوجينو دي سافوا من روما. بل لقد أُرسِل مبعوثون من موسكو وواشنطن.

وبالمقابل، لم يحظَ حفل تتويج بوكاسا الأول حتى باهتمام الأوتوقراطيين أمثاله. فقد غاب الجنرال فرانكو، وسافرت البزّة المدرعة الإسبانية لوحدها، على متن سفينة. كما اعتذر إمبراطور اليابان هيروهيتو وشاه إيران رضا بهلوي، وهما أول المدعوّين لأن بوكاسا اعتبرهما ندّيه الوحيدين اللذين يماثلانه رتبة. لم يظهر اسم هيلا سيلاسي ذائع الصيت على لائحة الضيوف إذ كان قد توفي منذ عامين، خنقه على الأرجح ضابط شاب كان اسمه، منيغيستو هايل ـ مريم، سيغدو سيء السمعة إلى حد كبير خارج أثيوبيا. كان الكونت إيمانويل، قريب أمير لشنشتاين،

ورئيس وزراء موريشيوس سيفوساغور رام غلام، الأبرز من بين أصحاب المقامات الرفيعة الخمسمائة. فيما لم يزعج عيدي أمين رئيس أوغندا، وموبوتو سيسيسيكو رئيس زائير، أو عمر بونغو رئيس الغابون أنفسهم، وثلاثتهم أصدقاء أفارقة لبوكاسا منذ زمن طويل، كما أنهم أوتوقراطيين مثله. رفض عيدي أمين الدعوة على أساس أنه يعرض نفسه لخطر الإختطاف على يد المظليين الإسرائيليين كنتيجة لحادثة اختطاف طائرة الأنتيب. إضافة إلى ذلك، كان مشغولاً بخططه لغزو جنوب أفريقيا التي يحكمها البيض.

تبيّن، عند الفحص الدقيق، بأن معظم «الهدايا الفخمة» ـ ربما حتى البزّة المدرعة الإسبانية ـ عديمة القيمة. وحدها فرنسا كانت سخية بحق (كان العالم سيعرف السبب يوماً ما). فقد «أقرضت» الحكومة في باريس الاثنين والعشرين مليون دولار التي احتاجها بوكاسا ليشتري ثياباً احتفالية لآلاف الضيوف، إضافة إلى عرش على شكل نسرٍ نابليوني بارتفاع ثلاثة أمتار ونصف وعرض خمسة أمتار، وعربة إمبراطورية مذّهبة مع ثمانية أحصنة بيضاء جرى تدريبها في بلجيكا، وتاج من تصميم مصمم المجوهرات الباريسي آرتوس برتراند يحتوي على ماسات، وصل وزن بعضها إلى ثمانية قيراطات، ولوحتين مرخّصتين للفنان الألماني هانز لينوس، وموسيقا (لحن عسكري إمبراطوري وفالس إمبراطوري) أُوصيَ بها من عند مؤلف موسيقي فرنسي، زائد 24000 زجاجة مويه إي شاندو و4000 زجاجة شاتو موتو روتشيلد وشاتو لافيتي روتشيلد، زائد ستين سيارة مرسيدس شُحنت بحراً من ألمانيا إلى الكاميرون ثم نُقلت جوّاً فوق الغابات إلى بنغي. دون أن ننسى فرقة «الهوصار*» المحمولة التي شُكّلت

* الهوصار: وحدة من الوحدات العسكرية الأوربية خفيفة التسليح منظمة على طريقة سلاح الفرسان الهنغاري في القرن الخامس عشر.

وأُلبست بزّات مقصبة على طراز القرن التاسع عشر خصيصاً للمناسبة رافقت العربة الإمبراطورية.

اتّقدت عينا بوكاسا وهو يستمع إلى لائحة الهدايا الأوروبية الباذخة بشكل غير معقول، التي شُحنت جوّاً إلى قلب أفريقيا. كانت هذه الهدايا مظاهر ترف لم تسبق مشاهدتها من قبل في بنغي؛ مدينة لا تزال تفوح منها رائحة الدخان التي تنتشر في قرية أفريقية، وتمتد متكاسلة على ضفتي نهر موحل يعجّ بأفراس النهر.

"كُله صحيح. ولكن هل ثمة خطب في ذلك؟" سألني. اتخذ صوته المنخفض نبرة حادة، وأحكَم قبضته على العصا. "كان هذا أقل ما يفعله الفرنسيون كي يكافئوني على خدماتي كجندي حارب لأجل بلدهم، وعلى جميع الهدايا الشخصية التي تلقاها ساستهم عندما أصبحت رئيساً. أنا ابن ملك. لطالما أيقنت أنني سأُتوَّج في حفل مهيبٍ يوماً ما. لقد كان الهدف من حفل تتويجي أن يعطي لبلدي هيبة في عيون بقية العالم. ولم تدفع حكومة إفريقيا الوسطى فرنكاً واحداً لأجل التتويج. فعلت ما كان سيفعله أي ملكٍ أفريقي آخر. وإن كان موبوتو وأمين قد اختارا ألا يحضرا، فذلك لأنهما شعرا بالغيرة من كوني سأصبح إمبراطوراً. شعرا بالغيرة من فكرتي".

صمتَ فجأة، وأسبل جفنيه. بدا وكأنه غطّ في النوم. عبر الغرفة مشى على رؤوس أصابعه رجلٌ يرتدي معطفاً غير مناسب متجهاً إلى أريكة بوكاسا حيث جلس الإمبراطور تحميه ستارةٌ بيضاء من أشعة الشمس الحارقة في جمهورية أفريقيا الوسطى. خطا الرجل تَعِباً على البلاط السيراميكي العفن، مكشّراً في كل مرّة اهتزت فيها إحدى البلاطات واحتكت بشدّة على جارتها.

"رئيس مجلس وزرائي" أوضح الإمبراطور السابق مشيرا بالعصا في اتجاهه بحماسة أقل من تلك التي أشار بها إلى البزّة المدرعة. وافقه رجل البلاط ببرود بينما أحنى رأسه.

أطلق بوكاسا واحدة من خطبه العنيفة المسهبة التي لا حصر لها ولا عدد ضدّ الفرنسيين وقد فعل ذلك مرّتين أو ثلاثاً خلال الساعات القليلة التي قضيناها معاً. عَدَّد بوكاسا شكاويه بنبرة خفيضة رتيبة مثل محامٍ يقرأ وصيّة محتوياتها معروفة تماماً لدى جميع أفراد عائلة المتوفى.

أولا، التغيّر الكامل والمفاجئ في مواقف البلد الذي تبناه والذي أحبه بوكاسا ذات مرّة، البلد الذي حارب لأجله في ثلاث قارات، والذي سلبه بعدئذ قصوره، تاجه، وسمعته. ثم «خيانة» فاليري جيسكار ديستان، الذي كان ذات مرّة «قريبه العزيز»، الصياد الشرِهٌ للفيلة والنساء، الذي كان وراء إقصائه من الحكم. ثم الخيانة الجنسية التي ارتكبتها الإمبراطورة كاثرين، حيث اتهمها بأنها عشيقة جيسكار وبأنها تقاسمت معه الجواهر التي أسماها بوكاسا، في لحظة صدق نادرة، "مغارة علاء الدين الخاصة بي".

"بل لقد حاربتُ لأجل فرنسا في الهند الصينية بعد أن حاربتُ لأجلها هنا في أفريقيا. أوه، نعم، الهند الصينية. كما حاربت النازيين مع قوى الفرنسيين الأحرار. ضحيت بشبابي لأجل فرنسا، وذلك بغض النظر عن حقيقة أن الفرنسيين قتلوا والدي أمام عينيَّ، أمام مقر قيادة الشرطة في مبايكي مباشرة. كان والدي زعيماً قاوم الاحتلال الاستعماري. بعد موته بفترة قصيرة، قَتلتْ والدتي نفسها من اليأس. كان عمري ست سنوات. ومع ذلك حاربت لأجل فرنسا طوال اثنين وعشرين عاماً. قلّدني الفرنسيون الأوسمة: وسام صليب الحرب، وسام صليب المقاومة مرتين،

وسام جوقة الشرف، كما منحوني معاش ضابط تقاعدي. وعندما كان الساسة في باريس يريدون الماس، كانوا يلمّحون إلى أنهم سيمنحوني وساما ثانيا من أوسمة صليب الحرب. علاوة على ذلك، لم أعط الماس لجسيكار وحده، بل أعطيت أناساً آخرين أيضاً، في فرنسا وأماكن أخرى. والسبب الوحيد الذي يمنعني من ذكر الأسماء هو أنني... هو أنني لا أريد أن أكوّن أعداء آخرين. أشعر الآن بكره شديد لفرنسا بحيث لو كانت تلك الأوسمة لا تزال لديّ لرميتها في صندوق القمامة على مرأى من كاميرات التلفاز".

ضَحِك رئيس مجلس الوزراء ضحكة عالية مصطنعة. بينما دفع بتأنٍ كبير طبقاً صينياً كبيراً مليئاً بالأدوية نحو بوكاسا. كان في الصينية زجاجات، وعلب مستطيلة، وقوارير صغيرة عليها أسماء فرنسية. تظاهر الإمبراطور بأنه لم يلحظ ذلك. بيد أن الرجل ذو المعطف رفض الاعتراف بالهزيمة. نظر بوكاسا إلى الصينية باشمئزار. "أنا مريض جدا، ويصعب عليّ أن أتحرّك الآن. لا أقدر أن أقف على قدميّ أكثر من دقيقتين ـ كلا، بل ثانيتين. حاول الفرنسيون تسميمي في مناسبات عدّة، بل لقد سمموني فعلا".

أومأ الجنتلمان الإفريقي موافقا، ورأسه لا يزال محنيّا، في حين استمر بدفع الصينية برفق نحو بوكاسا. "بيد أني نجوت، ليس بفضل الأدوية، بل بفضل هذا". فجأة لوّح بالصليب الفضي الثقيل الذي كان حتى تلك اللحظة على طاولة القهوة أمام الأريكة. كان عبارة عن منحوتة بارتفاع نصف متر، صليبٌ مُصْمَتٌ ينتصب على صخور ألبيّة وفي مركزه مسيحٌ مهزول. "أعطاني إياه بولس السادس عندما عيّنني سراً الرسول الثالث عشر لكنيسة الأم المقدسة".

رفعت عينيّ عن دفتر ملاحظاتي. لعلي لم أفهم تماما.

فعلا، كان الإمبراطور السابق متسربلا بالأبيض، كان يرتدي رداء كهنوتيا يصل إلى خُفّيه المطاطيين. وقد علّق صليبا آخر بسلسلة حول رقبته. بدا بحال جيدة: بالكاد غزا الشيب شعره ولحيته؛ ولازال أنفه نفس الأنف الأفطس كما في صوره القديمة، كتلك الصورة التي التقطها ريتشارد ميلوول، مصوّر نجوم السينما. في تلك الصورة ترى بوكاسا ببزّة «مارشال الجمهورية»، واقفاً في المكتب الرئاسي مُظهراً للكاميرا ـ بزهو لم يستطع إخفاءه ـ ماستين كبيرتين غير مصقولتين يمسك بهما بطريقة تنم عن خبرة، بين إبهامه وسبابته، كما لو أن من الطبيعي تماماً بالنسبة لرئيس دولة أن يحتفظ بالأحجار النفيسة في درج مكتبه.

لم يأبه بوكاسا بنظرتي. ظلّت عيناه تنظران بثبات إلى نقطة في الغرفة كانت، بحسب ما يمكنني قوله، خلواً من أي شيء. في تلك اللحظة ركضتْ إلى داخل الغرفة فتاة صغيرة ترتدي بزّة مدرسية زرقاء وجلست منكمشة قربه على الأريكة. إنها إحدى بناته الكثيرات اللواتي وجد صعوبة في تذكّر أسمائهن. ناداها بـ"صغيرة".

بعدئذ التفت بوكاسا إليّ وعلى وجهه تعبير عن الغضب تأخر في الإفصاح عنه "ألا تصدقني؟ أعطاني البابا هذا الصليب أثناء زيارتي إلى الفاتيكان في 30 تموز 1970. قبل ذلك بوقت قصير عمّدني في قدّاس خصّني به في ديره الخاص. سألني إن كنت جاهزاً لتلقي شرفٍ عظيم. عندما قلت بأني جاهزٌ قام بالطقوس اللازمة. ومنذ ذلك الحين كان دوري في الكنيسة الكاثوليكية دوراً خاصاً وسرّياً. فعندما كنت في الحكم لعبت دور وسيط للفاتيكان في خلافاتٍ عدّة، كالخلاف بين ليبيا ومصر. وبعد الإطاحة بي، منحني الفاتيكان لجوءاً سياسياً، إلا أني رفضت. عندما كنت

في السجن في إفريقيا الوسطى، أنتظر الإعدام، ومن ثم عندما كنت أتوقع أن أقضي حكماً بالسجن المؤبد، زارني مبعوث إيطالي، الأخ أنجيلينو. وقد أصبحنا أصدقاءً. أعطاني كتاباً مقدّساً. ظل هذا الكتاب الوحيد الذي قرأت طوال سبعة أعوام، فقد جعلني أدرك أن إرسالي إلى السجن كان نعمة إلهية. أصبحت حرّاً، الآن وقد أُلغي حكم المؤبد. أنا فقير، لا أملك شيئا، ولا حتى متراً مربعاً أو ماسة واحدة. لا أريد أي شيء بعد الآن. كلّ ما تبقى لي هو لقبي كرسول، مثل بطرس وبولس".

صمت بوكاسا ثانية. في الخارج، كانت الحرارة الشديدة لشمس ما بعد الظهيرة لا ترحم. كرر رئيس مجلس الوزراء تاريخ زيارة الڤاتيكان، ربما لكي يعطي هذا البوح مصداقية أكبر: 30 تموز 1970 حاول الإمبراطور جاهداً أن يقف على قدميه. قفزت ابنته لمساعدته. وفي الصمت الذي يعم ڤيللا ناصر، منزل الإمبراطورة كاثرين الذي بات الآن جدرانا متصدعة وفناءاتٍ مُعشبة، كرر بوكاسا قائلاً "أعطاني البابا بنفسه هذا الصليب. إنه الشيء الوحيد الذي أحتفظ به إلى جانب كتبي المقدسة الثلاثة عشر. وكل ما عداها بات من الماضي؛ الأرض، الأوسمة، السلطة، والنساء. أعطيت هذا المنزل، فيلا ناصر، لزوجتي السابقة مدام كاثرين، بالرغم من أنها لا تستحقه بعد خيانتها لي مع فاليري جيسكار ديستان. هذا الرجل سرق ماساتي وزوجتي. إنه قرصان. لقد عاملني على ذلك النحو لأنني أفريقي. لكن هذا ليس بالأمر المهم، فأنا اليوم رجل سلامٍ ودين بفضل التدخل الإلهي. ولا أزال في قرارة نفسي فخامة بوكاسا الأول، رسول السلام وخادم يسوع المسيح، إمبراطور ومارشال أفريقيا الوسطى".

في اليوم التالي رافقته إلى المحكمة. كان يرتدي الرداء الأبيض ذاته

ذو الياقة الضيقة المزررة. كان الصليب حول رقبته، فيما كانت يداه تمسكان بالصليب المنحوت، وقد حمل تحت إبطه لوحة مؤطرة للمسيح كما لو كانت حقيبة محامٍ. حيّاهُ المارة باحترام، وتبعنا عدد من الصبية يرتدون الجينز والنظارات الشمسية، ويضحكون فيما بينهم بصوت منخفض. رافق بوكاسا عددٌ من أولاده والرجل ذو المعطف. كانت الضفاف الموحلة لنهر أوبانغي غير بعيدة، وهناك كان بمقدورنا أن نرى النسوة يغسلن الثياب والصيادين في قوارب حفروها في جذوع الأشجار.

كانت القضية أمام المحكمة طلباً بإعادة الممتلكات المصادرة بعد انقلاب عام 1979، عندما أكرهته القوات الفرنسية على قبول المنفى، القوات ذاتها التي وضعته في الحكم عام 1966. كانت حكومة بنغي تطالب بملكيّة قصوره في فرنسا. جلست عشيرة بوكاسا بأكملها، وقد تزعمتها «الصغيرة»، على مقاعد العامة. وبعد عدّة دقائق افتتحت الجلسة.

عندما عُدنا إلى فيللا ناصر سألني إن كنت أود أن ألتقط له صورة بالبزّة.

أجبته بنعم، بيد أنه لم يكن من الواضح إن كان يشير إلى بزّة رسول الكنيسة الكاثوليكية أو البزّة العسكرية. اختفى داخل واحدة من الغرف التي لم تشغل جميعها سوى زاوية من الفيللا.

خرج إلى الفناء مرتدياً بزّة عسكرية، وقد علّق على صدره الأيسر الصليب النابليوني لمارشال عَيّن نفسه بنفسه وسبعة صفوف من الشارات. كان يحمل عصاه ذات الرأس العاجي، **عصا العدالة** التي نَزِلت في الماضي على كبار الخدم، الوزراء، المعارضين، بل وحتى على أولاده.

وبينما كان يحدّق في الفضاء، ويتحدّث بلهجة رتيبة، قصّ بوكاسا سيرته الذاتية.

"اسمي جان ـ بيدل بوكاسا. عُمِّدْت عام 1950 في فريوس، حيث كانت تتمركز فرقتي الفرنسية. عمدني البابا بولس السادس كرسول في 30 تموز 1970. كنت رئيساً من عام 1966 إلى عام 1976. كنت، ولا أزال فعلاً، إمبراطور أفريقية الوسطى، إذ تم تتويجي بتاريخ 4 كانون الثاني 1976. أزاحني الفرنسيون من الحكم بانقلابٍ عسكري بتاريخ 20 أيلول 1979. حُكِم عليّ بالموت **غيابياً** بتاريخ 20 تشرين الثاني عام 1980. في العام نفسه تم تسليمي إلى سجن في ساحل العاج، ثم سُلِّمتُ إلى فرنسا، وهناك بقيتُ تحت المراقبة طيلة عامين قبل أن تتم إعادتي أخيراً إلى أفريقيا الوسطى بتاريخ 23 تشرين الثاني 1986. استمرت محاكمتي من يوم 23 تشرين الثاني 1986 حتى يوم الجمعة 2 حزيران 1987، حيث حُكِم علي مرّة أخرى بالإعدام. جرى تخفيض الحكم، أولاً إلى سجن مدى الحياة وعشرون عاماً أشغالاً شاقة، ثم إلى عشرة أعوام أشغالاً شاقة. أُطلق سراحي أخيراً في الأول من أيلول 1993. تلك قصة حياتي، وذلك أنا. أنا جان ـ بيدل بوكاسا. كما لم تعد لديّ أي طموحاتٍ سياسية. الرئيس الحالي لأفريقيا الوسطى هو الرئيس باتاس".

وما إن انتهت تلاوته لسيرته حتى، أسرع بوكاسا إلى الداخل وارتدى ثوبه الكهنوتي مرّة أخرى. "أعطوني هذا الثوب في السجن. إنه من القدس". همس بنعومة، ثم كرر كما لو كان مستغرقا في حلم من أحلام اليقظة "من القدس، من القدس".

كان من الطبيعي أن تكون القصة الحقيقية لحياته مختلفة نوعا ما.

فبعد الانقلاب العسكري الفرنسي، وعقب مصادرة سويسرا وأفريقيا الوسطى لممتلكاته، عاش بوكاسا لعدّة أشهر في ڤيللا كوكودي الفخمة ذات الرقم خمسة في جادة الكورنيش في أبيدجان وليس في سجنٍ في

ساحل العاج. أما الإمبراطورة كاثرين، وقد تنبأت ما كان على وشك الحدوث، وقررت الابتعاد عن بوكاسا قدر الإمكان، فقد تم ترتيب استقرارها بأمانٍ في جنيف، وهناك قضت معظم وقتها في قراءة بطاقات التاروت•. كان ثمة كلام عن أنها تحت الحماية الشخصية لجيسكار ديستان.

في هذه الأثناء كان الإمبراطور، في حالة صدمة. حيث قضى أيامه يستمع، عند أعلى مستوى للصوت، إلى أسطوانة تدعى «ألحان عسكرية نحاسية وبومبون أحمر» تعزفها فرقة البحرية الفرنسية. وبضغط من فرنسا، لم يَسمح له فليكس أوفويه بوانيي، رئيس ساحل العاج، باستخدام الڤيللا فحسب، بل نَسَّق مع أحد الفنادق ليتم تسليم بوكاسا وجبتين يومياً. رفض صديقه القديم القذافي إعطاؤه لجوءاً سياسياً: إذ كان مشغولاً تماماً بعيدي أمين الذي فرّ لتوّه من أوغندا وحلّ ضيفاً مؤقتاً في طرابلس.

وصلت من بنغي أخبارٌ تتحدث عن إسقاط التماثيل، واعتقال الأقارب، وتدمير المنازل، وفرار العشيقات السابقات خارج البلاد أو احتوائهن في حريم الزعماء الجدد. ذات يوم، تلقى بوكاسا اتصالاً من برنار تابيه، مغني بوب فرنسي تحوّل إلى رجل أعمال. لم يكن بوكاسا قد التقاه من قبل قط. وبعد أيام قليلة وصل تابيه إلى أبيدجان دون موعد. دخل تابيه إلى المنزل بأن رشا الجنود الذين يحرسونه، ثم أعلم بوكاسا أن فرنسا على وشك أن تصادر جميع ممتلكاته الفرنسية والتي كانت تتضمن قصر فيلموران وقصر سان ـ لويس شافانو، والمزرعة المعروفة باسم لاكوتنسييه، وقصر آندريكور في ضواحي باريس، وقصر في ميزي ـ

• التاروت: مجموعة من البطاقات الشبيهة بورق اللعب، تتألف من 22 بطاقة وتستخدم في قراءة الطالع..

سور ـ سيين، ڤيللا في نيس، وفندق ومطعم لامونتاج في رومورتان. كانت تلك آخر ما تبقى من ممتلكات بوكاسا وبدونها لم يعد يملك شيئاً. وإذ زعم بأنه حصل على موافقة الإليزيه وأوبويه بوانيي، عرض تابيه أن يشتريها جميعها مقابل 12.5 مليون فرنك، أي ما يعادل أقل من نصف قيمتها، وما أن حلّت الساعة السابعة من ذاك المساء حتى كان بوكاسا قد وقع العقد المميت.

وفي مقابلة أجرتها معه الصحافة الفرنسية بعد عدّة أيام، اعترف تابيه بأن قصة المصادرة الوشيكة لأملاك بوكاسا كانت خدعة وصرّح بأنه "خَدع المتوحش بوكاسا خدمةً لفرنسا". أقام الإمبراطور دعوى وربح القضية بعد عدّة سنوات: أعلنت المحكمة بأن عقد البيع باطل.

عندما قصّ بوكاسا سيرته الذاتية لم يأت على ذكر اكتشافٍ مهول حدث في ڤيللا كولونغو. كانت المحظيات الرومانيات يشغلن المنزل الذي يقع على ضفاف نهرٍ في مقاطعة تُدعى الكيلو متر 12 خارج بنغي. كان هذا المنزل واحداً من المنازل المحبّبة لدى بوكاسا، حيث أحواض السباحة، والنوافير، والحدائق الإستوائية، وسريرٌ ضخم دوّار، وأسقفٌ مصنوعة من أخشاب نادرة، وثريات من الكريستال الفرنسي. أُرسلت فيالق من فرنسا للإطاحة به فيما سَمّي بـ«عملية الباراكودا» وأُعطيت لها الأوامر بأن تفتش المنزل. وجدوا في الخزنة ماساتٍ وساعات ذهبية (مرصعة بالماس طبعاً). كما وجدوا عدّة غرفٍ تضم المتحف الذي خصصه بوكاسا لنفسه. ووجدوا في الثلاجة الكبيرة المجاورة للمطابخ مجموعة كبيرة من الجثث، أهمها جثث زعماء المنظمات الطلابيّة، أو هذا ما قالوه.

وهو ما زعم الفرنسيون بكل بساطة بأنه "دليل على أنه آكلٌ للحوم البشر وأنه يستحق الإطاحة به".

كذلك لم يذكر بوكاسا بأنه عندما كان في الحكم أعطى حقوقاً حصرية للمتاجرة بالعاج إلى شركة إسبانية غامضة؛ لاكورونا، مقابل ثلث الأرباح، وقد أودعت تلك الأرباح باسم عائلته وليس باسم الدولة. كانت شركة لاكورونا تقتل ما لا يقل عن 5.000 فيل سنوياً. كما جلبت تجارة الماس، التي أُوكلت في فترة من الفترات إلى عملاء سعوديين ولبنانيين، مزيداً من هؤلاء المضاربين الجالبين للربح. كذلك كانت حال قطع الأخشاب في الغابات.

لم يأت عن عبث تفضيله أحد أوصافه التي أطلقها على نفسه بأنه «الريفي ورجل الأعمال الأول في أفريقيا الوسطى». ففي قصُوره الرئاسية، مثل ڤيللا كولونغو وبيرينغو، أقام بوكاسا ورشات لإنتاج المنسوجات ولبّ جوز الهند المجفف. بل لقد كان لديه أيضاً مسلخ ومطعم، كلاهما مفتوحان للعامة. كما كان يملك شركتين مساهمتين للخطوط الجويّة (باسفيك1 وباسفيك2) ومتجراً يبيع الملابس المصنوعة في معمل تملكه زوجته كاثرين.

لعل هذه الأعمال كانت أعمال شريفة. إلا أنه نسي أيضاً أن يذكر المذبحة الطلابية المشينة.

فقد قرّر بوكاسا، الذي أُعْجِب بكوادر الطلاب الصينيين المنظمة التي رآها أثناء زيارة حديثة قام بها إلى بكين، وبعد أن غَضِب من نتائج طلابه المخيبة للآمال في امتحانات البكالوريا الفرنسية عام 1977، قرر إدخال شكلاً من النظام العسكري إلى الصفوف المدرسية في الإمبراطورية. وهكذا أعلنت وزارة التعليم بتاريخ 2 شباط 1978 أنه ابتداء من تاريخ 1 تشرين الأول سيتعين على جميع طلاب المدارس الإبتدائية والثانوية ارتداء بزّات مدرسية من تصميم بوكاسا نفسه. على

هذا تَعّين على الفتيات ارتداء فساتين زرقاء غامقة بياقات وأحزمة زرقاء فاتحة، فيما تعيّن على الفتيان ارتداء سراويل زرقاء غامقة وسترات زرقاء فاتحة. تم تصنيع اللباس في «شركة أوبانغي الصناعية للمنسوجات» التي يملكها بوكاسا، وطُرِح للبيع في متاجر محددة يملكها بوكاسا أيضا.

تجاهل الناس الأمر. إلا أن مدرستا بوكاسا وبوغاندا الثانويتان الفرنسيتان بدأتا، بعد أربعة أشهر، بطرد الطلاب الذين لا يرتدون البزّات. لكن بتاريخ 15 كانون 1979 خرج 3000 طالب إلى الشوارع وهم يهتفون "بوكاسا، إدفع لنا مِنحنا الطلابية!" و"ستلحق بالشاه يا بوكاسا". والحق أن رضا بهلوي كان قد طُرِد من طهران مؤخرا على أيدي آيات الله. وكذلك في كمبالا كان عيدي أمين على وشك الرحيل. وقد حطّم الطلاب واجهات شركة الباسيفيك 2 واستولوا على بنغي.

في السادسة من مساء ذلك اليوم تدخل الحرس الإمبراطوري بقيادة بوكاسا الذي ارتدى بزّة عسكرية. مما أدى إلى سقوط 150 طالبا، خلال الأربع والعشرين ساعة، بنيران البنادق الآلية جراء هذا التدخل. احتجّت منظمة العفو الدولية. بعدئذ أذاع بوكاسا خطابا ألغى فيه الأمر بارتداء بزّات مدرسية. وبعد عدّة أسابيع منح جيسكار ديستان إمبراطورية أفريقيا الوسطى قرضاً بقيمة مليار فرنك فرنسي أفريقي، من «قريب» إلى «قريبه».

بعد بضعة أشهر كان طلاب الجامعة هم من نزل إلى الشوارع. اعتقل المئات حيث عُذب وقُتل عديد منهم في سجن ناغرابا سيء السمعة قبل أن يُطاح ببوكاسا بفترة وجيزة.

في شبه الكلمة التي ألقاها على مسامعي، لم يُغفل بوكاسا الأحداث المريعة فحسب، بل أغفل الأحداث المضحكة أيضا، لإعلانه المهيب للأمة عام 1970 بأنه منح نفسه لقب السيد الأعظم للأخوية الدولية للفرسان الجامعين للطوابع البريدية.

كما أغفل فكرة ظهوره في الإليزيه يوم مأتم الجنرال ديغول مرتديا بزّة فوج المظليين وهو ينشج منفلتا أمام أرملة الجنرال المضطربة ويتأوه "**أبي، بابا**. عندما كنت طفلا فقدت والدي الأصلي ها أنا أفقد الآن والدي بالتبني أيضا. أصبحت يتيما مرّة أخرى".

كان يجهل تماما أن ديغول سخر منه داعيا إياه بـــ **بالمُرتزق**، أو «بابا بوكاسا» ـ بابا دوڤالييه أفريقيا، دوڤالييه المُنتَفِخ بالبيرة.

"لقد غفر الله لي. كما غفر لي شعب أفريقيا الوسطى. وأنا الآن لا أدين بأي شيء لأيّ كان؛ لا لله ولا للشعب. إننا متعادلون. لقد أنقذني شعبي. فلو أن الاتهامات التي نشرها الفرنسيون عني كانت صحيحة لما كنت اليوم حياً. ففي أفريقيا يدفع المرء حياته ثمناً للأفعال الشريرة كالتهام لحوم البشر. لقد أطعت شعبي وعصيت فرنسا ولهذا السبب جردوني من السلطة".

قاطعت بوكاسا مذكرا إياه بشهر أيار عام 1968، عندما ترك ديغول باريس بحثاً عن ملاذٍ أكثر أمناً بسبب مَدّ الإضطرابات الطلابية، حين اندفع «**المُرتزق**» إلى إذاعة بنغي وأطلق استغاثة سخيفة من قلب أفريقيا الكولونيالية: "لا ينبغي أن يتعرض بطل عام 1940، وعام 1958، محرّر فرنسا، ومحرّر أفريقيا، للإكراه بل يجب أن يبقى في الحكم".

"نعم، بقيت وفياً لفرنسا"، اعترف الإمبراطور. "ولكن هل كان الخيار بيدي؟ أجبرني جدّي على التطوع في الجيش عندما كنت في الثامنة عشر إذ يتعين على الوريث في كل عائلةٍ مالكة مثل عائلتي أن يعرف كيف يقاتل".

لدى الإمبراطور السابق موهبة في زخرفة الماضي. فعلى سبيل

المثال، كان والده زعيماً قروياً أكثر منه ملكاً. تجاهل بوكاسا الفرق وتابع بخصوص الفرنسيين. "أرادوا أن يفعلوا بنا ما يشاؤون. أرادوا بيعنا سلعهم بأسعار مضخمة جداً وشراء موادنا الخام بأسعار زهيدة. رفض الفرنسيون وطوال عدّة سنوات بناء مصنع للإسمنت في أفريقيا الوسطى كيما يصدّروا إسمنتهم. كان الإنجليز مختلفين: استعمرا بطريقة أكثر شرفاً. جميع الأفارقة الموجودون في الحكم اليوم هم دمى بيد فرنسا. إلا أنك لا تستطيع أن تبني أمة على هذا النحو. بنيتُ هذه الأمة في ثلاثة عشر عاماً، ولم يُرضِ ذلك فرنسا".

في اليوم التالي استُأنفت المقابلة في ڤيللا ناصر، بحضور مجموعة من الأدوية مرّة أخرى. رافقني هذه المرّة رافاييل كوبيسوا، الصحفي من إذاعة أفريقيا الوسطى الذي عرّفني بالإمبراطور السابق. كنت قرأت اسمه على الرسائل الإخبارية التي ترسلها الأسوشستيد برس من بنغي، إذ كان كوبيسوا مراسلهم المحلي. بدا غير متحمس بالمرّة عندما كلمته على الهاتف، إلا أنه وافق في النهاية وقال، "تعال إلى بنغي وسأفعل ما بوسعي لمساعدتك".

كان رافاييل شخصاً صامتاً ذا وجه جامد شبيه بوجوه لاعبي البوكر. ارتدى، على الدوام، سترةً وربطة عنقٍ على الرغم من الجو الحار والرطب، كما حمل حقيبة جلدية محشوّة بالأوراق. كنت أصطحبه كل صباحٍ من محطة الإذاعة، بناء أخضر اللون بلا نوافذ ولا أبواب. كانت المكاتب خالية من الكراسي. لم أرَ أي ميكروفونات أو معدّات بث أخرى، وكان كل ما رأيته هو آلات كاتبة ثقيلة الوزن.

كان رافاييل شخصاً دائم الحركة، شكاكاً، يعطي الانطباع بأنه في

حالة يقظة دائمة. وعلى الرغم من كونه رئيس نقابة الصحفيين في أفريقيا الوسطى إلا أنه لم يكن ثمة ود مفقود بينه وبين زملائه في الإذاعة، ومعظمهم مقربون من أو أقرباء لساسة، ونادراً ما يحضرون إلى العمل. لم يبتهج، ولم يبد سعيداً بالفعل، إلاّ عندما وصف لي صراعات السلطة في بنغي. صفقات قذرة، وأعمال ابتزاز، ضباط جشعون ووزراء فاسدون يُطردون من الحكومة ويعودون إليها في اليوم التالي. كانت **رقصةُ موتٍ مريعة** تخطف الأنفاس.

قُدِّر لي، بعد سنوات، أن أقرأ عن رافاييل في الصحافة الإنجليزية والأميركية. لقد بات مدير مجلة أسبوعية معارضة، وزُجّ به في السجن لشهرين لأنه "شوّه سمعة رئيس الدولة" آنج فيلكس باتاس؛ رئيس وزراء بوكاسا، ثم خصمه، وفي النهاية خليفته.

من ناحية أخرى، بدا رافاييل ميالاً إلى بوكاسا على نحو غريب. حتى أنه هزّ برأسه موافقاً عندما تباهى الإمبراطور السابق، في حديث آخر من أحاديثه المتبجّحة بخصوص الرُتب، والألقاب، والتسلسل الهرمي "كنت الأعظم بين جميع الزعماء الأفارقة. لماذا؟ لأنني كنت الإمبراطور. كان ملك المغرب أقل مني بدرجة واحدة. ملكٌ ورئيس عظيم. وبعده جاء الباقون جميعهم: كانوا مجرد رؤساء".

"كنت الإمبراطور..." كرّر بوكاسا، محدّقاً في الفراغ مرّة أخرى.

كانت تلك الفكرة لا تزال تستحوذ عليه بعد كلّ تلك السنوات. فخلال الاجتماع السنوي لقمّة الأمم الأفريقية الناطقة بالفرنسية عام 1978، طلب بوكاسا أن يؤكد البروتوكول الفرنسي على أن تتم مخاطبته بـ «جلالتكم الإمبراطورية» وأن يوضع في المرتبة الأولى من حيث الأسبقية. رفض الدبلوماسيون الفرنسيون الطلب. وحده رئيس الغابون، عمر بونغو، أيّد

الاقتراح، فقد كانت لديه هو الآخر طموحات إمبراطورية.

حاولت أن أضغط على بوكاسا بشأن موضوع ماسات جيسكار المشهورة. لمَ أعطاه إياها بوكاسا؟ نظر إليّ الإمبراطور كما لو أني كنت مجنوناً. "لقد طلبهم. علاوة على ذلك، كنت صديقه، بمثابة قريب له. كان يأتي إلى أفريقيا الوسطى مرتين سنوياً. مددته بالنساء العذروات، كما أعطيته أرضاً بكراً لم تطأها قدم إنسان من قبل، وهناك قَتل أعداداً كبيرة من الفيلة دون أن يدفع فرنكا واحدا. كان يأتي مع عشيقاته اللواتي كانت بعضهن مشهورات، أما الأخريات فلا. كما أعطيته الماس. أراد الكثير منه لكي يُعطي عشيقاته. وهذا جوابك".

عدت إلى موضوع الرسول. وهنا قصّ علي إلهاما جديدا "في الثانية عشرة من عمري، نعم، في الثانية عشرة، رأيتُ ثلاث رؤئ عن المسيح. عندما ذهبت إلى روما أخبرت البابا. وبعد أربعين عاما من الرؤيا عمدني كرسول".

قررت أن أنتقل إلى مسائل أخرى. هل كان فعلاً يقوي العلاقات مع الإتحاد السوفييتي قبل الانقلاب الفرنسي؟

"سافرت إلى الإتحاد السوفييتي عدّة مرات. نعم، قمت بعدّة زيارات إلى الإتحاد السوفييتي. جعلوني عضو شرف في البحرية السوفيتية في سيفاستوبول على شاطئ البحر الأسود". ثم اختتم كلامه بأن قال لي "سيفاستوبول مدينة على البحر الأسود".

بدأت أشعر بالأسف على الإمبراطور السابق الذي عمّده البابا كما عمّده الروس. ظلّ كوبيسوا مضطربا. سألت بوكاسا عن الأوسمة والجواهر، وهما موضوعان عزيزان على قلبه. أجاب الإمبراطور ببساطة: "سرقها الفرنسيون جميعها. هذا الصليب هو كل ما تبقى لديّ

الآن". ثم بدأ بتعداد أسماء الضباط الفرنسيين الذين شاركوا في عملية باراكودا، متّهما إياهم بالاستيلاء على قبّعته الإمبراطورية، وجواهره، وثيابه. وعندما وصل إلى نهاية اللائحة، كرر قائلا، "أنا مستعد للذهاب والعيش في فقرٍ مع أطفالي في السوق عند الكيلومتر 5، في الشارع. هذا المنزل مُلْك لكاثرين. امرأة جميلة، إلا أنها ذات قلبٍ بارد".

تنهد مثل صبي عاشق "امتلكت أجمل نساء العالم. ولهذا أسامح كاثرين، لأن جمالها كان شعاعاً من أشعة الشمس في حياتي. إن تعود فسأعطيها فيللا ناصر وأذهب للعيش في الشوارع، عند الكيلومتر 5".

خرجنا في اليوم التالي إلى الطرقات الترابية الحمراء في أفريقيا الوسطى. استأجرنا سيارة لتطوف بنا في القصور الإمبراطورية. قاد السيارة صديق رافاييل، أو ربما قريبه.

عندما يغادر المرء بنغي يتعين عليه أن يمرّ بما كان سابقاً إستاد بوكاسا، بناء بيضوي من الإسمنت المتصدع. كان الإستاد مهجوراً، إذ لم يعد أحدٌ في بنغي يلعب كرة القدم. كان هذا الإستاد قصر الرياضة نفسه حيث تم تتويج الإمبراطور. (فقد رفض الڤاتيكان السماح باستخدام الكنيسة). في هذا المكان أقام الحرس الإمبراطوري استعراضاته، وفيه بدأت عام 1986 المحاكمة الثانية. خلال تلك المحاكمة اتُّهم بوكاسا بأكل لحوم البشر، واختلاس الأموال العامة، وإخفاء جثث الأولاد، إضافةً إلى عشر تهم أخرى.

يتحاشى الناس المرور بقرب هذا الكولوزيوم المخيف.

كان الطريق المؤدي إلى خارج بنغي يلتف حول القصر. طلبت من رافاييل أن يتوقف هناك. كان عرش بوكاسا المشهور تحت قوس من

الإسمنت المتصدع، صدئا، بيد أنه واضح المعالم تماما. لا يزال على شكل نسر نابوليوني، بارتفاع ثلاثة أمتار ونصف، وله جناحين ذهبيين عظيمين. تم بناؤه في فرنسا ووضعه في منتصف الإستاد لأجل حفل التتويج. كان كرسي العرش، حيث جلس بابا بوكاسا محاطاً بفراء القاقوم وحواش من المخمل الأحمر عندما أمسك التاج ووضعه بنفسه على رأسه، منحوتاً في بطن النسر.

كان العرش لا يزال موجوداً، منسياً، منزوع الجناحين، وقد تحول إلى هيكل عظمي. إلا أنه كان لا يزال واقفاً، كسيده.

وراء حاجز في الطريق على بُعد كيلومترين خارج بنغي، صدمت السيارة حيوان شيهم كبير. نزل رافاييل ووضعه في صندوق السيارة ثم قال " إنه شهي عندما يُشوى".

كان الطريق السريع بين بنغي وبرنغو أول وآخر طريق معبد جرى إنشاؤه في البلاد. كان بطول ثمانين كيلومتراً وقد تحوّل الآن إلى طريق باتجاه واحد مليء بالحفر. لم نصادف سوى سيارتين وثلاث حافلات. وبعد رحلة دامت ساعتين وصلنا إلى قصر فرساي الأفريقي الذي يملكه بوكاسا. بدا من غير المعقول أن تكون هذه الجدران المتشققة قد ضمت، قبل بضع سنوات، بلاطاً إمبراطورياً حكمه بروتوكول صارم مأخوذ عن بروتوكول شاه الفرس.

في هذا المكان بنى بوكاسا مجمعاً سكنياً يتمتع باكتفاء ذاتي فيه مزارع، وقطعان الماشية، ومساكن للعمال، ومكاتب، ومنازل مستقلة وشقق للزوار الأجانب مفروشة بأثاث على الطراز القديم ومرايا مذهّبة. هنا كان بوكاسا يعقد مجلسه الإمبراطوري؛ حكومة أخرى أكثر أهمية بكثير من الحكومة التي ترأسها باتاسي.

تعرّض ذلك كله للنهب منذ عدة سنوات. فغدت برنغو مدينة أشباح. تناثرت طلقات الكلاشينكوف فوق الأرضيات، واجتاحت الأعشاب الغرف الفارغة، هناك حيث ضَرب بوكاسا شخصياً، عام 1977، الصحفي البريطاني مايكل غولد سميث حتى سال دمه وأرغمه، من ثم، على توقيع «اعتراف» يُقرّ فيه بأنه جاسوس لجنوب أفريقيا. كانت الحقول جرداء. إلا أن الجدران المتصدعة كانت لا تزال تحمل الحروف ج ب ب التي كتبت بواسطة الطلاء، وأكاليل الغار على طراز القيصر أوغستين، إضافة إلى شعار الإمبراطورية «**كرامة، وحدة، عمل**» تساءلت في أي غرفة من هذه الغرف لعب وريث العرش، أحب أولاده إليه، الأمير سانت ـ جان بوكاسا برنغو بوبانغي أمير أفريقيا الوسطى.

اقترح رافاييل أن نزور أحد الأكواخ قرب مدخل المزرعة حيث يعيش الحارس. سألني الرجل عن المكان الذي قدِمتُ منه ثم دعانا إلى العشاء. كان العشاء مؤلفاً من إحدى الدجاجات التي كانت تتجول في الفناءات الإمبراطورية السابقة. قدّمت لنا زوجته الطعام بصمت، دون أن تجلس إلى المائدة. في نهاية العشاء، وبعد أن قامت بواجبها، تحدثت أخيرا بإيطالية خالصة. قالت بأنها عادت مؤخراً من روما حيث عملت كخادمة في أحد المنازل لعدّة سنوات. علّقت ـ دون أن يكون في كلامها أي سخرية ـ بأن روما ذكرتها ببرنغو لأنها كانت في الماضي مستقراً لبلاط إمبراطوري آخر، كما أن فيها بعض الآثار التي تسترعي الانتباه.

أثناء رحلة العودة صدمت سيارتنا ظبياً صغيراً كان قد اندفع من الأجمة فجأة. وبدل أن ينحرف عنه، صدمه صديق كوبيسوا عامداً. نزل رافاييل ووضعه في صندوق السيارة مع الطريدة الأخرى ثم علّق قائلاً "إنه شهي عندما يُشوى"

محطتنا الأخيرة كانت عند المكان الوحيد الذي يجتذب السياح في بنغي؛ ڤيللا كيلونغو، عند الكيلو متر 12. أخذنا مجموعة من الجنود ذوي الوجوه الشبيهة بوجوه الأطفال لمشاهدة الفيلا، هناك حيث وُجدت المرأة الرومانية، الأبرز بين محظيات بوكاسا، مع جليسة الأطفال مارتين ندوتا في السرير مع جنود الحامية. قُتلت مارتين على الفور. أما الرومانية فقد وجّه إليها تحذير، إلا أنها دافعت عن نفسها بأن اتهمت بوكاسا بأنه يتجاهلها لصالح محظياته الڤيتناميات والغابونيات اللواتي كان يفضّلهن في ذلك الوقت. هدّد بوكاسا، بداية، بإلقاء الرجال للتماسيح، ثم رق قلبه بحيث أمر بقتلهم بطريقة إنسانية في السجن.

كانت كيلونغو، بساحاتها ونوافيرها، شبيهة بمزرعة مكسيكية. تم تفكيك سقف قاعة الولائم ولم يعد ثمة أثر للطاولة التي قُدّمت عليها ذات مرة شريحة لحم مشوية من جسد أحد زعماء المعارضة، بحسب ما صرّح به ديفيد داكو، قريب بوكاسا ورئيس للبلاد مرتين.

طاف الجنود بنا حول محيط المزرعة، حيث جلس في الماضي بوكاسا والراقصة الرومانية على ما يشبه المذبح وارتجلا محاكمات مختصرة لأعدائهما، سواء كانوا حقيقيين أو مفتَرضين. كان الإمبراطور وراقصة البالية يقرران طريقة الإعدام، فيختاران بترو بين فرقة الإعدام رميا بالرصاص (والتي كانت في حالة تأهب مستمرة)، أو السجن بما فيه من أمراض لافكاك منها، أو التماسيح.

وبمعزل عن الجثث في المطابخ، قال الجنود بأنهم وجدوا عظاماً بشرية تحت أحواض السباحة في ڤيللا كولونغو.

كانت أحواض السباحة لا تزال واضحة المعالم، وقد انطمرت أرضياتها الزرقاء تحت طبقات من الأتربة. فجأة نزل أصغر الجنود سناً

إلى أصغر الأحواض، وبعد أن نبش تحت الأعشاب، سحب عظما أبيض ناعماً، مُعلنا "عظم بشري. أكله بوكاسا. مئة فرنك". أمسك رافاييل العظم، وتفحصه لعدّة ثوان قبل أن يُعلن "إنه عظم ماعز. شهيٌّ عندما يشوى". وإذ واجه يقيناً راسخا كهذا، توقف الجندي عن الجدال وقال مُسلِّما بالأمر "حسنٌ. إنه ماعز. بيد أن بوكاسا أكله".

بتاريخ 29 تموز 1972، أصدرت جمهورية أفريقيا الوسطى القانون التالي، المرسوم رقم 29058:

سيخضع كل شخص يُمسك به متلبساً بجرم سرقة إلى العقوبات التالية:

1. سيتم جدع إحدى أذنيه في المرّة الأولى التي يرتكب فيها عملا شائنا كهذا.
2. سيتم جدع الأذن الأخرى في المرّة الثانية التي يرتكب فيها عملا شائنا كهذا.
3. سيتم قطع إحدى يديه في المرّة الثالثة التي يرتكب فيها عملا شائنا كهذا.

سيقوم بالبتر جراحون مؤهلون بالشكل المناسب خلال أربع وعشرين ساعة من صدور الحكم.

تم تطبيق هذا المرسوم في عدّة مناسبات، في وسط ساحة السوق عند الكيلو متر 5 على مرأى من العامة. أشرف بوكاسا، الذي كان آنذاك رئيسا أبديا، ووزيرا للدفاع، والعدل، والداخلية، والزراعة، والصحة، والطيران، على عمليات البتر. احتج الأمين العام للأمم المتحدة، كورت فالدهايم، فوصفه بوكاسا في معرض رده بأنه "متوحش، ومستعمر"، والغريب أنه وصفه بأنه "إمبريالي".

تصادفت عشية العام الجديد 1985 مع الذكرى السنوية العشرين للانقلاب الذي جاء ببوكاسا إلى الحكم. وقد قضاها بوكاسا في قصر آندريكور في فرنسا، غرب باريس. كانت الغرف الواسعة باردة، على ما فيها من لوحات للإمبراطورة كاثرين، وتماثيل نصفية لنابليون، وصور من معركة دين بين فو (وعليها نقشٌ يقول: "قدَّموا حيواتهم في سبيل الحرية")، إذ لم يكن مع بوكاسا مال للتدفئة. "ليس لدي مال كي أُطعم أطفالي الخمسة عشر الذين يعيشون معي في هذا المكان". قال للصحفيين "تصلني في كل يوم فواتير جديدة ولا أعرف كيف أسددها".

والواقع أن بوكاسا كان سجيناً مُعدَماً، ممنوعاً من بيع قصوره لأن جمهورية جنوب أفريقيا رفعت دعوى قضائية للمطالبة بها، كما منعته الشرطة السرية الفرنسية من مغادرة آندريكو. أما الكتاب الذي ألّفه: **حقيقتي**، فقد حُوّل إلى عجينة ورقية قبل أن يصل إلى المكتبات بناءً على أوامر جيسكار ديستان.

على أية حال، بدا بأن الوضع تغيّر تماماً بعد ستة أشهر. أعادت له محكمة باريس الكورفيت، طائرة تساوي ستة ملايين فرنك كانت جمهورية أفريقيا الوسطى قد صادرتها بعد عملية باراكودا. كما تم سحب الجندرمة الذين يحرسون مدخل القصر. وجد الإمبراطور السابق الآن أصدقاء فرنسيين جُدداً، محامٍ وضابطين سابقين مقربين من اليمين المتطرف. وبفضلهم بيعت طائرة الكورفيت واستُثمرت العائدات في مشروع آخر: الفرار.

بتاريخ 21 تشرين الأول 1986 أخبر بوكاسا زوجته أغستين (التي كان قد التقاها في ساحل العاج) بأنهما عائدان إلى بنغي في اليوم التالي، في رحلة جوية مُدرجَة على جدول رحلات الخطوط الجوية الإفريقية،

باستخدام وثائق مزورة. أثناء الرحلة أَخبر أحدهم الطيار عن المسافر المشهور، بيد أن الطيار افترض لو أن هذا صحيحاً فلا بد أنه سيكون بموافقة الحكومة الفرنسية ولا داعي لتعطيل الرحلة.

في البداية لم يعرفه أحد عندما وصل إلى بنغي. ثم ما لبث أن صاح أحدهم في صالة الأمتعة "إنه بوكاسا". بدا الحشد بالتهامس "عاد الرئيس... اذهب إلى القصر الرئاسي، اذهب إلى القصر الرئاسي!" وقف رجال الشرطة الذين أرعبهم الأمر باستعداد. صفّق الحشد. ثم بدأ بوكاسا يُلقي خطاباً.

لكن بعد عشرين دقيقة، وصل إلى قاعة الأمتعة الكولونيل جان ـ كلود مانسيون يتبعه عدد كبير من الجنود، مانسيون الذي يتولى قيادة الحرس الرئاسي الجديد بتزكية من باريس قام باعتقال بوكاسا لأنه شك أن عودة الإمبراطور السابق إلى بنغي تدل على نيّته بالاستيلاء على الحكم مرّة أخرى.

"أنا هنا كيما أبرّئ اسمي فحسب" اعترض بوكاسا قائلاً. بعد ثمانية أشهر حُكم على بوكاسا بالإعدام. والحال أن أحداً، لم يوضح لمَ غادر بوكاسا آندريكور.

أخبرني بوكاسا: "كان ذلك عمل الشرطة السرية الفرنسية، فقد خطفوني وأولادي مع محظيتي ووضعونا على متن أول طائرة كانت متجهة إلى بنغي". والحق أنه استخدم بالفعل كلمة محظيّة. تابع بوكاسا قائلاً "لا زالت لديّ أسماء الضباط المسؤولين عن العملية". بيد أنه نسي بخصوص الرسالة التي كتبها إلى الرئيس فرانسوا ميتران عشية رحيله، والتي بدأها على النحو التالي "أعود رجلاً حراً إلى أمة حرة. وإذا ما دُعيت لكي أخدمها، فسوف أقبل على الفور، لأن أعزّ أمنية لدي هي أن

أخدم الشعب. أن أخدم جميع الناس فعلاً: إنه مبدأ فلسفي طبيعي بالنسبة لنا نحن الذين تشرّبنا الثقافة الفرنسية".

"بات الأطفال المشلولون الذين أقاموا مخيماً أمام الفندق الوحيد في بنغي يعرفونني. وكلما رأوني كانوا يصيحون محيّين "صباح الخير".

يقع الفندق الذي تملكه سلسلة فنادق فرنسية على ضفاف النهر. كان الجنود الفرنسيون يجلسون في البار ببزّاتهم العسكرية كلّ ليلة. كان حديثهم يدور عن رواندا، ولكن فيما بينهم فحسب. من وقتٍ لآخر، كانت تأتي لزيارتهم فتاة ترتدي الأصفر. كانت تمشي حافية إلى أن تصل إلى باب الفندق، بينما تحمل حذاءها ذا الكعب العالي ـ واللون الأصفر أيضاـ تحت إبطها. كان زعيم الأطفال المشلولين يراقب على الدوام هذا الاحتفال الصغير. كان يدعوها باسم «أخت»، تكسب بقشيشاً من الجنود.

في منزله القريب من الكاتدرائية، غالباً ما كان بوكاسا يشير إلى «ثمرة دمي». اعتقدت بأنه يشير إلى الطفلة التي دعاها صغيرة والتي بدا مولعاً بها بوجه خاص، إلى أن أدركت بأنه كان يشير إلى معاشه التقاعدي، المعاش التقاعدي لضابطٍ برتبة نقيب في الجيش الفرنسي، والذي كسبه جزئياً لأنه قضى «ستة أشهر في مستشفى عسكري في الهند الصينية». وفّر له هذا المعاش سُبل العيش، كما وفّرها لما يزيد على مئة من أبنائه الشرعيين وغير الشرعيين المنتشرين في أفريقيا وفرنسا.

يعيش ولي العهد، «الأمير» جان ـ بيدل جورج بوكاسا في فرساي ـ إذ لا يناسبه أي مكان آخر، بالطبع. حكم عليه مؤخراً بالسجن لمدّة عام بسبب احتيال بقيمة 30000 جينيه استرليني.

كان من بين محظياته الرومانية، التونسية، الغابونية، الفرنسية، الڤيتنامية،

البلجيكية، الليبية، الكاميرونية، الألمانية، السويدية، الزائيرية، الصينية «هدية» من تشانغ كاي ـ شك). والإمبراطورة كاثرين طبعاً.

كانت نساء بوكاسا النتيجة الوحيدة الملموسة لزياراته الرسمية المتكررة إلى الخارج. وغالباً ما «قدّمهن» إليه رؤساء الدول الأجانب كعربون صداقة. أحياناً كان يراهُنّ أثناء جولاته ويطلب أن يتعرف إليهن، فإن أعجبنه كان يأخذهن معه إلى بنغي. وهناك كانت كل واحدة منهن تنزل في ڤيللا منفصلة، حيث تنتظر مرغمةً ملاطفات السيد.

التقى المرأة الغابونية في مطار ليبرفيل في ختام جولة رسمية. كانت بين حشد الشخصيات رفيعة المستوى الذين قدِموا لوداعه. كانت بالغة الجمال. وبحسب مجلة **أفريقيا الفتية**، همس لها بوكاسا بأن لا تتحرك من مكانها قائلاً "سأعود حالا". ثم عانق الرئيس عمر بونغو وصعد على متن طائرته.

بعد خمس عشر دقيقة أمر بوكاسا طيار الطائرة الرئاسية بالالتفاف والعودة جرى إعلام بونغو، الذي كان يتجه إلى خارج المطار، بأن بوكاسا غيّر رأيه فعاد إلى المطار على عَجَل، وهناك طمأنه بوكاسا مبتسماً "قبل قليل كنت هنا بصفتي رئيس دولة، والآن أنا هنا في مسألة شخصية. أريد الزواج من إحدى مواطناتك". بعد عدّة ساعات كانت الفتاة الغابونية، واسمها جويل، في بنغي.

كانت الرومانية الأكثر شهرة بين جميع محظياته. وقعت عيناه على الراقصة الشقراء في أحد النوادي الليلية في بوخارست أثناء زيارة لحليفه نيكولاي تشاوشيسكو. كان اسمها غابرييلا دريمبا. في البداية رفضت الزواج ببوكاسا. بيد أنها ظهرت فجأة في بنغي بعد عدّة أسابيع. وسرعان ماغدت مادةً ألهمت عديداً من الأساطير.

كانت الڤيتناميات الثلاث الأكثر غموضاً. كانت إحداهن زوجته، والأخريين بناته، كانت إحداهن ابنته الحقيقية، والأخرى مزيفة، وحملت كلاهما اسم مارتين نغويين. قَدِمنَ إلى بنغي من ڤيتنام بعد أن بحث بوكاسا (بمساعدة الحكومة الفرنسية) عن ابنته من امرأة تزوجها في سايغون عام 1953 وهجرها بعدئذٍ. كانت مارتين المزيفة أولى الواصلات إلى بنغي. لكن تبيّن أنها محتالة. علّقت الصحافة الفرنسية على هذه القصة ساخرةً من «غول أفريقيا الوسطى». ردّ بوكاسا على نقّاده بأن تبنى الفتاة كي يبيّن للعالم كم أنه شهم. وبعد ذلك وَجَدَ مارتين الحقيقية تعمل في مصنع ڤيتنامي للإسمنت، وأقنعها بأن تغادر ڤيتنام إلى إفريقيا.

ما أن وصلتا إلى بنغي حتى عرضهما بوكاسا للزواج فيما يشبه المزاد العلني. تقدم إليها المئات من شبان أفريقيا الوسطى. وفي النهاية فاز في المنافسة طبيب وضابط في الجيش. ولقد حضر حفل الزواج الفاخر في الكاتدرائية عدد من رؤوساء الدول، كان أبرزهم المخلص دوماً عمر بونغو.

ذات يوم، وبعد أن سئم الحديث عن تجاربه العسكرية، عاد الإمبراطور إلى موضوع الكتاب المقدس. تلى صلاة الرب. ثم قارن المسيح بنيلسون مانديلا قائلاً "قاسى مانديلا الكثير في السجن كما قاسيت. إنه هبة من الله للشعب الأفريقي يعوضهم بها عن قرونٍ من المعاناة". ثم أوضح بأنه شاهد رئيس الوزراء الإيطالي سيلفيو برلسكوني على التلفاز عقب انتخابه مباشرة. قائلا "أحببته على الفور".

في آخر زيارة لي إلى ڤيللا ناصر وجدت بوكاسا وحيداً، يحمل كتاباً مقدّسا. كان لا يزال يتعين عليّ أن أسأله عن أشد التهم خطورة، التهمة التي قضّت مضجعه أكثر من غيرها. "لُفّقَت قصة أكل لحوم البشر بقصد

تدميري. إنها كذبة. هل تصدق حقاً بأن ضابطاً فرنسياً تلقى أوسمة كثيرة يمكن أن يكون آكلا للحوم البشر. إنها كذبة" كرر بوكاسا قائلا. وبالفعل برّأته المحاكمة الشهيرة من هذه التهمة. ولكن ماذا عن الجرائم الأخرى؟ لم ينكرها بوكاسا "لكنني لست الوحيد الذي ارتكب الجرائم. ماذا عن آرييل شارون؟ لماذا صفحوا عنه فيما يتعلق بمجازر صبرا وشاتيلا، في حين لم يصفحوا عني؟ هل لمجرد أني أفريقي؟"

بدا بحال جيدة في ذلك اليوم. لعله تناول أدويته.

توفي جان بيدل بوكاسا في 3 تشرين الثاني 1996، بعد عامين من لقائنا، ودُفن في برنغو. وفي نعيها له، وصفته إذاعة أفريقيا الوسطى الرسمية بأنه «لامع»، وهي الإذاعة ذاتها التي وصفته قبل عشر سنوات بـــ «غول برنغو»، عندما كان منبوذا ومنقوما عليه.

تعيش الإمبراطورة كاثرين في لوزان وترفض الحديث عن بوكاسا.

لايزال جيسكار ديستان سياسياً مهماً. ولا تزال قلة قليلة تتذكر فضيحة الألماسات.

صار برنار تابيه على التوالي وزيرا، ثم مُتهما، ثم صاحب فريق أولمبيك مرسيليا لكرة القدم. اضطر تابيه لبيع النادي، ثم عاد إليه لاحقاً، وهو الآن يعمل كممثل، مهنته الحقيقية طوال الوقت، وهو ما تعلم منه بوكاسا درسا قاسيا.

أصبح باتاس رئيساً لجمهورية أفريقيا الوسطى، وقد تحالف مع القذافي.

عادت الراقصة الرومانية إلى بوخارست، تاركةً وراءها ابنتها آن دو برنغو في بنغي. ولم يُسمع المزيد عنها.

هربت مارتين الحقيقية من بنغي بعد الإنقلاب. وهي الآن تُدير مطعماً للطعام الڤيتنامي في باريس.

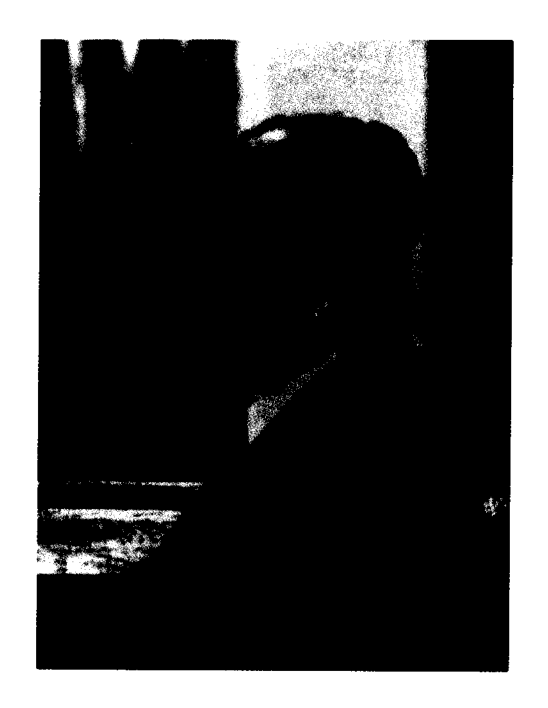
قُتلت مارتين المزيفة على أيدي الحرس الشخصي لبوكاسا بعد عامٍ من الإنقلاب الفاشل الذي قام به زوجها.

عادت أوغستين، «المحظية» الأخيرة إلى آندريكور، حيث تعيش الآن مع عددٍ من أولاد الإمبراطور، ولا تزال تكافح لتدفع الفواتير.

لازال عمر بونغو رئيساً للغابون منذ عام 1969. وبما أنه رجلٌ غني (على عكس من بقي من أفراد عائلة بوكاسا) فقد كان واحداً من الزبائن السريين الرئيسيين لمصرف سيتي بانك منذ عام 1970.

أصبح آرييل شارون رئيساً لوزراء إسرائيل

رافاييل كوبيسوا خارج السجن، حالياً.



ياروزلسكي

ما من ندفة ثلج يمكن أن تشعر قط بأنها المسؤولة عن الانهيار الجليدي الجارف.

ستانيسلاف يرزيلتش

عندما جاء إلى الحكم، كادت ملامحه أن تكون نموذجا عن ملامح القائد العسكري لأحدى جمهوريات الموز. ظهر على التلفاز مطالِبا بـــ«الدفاع عن القانون والنظام» وواعدا بوضع حد «للفوضى» التي سقطت فيها البلاد «بسبب حفنة من المتطرفين». تحدّث بعد ذلك حديثا مقتضبا وعلى مضض. لم توحِ سيماؤه الغامضة إلا بحقيقة مفادها أنه رجل فعل يكره هدر الوقت في النقاش ولا يسمح لأحد بأن يعارضه. كانت شفتاه الرقيقتان مضمومتان، بحكم العادة، في تعبير غاضب ومتكبّر. وفوق ذلك كله، كانت علامتاه التجاريتان حاضرتين: بزّة الجنرال الشائعة بلونها الأخضر الزيتي، وقد عُلِّقت على الصدر صفوف من الشارات بدقة متناهية، والنظارة السوداء الكبيرة التي تكاد تغطي وجهه الصارم الشبيه بوجه ناظر المدرسة.

وقع هذا في شباط من العام 1981. كانت هذه القصة، بالنسبة للصحافة العالمية، نسخة طبق الأصل عن قصص أخرى عديدة. ففي تشيلي، على سبيل المثال، نصّب وزير دفاع آخر يرتدي نظارات قاتمة مشؤومة نفسه رئيساً للوزراء بعد ارتقاء سريع إلى السلطة. كانت طموحات ذاك الوزير لا تختلف عن طموحات ياروزلسكي. ففي عام 1973 كان هدف الجنرال أوغستو بينوشيه أن «يستعيد النظام والهوية

التشيلية» في مدينة سانتياغو المشمسة. وفي العام 1981 كان الجنرال فويسيتش ياروزلسكي مصمما على «إعادة النظام الاشتراكي والدفاع عن الاشتراكية» في شوارع وارسو التي كساها الثلج. كان كلاهما جنديين أرغمتهما «الظروف الاستثنائية» على دخول السياسة ووضع نفسيهما «في خدمة البلد». كذلك أعلن كلاهما بأن "مواطنينا يحبّون قواتنا المسلحة أكثر من جميع المؤسسات الأخرى". كان كل واحد منهما رهن إشارة أخ أكبر، إذ كانت تشيلي على أعتابِ حكم ديكتاتوري مأساوي مدعوم من الولايات المتحدة، فيما كانت بولندا على أعتاب حكم ديكتاتوري مأساوي مدعوم من كتلة الدول الخاضعة للإتحاد السوفييتي التي دُعيت ـ بصورة تنطوي على مفارقةٍ ساخرة ـ «حلف وارسو».

حتى الصور الفوتوغرافية التي التقطت في الفترة ذاتها تُظهِر تشابهاً يبعث على القلق بين الجنرالين، بيد أن بولندا الجنرال فويستيش ياروزلسكي كانت تختلف جداً عن تشيلي الجنرال أوغستو بينوشيه. كان الاختلاف الأكبر بينهما يكمن في حقيقة مفادها أن أرض بولندا الكاثوليكية المغرقة في القدم، كانت قد قدّمت للتو البابا الجديد لكنيسة روما. والحق أنه أوّل بابا غير إيطالي منذ أربعة قرونٍ ونصف.

فقبل ثلاثة أعوام، بتاريخ 16 تشرين الأول 1978، تمّ فجأة وعلى نحو غير متوقع انتخاب الكاردينال الشاب ورئيس أساقفة كراكو؛ كارول فويتيلا، للكرسي البابوي. حتى أن سُحُب الدخان المتصاعدة من دير سيستين جعلت البلدان الاشتراكية المتمترسة خلف «الستار الحديدي» ترتجف هلعا، فقد غدت الآن بولندا ياروزلسكي، إحدى معاقل الكتلة السوفيتية ـ أو لعلّها تجاوزت ياروزلسكي لتصبح ـ بولندا البابا أيضاً. بولندا فويتيلا.

لم تكن بولندا المعقل الأكثر كآبة بين المعاقل السوفييتية الأخرى. بل لقد أشارت إليها إحدى الطُرف على أنها "الثكنة الأكثر مرحاً في معسكر الاعتقال الشيوعي". كانت ثكنة حافظ فيها المعتقلون على روحهم المعنوية عالية بواسطة الضحك، في ظل غياب السلع الاستهلاكية.

وسرعان ما غدا ياروزلسكي واحداً من الضحايا السهلة لحس الفكاهة هذا. تقول إحدى النكات "هل تعرف لماذا يرتدي ياروزلسكي نظارات واقية دوما؟"، "كلا"، "لأنه يحاول أن يَلْحَمَ بولندا بالإتحاد السوفييتي".

انطوت هذه النكتة على قدرٍ كبير من الحقيقة. إذ لم يحلم ياروزلسكي بعلاقة عسكرية متينة فحسب، بل حلم أيضاً بعلاقات تاريخية ووجدانية مع روسيا الأم والبلدان السلافية إلى الشرق من حدوده، معتبراً ذلك بمثابة البديل الوحيد للخضوع للقوى الجرمانية إلى الغرب منه.

كانت بولندا ياروزلسكي، العالقة تاريخياً وجغرافياً بين الماردين: ألمانيا وروسيا، ثمرة معاهدة مولوتوف ـ ريبنتروب التي تقاسمت بواسطتها ألمانيا النازية والإتحاد السوفييتي أوروبا الشرقية بينهما قبل أيامٍ فقط من اندلاع الحرب العالمية الثانية. وبالرغم من أنها كانت بالاسم معاهدة عدم اعتداء، إلا أن هذا لم يمنع أدولف هتلر من التقدم نحو لنينغراد، فاجتاح بولندا في طريقه وضرب فيها إسفيناً بين العاطفتين اللتين تحكمانها، العاطفة الموجهة نحو الغرب والعاطفة الموجهة نحو الشرق. فقد ساعدت قوة من المتطوعين البولنديين يقودها الجنرال المعادي بقوّة للشيوعية، فلاديسلاف آندرز، القوات الأميركية والبريطانية في تحرير إيطاليا، في حين تحالفت قوّة أخرى من المتطوعين قادها الجنرال المؤيد لروسيا، زيغموند بيرلنغ، مع القوى السوفيتية وساهمت في تحرير بولندا نفسها وبرلين.

ومثل عديد من شبان الطبقة العليا، وجد فويسيتش ياروزلسكي نفسه في القوة التي قادها بيرلنغ دون أن تكون لديه نيّة في ذلك.

لم يعد ياروزلسكي، الذي يبلغ الآن الثامنة والسبعين، يرتدي بزّة عسكرية، بيد أنه حافظ على ثاني علامتيه التجاريتين، النظارات السوداء. إن الجنرال، الذي يمشي بمساعدة عصا سوداء ويقف منتصباً كأي جندي، رجل معذَّب. يتحدث بنبرات محسوبة مثل محاضر في الجامعة، ويرتدي طقماً عادياً بلون بني باهت على الطراز الأوروبي الشرقي وربطة عنق عالية نوعاً ما. وبين فينة وأخرى، تفضح إيماءة غاضبة تصدر عنه كثيراً من الإيماءات الغاضبة الأخرى التي يلاقي صعوبة في كبتها. فعندما تواجهه عبارة يعتبرها غير دقيقة، أو سؤال مطروح يتعلق بهذه العبارة يرفع حاجبيه الشهيرين الطويلين على نحو يكاد يكون شيطانياً، ويلوّح يديه في الهواء، ويقول ببرود "اقرأ هذه"، ثم يقذف برسالة على الطاولة، أو بشهادة قانونية أو ببعض الوثائق الأخرى التي تعود إلى الفترة التي قضاها في الحكم، والتي تدعم حجته. أو يشير إلى مجلدين رقيقين ـ غلاف الأول أخضر والثاني برتقالي ـ طبعهما على حسابه الخاص وكتبهما على شكل سجال قانوني موجه إلى محكمة خيالية من محاكم التاريخ.

يراه البولنديون، حتى مؤيديه منهم، بمثابة شخصية مأساوية، ضحية ظروف قدّمت له، كزعيم، خيارات مستحيلة وجميعها خاطئة. رجل كهل ساقط أخلاقيا ومهزوم سياسيا بالرغم من محاولاته إقناع أبناء بلده بأنه كان يستحق احترامهم.

قالت إحدى النكات التي تداولها الناس خلال سنوات الحكم الاشتراكي

الأخيرة بأن الجنرال، الذي يشعر بالتعاسة والغيظ على الرغم من أنه لا يزال في الحكم، اشتكى لسائقه بشأن كره العامة له، هذا الكره الذي لم يجد تفسيراً له. "يتطلب الأمر معجزة تجعل الشعب البولندي يحبني"، قال الجنرال. نَقَلَ السائق، الذي كان في السر كاثوليكيا ورعا وعضوا في حركة التضامن، الحديث إلى ملاكه الحارس. وبدوره تحدّث الملاك مع الجنرال. "دع الأمر لي، سيدي الرئيس. سأمنحك القوّة كي تجترح معجزة. سوف تمشي على الماء". وهكذا، في وقت مبكر صباح أحد الأيام، ذهب الجنرال وسائقه إلى ضفاف الفستولا، النهر الذي يخترق العاصمة. وهناك حاول ياروزلسكي أن يضع قدمه في الماء، إلا أنها بقيت على السطح، مما أدهشه. حاول أن يضع القدم الأخرى فحصل على النتيجة ذاتها. وهكذا، انطلق ياروزلسكي ماشياً على الماء. تعرف عليه صيادان، فرصوفيان سليطا اللسان، بينما كانا يقفان في مكان قريب يحتسيان كأسا من البيرة. "هيه، انظرا! إنه ياروزلسكي" قال أحدهما فأجابه الآخر، "هكذا إذا، ياله من أمر محزن! إنه لا يقدر حتى على السباحة".

لم تستطع حتى المعجزات أن تقنع الشعب البولندي بأن يصفح عن الجنرال لارتكابه فعلين مشينين، فعلان يلقي هو نفسه باللوم فيهما على متهمٍ صار له آلاف السنوات قيد التحقيق، إلا أن من الصعب وضعه خلف القضبان: التاريخ.

وقع الحدث الأول الذي لا يمكن غفرانه في شهر كانون الثاني عام 1970، عندما كان ياروزلسكي وزيراً للدفاع. فقد أطلقت قواته النار على العمال الذين شاركوا في أولى المظاهرات المناهضة للحكومة في أحواض السفن في مدينتي غدانسك وغدينيا. قُتِل أربعةٌ وأربعون متظاهراً وجُرِح

الآلاف. بدأت المحاكمة التي تسببت بها هذه الحادثة عام 1996 ويتوقع أن تستمر لبعض الوقت. يُؤكّد ياروزلسكي أنه لم يُعطِ الأمر بإطلاق النار، وأن الأمر صدر عن رئيس الوزراء في ذلك الحين، فلاديسلاف غومولكا، الذي استقال من منصبه كقائدٍ للجيش.

وقع الحدث الثاني عام 1981، في شهر كانون الثاني المشؤوم أيضاً. فبعد أشهر قليلة فقط على رئاسته للوزارة، أعلن ياروزلسكي القانون العرفي، حيث أعلن على شاشة التلفاز بأنه استولى على الحكم باسم المجلس العسكري لتنظيم الخلاص الوطني، تنظيم لم يكن قد سمع به أحد قبل تلك اللحظة. وسرعان ما فُرِضت بالقوّة مجموعة كبيرة من القيود. حُظِرت حركة التضامن، حركة نقابة العمال التي برزت عام 1980 من حركة العمال عام 1970، خشية أن يشجعها أعضاؤها البالغ عددهم عشرة ملايين وشعبيتها الهائلة أن تسعى للإستيلاء على الحكم. كما تمّ إخراس زعيمها الكاريزماتي، عامل الكهرباء ليتش فاليسا.

أحكم الجيش سيطرته على البلاد ككل. حُظِرت الإضرابات، وحُكِم بالسجن عشرة أعوام على أولئك الذين لم ينصاعوا للأمر. كما قُطعت الاتصالات الهاتفية لفترة مؤقتة. فُرِض حظر التجول بعد الساعة العاشرة وظهرت الدبابات في شوارع وارسو وفي كل مدينة رئيسة أخرى. اعتُقِل الكتّاب والمثقفون والصحفيون والمنتجون المسرحيون والنقابيون والكهنة المعارضون. وغدت العلاقات مع الكنيسة متوترة. كما أُرغِم مذيعو الأخبار في التلفاز على ارتداء البزّات العسكرية عند قراءة الأخبار. وتحوّلت البرامج إلى ابتهال قوامه الأغاني الوطنية والاستعراضات العسكرية والموسيقا الكلاسيكية. وجرى استئصال مئات المعارضين خلال فترة القمع الطويلة التي تلت.

تنفس الكرملين الصعداء، فقد اقتنع ليونيد بريجينيف أنه تم اجتثاث سرطان الثورة وزال خطر امتداده إلى البلدان الأخرى الأعضاء في حلف وارسو.

وبعد مرور عشرين عاماً، لا يزال يُعتبر توّلي الجيش للحكم حدّاً فاصلاً في تاريخ البلاد الطويل. لعل ياروزلسكي أنقذ النظام، بيد أنه خسر احترام الناس.

عندما تولّت حركة التضامن الحكم، ضغط الرأي العام على زعمائها ـ الذين كرهوا أن ينكأوا الجراح القديمة ـ إلى أن رفعوا قضية ضد ياروزلسكي وساسة آخرين سابقين. انتهت جلسات الاستماع عام 1996 بتبرئة ياروزلسكي.

كذلك أَحلَّه الرأي العام من تبعة أعماله، بيد أنه لم يغفر له. يدرك الجنرال هذا الأمر، ويجعله إحساسه بالظلم الذي ينطوي عليه ذلك قانطاً إلى حدّ كبير. يساجل بأنه كان مرغماً على تطبيق القانون العرفي كي يُحبط التدخل العسكري للجيش السوفييتي، "لو لم أتصرف فأختار أهون الشرّين لربما كانت وارسو في 13 كانون الثاني عام 1981 ستغدو مثل بودابست عام 1956، فيها من الدبابات السوفيتية أكثر مما يوجد في شوارع أي عاصمة أوروبية".

يشغل ياروزلسكي اليوم مكتبا صغيرا من غرفتين يقع في أكثر شوارع وارسو شبهاً بالطراز السوفيتي، شارع يروزلمسكي. بمقدورك أن ترى من النافذة قصر الثقافة، ناطحة سحاب مفزعة وكئيبة قدّمها جوزيف ستالين للشعب البولندي عام 1952 كدليل ملموس ـ ولا يدع مجالا للشك ـ على السيطرة السوفيتية. زال الإتحاد السوفيتي الآن، بيد أن "هدية"

ستالين لا تزال أعلى بناء في وارسو، فمن الممكن رؤيتها من مسافة عشرين كيلو مترا إذ بُنيت باستخدام أربعين مليون آجرّة. وكما أَحبّ ياروزلسكي وكَرِهَه، أحبها وكرهها بالقدر ذاته، بلدٌ لطالما كانت مواقفه من روسيا متجاذبة وجدانياً، مزيجٌ من الإعجاب والرهبة، الأخوّة والتنافس.

هذا المكتب هو مكتب ياروزلسكي بحسب القانون، وذلك بصفته رئيساً سابقاً للدولة. يتلقى هذا المكتب تمويله من الحكومة. ينطبق الشيء ذاته على سكرتيرته التي تتحدث الروسية بطلاقة وتقضي معظم وقتها في المحافظة على علاقات ياروزلسكي بالقادة السابقين للكتلة السوفيتية الذين ظل على علاقة طيّبة بهم. كما تدفع الحكومة أجر حارسيه الشخصيين. يتلقى ياروزلسكي راتباً شهرياً قدره خمسة آلاف زولتي وهو ليس بالمبلغ الكبير. إلا أن الدولة تضع تحت تصرفه سيارة وبيتاً ريفياً ناحية بحيرة ماسوريان، في أراضي قاعدةٍ عسكرية كانت تُستَخدم في الماضي كمنتجعٍ صيفي أو مُعتَزلٍ لقضاء نهاية الأسبوع بالنسبة **للنومنكلاتورا** البولندية التي حرصت على تقليد نظيراتها السوفيتية، في هذه الناحية كما في نواحٍ أخرى.

يحيا الجنرال حياةً متواضعة. يذهب من وقت لآخر إلى المسرح مع زوجته، التي كانت مُحاضِرة جامعية في الفيلولوجيا ولم يكن لها أيّ اهتمام بالسياسة إطلاقا، وقلما ظهرت على الملأ. لديهما ابنةٌ وحيدة، ولا يزالان يَحضُران حفلات الاستقبال في السفارة الروسية. وكان الجنرال يقضي ساعات طويلة منكبا على الأوراق التي تتعلق بمحاكمته ومحررا رسائل شكوى منمقة إلى الصحافة _ قلما تنشرها _ يناقض فيها الروايات التاريخية التي يعتبرها غير صحيحة.

"صحيح أن الصحافة نطقت بحكمها، إلا أنني أُذكّر أولئك المؤرخين النظريين الذين يقبعون مرتاحين في منازلهم منتعلين الشبشب بأنني لم أكن أنا من رَسَمَ الظروف التاريخية. كانت مهمتي الوحيدة التي لا أُحسد عليها هي أن أختار بين أهون الشرين. وأيّاً كان قراري، فقد كان سيؤدي إلى نتائج سلبية. كانت القرارات التي اتخذتها قرارات صعبة، وليس لأحد الحق في أن ينبذني بهذه السهولة على أني مجرم. أنا مواطن. لقد أنقذت بولندا من خطر مميت. ففي كانون الثاني عام 1981، كان السوفييت على وشك أن يدوسونا جميعاً. بل لقد قال غورباتشوف ذلك عدّة مرات". نهض عن كرسي مكتبه المنجّد بورق جلدي أصفر اللون ليبحث عن رسالة، وثيقة مكتوبة باليد فيها خطوط حمراء كثيرة. ثم أطلق واحدة من نكاته النادرة تَبِعَها بتعليق ساخر، "إن حس الفكاهة لديّ يتدهور بسرعة، بسبب التقدم في السن والمعارك القانونية اللامتناهية".

يهطل الثلج في الخارج، وقد انخفضت درجة الحرارة إلى-15. اللمسة الفنية الوحيدة في المكتب التي تعطي إحساساً بالراحة هي لوحة صغيرة لرأس حصان. لطالما كان الجنرال، الأرستقراطي على غير ما هو متوقع من زعيم شيوعي، مولعاً بالأحصنة بشدة منذ أن خدم كضابط شاب على الجبهة الشرقية. هذا الولع هو التسلية الوحيدة لرجل منضبط يفخر بقدرته على العمل في مكتبه خمس عشرة ساعة يومياً. دخلت السكرتيرة الغرفة وقاطعت حديثنا قائلة "يود غورباتشوف أن يكلمك، سيدي الرئيس".

يتبادل الزعيمان السابقان التهاني بمناسبة العام الجديد. يحس كلاهما بالمرارة لعدم تقدير شعبيهما لهما، وقد قدّر عليهما أن يطويهما التاريخ بصفتهما آخر ممثلين رئيسين للاشتراكية عتيقة الطراز. ومن حولهما

تحتفل بأعياد الميلاد أمتان شديدتا التديّن. بيد أن الجنرال وإصلاحي اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي، اللذان لا يزالان بمعزل عن الناس بعد كل هذه السنوات يبقيان ملحدان وفيان ويؤكدان على عدم اهتمامهما إلا بالأعياد الدنيوية فحسب.

"أنا بريءٌ من كل إثم. ولكي أوضّح سبب قناعتي هذه، لابد أن أبدأ بقصة حياتي والتناقض الكبير الذي انطوت عليه منذ بدايتها. لقد كانت مشاعري تجاه روسيا والاتحاد السوفيتي مشاعر كره، إلا أنها تنامت في اتجاه مختلف تماما. فلقد نشأتُ في عائلة تؤمن إيماناً قوياً بوجهات نظر معادية لروسيا، وهذا ما كان سائدا في تقاليد طبقتي الاجتماعية، طبقة الإقطاعيين. فجدّي شارك في العصيان المسلح ضد القيصر في شباط عام 1863، وحُكِم عليه بالسجن اثنتا عشر عاماً في سيبيريا. أنا أحمل اسمه. ووالدي حارب في حرب عام 1920 بين روسيا وبولندا. لقد أُريدَ بي أن أكون مثلهما وأن أستمر بهذا التقليد. ولهذا أرسلوني إلى مدرسة يديرها الآباء المريميون في وارسو. في تلك المدرسة ارتبطت كل مادة دراسية، كالتاريخ والجغرافيا واللغات، بالتاريخ المأساوي للعلاقات بين بولندا وروسيا. والحق، إن سمحت لي أن استطرد، أن أحدهم قال ذات مرة بأن للنظام المريمي جنرالين حاليا، الجنرال الروحي، الموقر آدم بونييسكي، معاون مقرب للبابا يوحنا بولس الثاني، والجنرال، نقطة. ياروزلسكي".

"أعود الآن إلى قصتي. لقد غَرس في داخلي ما علموني إياه عن الأدب، المسرح، الكتب والفنون، موقفاً سلبياً جداً من روسيا والكتلة السوفيتية. وفوق هذا كله جاء الترحيل إلى سيبيريا. فقد اعتُقِل والدي وأُرسل إلى أحد معسكرات الأعمال الشاقة في سيبيريا. ظلّ على قيد الحياة هناك، لكنه كان منكسراً ويائساً عندما عاد حيث توفي عام 1946.

كما أُرسلتُ إلى سيبيريا أيضا، بصحبة والدتي وشقيقتي. كنت في السابعة عشر وكانت شقيقتي في الثانية عشرة... ما هي تهمتنا؟ لا شيء. لم نرتكب أي جريمة على الإطلاق سوى أننا كنا ننتمي إلى بيئة معينة هي بيئة الطبقات العليا. السلطات السوفيتية هي التي عاقبتنا، حيث كانت آنذاك مسؤولة عن قسمٍ كبير من بولندا. فبعد توقيع معاهدة مولوتوف ـ ريبنتروب وَجَد ما لا يقل عن خمسة عشر مليون بولندي أنفسهم داخل ما أصبح **في الواقع** منطقة من مناطق للإتحاد السوفييتي. عملت بجدٍ في سيبيريا. قطعت الأشجار. وكان البرد لا يوصف.

شكل ذلك كله [النقطة الحاسمة]، التي جعلتني أكره الروس.

مما ينطوي على مفارقة أنني بدأت أتغيّر في الإتجاه المعاكس تماماً، فقد وقعت في هوى الروس وروحهم التي لا تُقهر، كما هويت البلد ذاته وثقافته. تعرفت إلى الناس البسطاء العاديين في التايغا، أولئك الذين عملوا وقاسوا مثلما عملت وقاسيت. أدركت بأنهم ليسوا الوحوش التي جعلني ما تعلمته أتوقع أن أقابلهم، كما لم يكونوا الوحوش التي يصوّرها الأدب البولندي التقليدي أو القصص التي تُحكى عندما تجتمع العائلة حول الموقد. كان معظمهم صريحين جدّاً، أناس أحبوا مواجهتك رجلاً لرجل. كانوا صادقين جدّاً مع الجميع. قُدِّر لي، بعد عدّة سنوات، أن أقارن معاملة البولنديين الذين رُحِّلوا إلى ألمانيا مع معاملة السجناء الذين أُرسلوا الى معسكرات الأشغال الشاقة في روسيا. جرى التعامل مع المجموعة الأولى كأنهم مواطنون من الدرجة الثانية، أما في روسيا، في سيبيريا، فقد كان الجميع سواسية".

"كذلك تمكنت أن أرى سلوكهم ومدى تصميمهم على تقديم التضحيات، والتأقلم مع الوضع الذي وجدوا أنفسهم فيه، أي تلك الحرب

الطويلة المفزعة. رأيت كيف كانوا قادرين على العمل رغم البرد، في درجات حرارة تصل حتى عشرين درجة تحت الصفر، لا تحميهم سوى خيام من القنب. كانوا يعملون في تجميع الطائرات والدبابات والمدافع، ولا يفكّرون سوى بالجبهة، وبالجنود الذين يحتاجون هذه الأسلحة للدفاع عن الوطن. حتى الصبية الصغار، والكهول، والنساء كانوا يعملون أيضاً. كنت بعد أن أنتهي من قطع الأشجار، أزوّد بعض المشافي بالحطب. قابلت هناك أناساً أقعدتهم الحرب وجنوداً جرحى جاؤوا من الجبهة. بدأت أُقدِّر روحهم الوطنية وتوقهم للقتال لأجل بلدهم، واستعدادهم للتضحية بأنفسهم".

"في تلك الفترة بدأت أتحمس لهم أيضاً من خلال اكتشافي للأدب الروسي العظيم. نعم، كان الناس يقرأون الكتب حتى في أراضي سيبيريا المقفرة المعزولة. وكانت ثمة مكتبات بمقدورك أن تجد فيها أعمال تشيخوف وتولستوي وتورغينيف. كانت معرفتي بالروسية لا تزال قليلة، إلا أني تعلمت اللغة من هذه الكتب. كنت أقرأ ليلاً، بجانب ضوء ضعيفٍ خافت، وأحياناً بجانب شمعةٍ فقط. لقد أتلف هذا العمل، إلى جانب الانعكاسات المبهرة الناجمة عن الثلج السيبيري، بصري وأرغمني، عندما أصبحت شابا، على ارتداء هذه النظارات السوداء التي صرت أُعرف بها دوما. زعم البعض أنني لم أُرد أن ينظر الناس في عينيّ. لكن الأمر كان حالة طبيّة، وليس خجلاً أو عجرفة".

"حاولت والدتي أن تثنيني عن مواصلة القراءة. كانت تقول [يكفي هذا، حان موعد نومك]؛ وعلى الرغم من أنني لم أكن أفهم إلا كلمة واحدة من كل أربع كلمات، إلا أنني لم أستسلم، بل كنت أقرأ طوال الليل حتى ساعات الصباح الأولى، مختبئا تحت البطانيات. لم أنتبه للأمر، لكنني

كنت أصبح مثل الروسي العادي الذي يقرأ بشغف وبصورة متواصلة. فبعد عدّة سنوات، انتبهت إلى حقيقة أن الروس عندما يسافرون، سواء بالحافلة أو بالقطار أو بقطار الأنفاق، فإنهم يحملون معهم كتاباً على الدوام".

"اكتشفت في هذه الكتب الهوية الروسية الأخرى. فبالإضافة إلى هوية أولئك الروس الذين عملوا معي في الغابات، فقطعوا الأشجار وعاشوا حياة الغابة القاسية، كانت هناك الهوية الروسية الأخرى، هوية الطبقة الحاكمة التي وصفها تولستوي. تماهيت مع كلا الهويتين. بيد أن نقطة اللاعودة أتت عندما وجدت نفسي في الجيش. كان قادتي ورفاقي ومرؤوسي جميعهم من الروس. حاربت إلى جانبهم، ورأيت شجاعتهم وروحهم الرفاقية. تقدمنا معاً حتى وصلنا إلى برلين، التي حررناها في شهر أيار عام 1945".

"انتقدني البعض لأنني حاربت مع الجنرال بيرلنغ بدل أن أحارب مع الجنرال آندرز. بيد أن تفسير خياري هذا أمر بسيط: لم يكن لديّ الخيار، كما في حالة النظارات السوداء وأشياء أخرى عديدة حصلت في حياتي: حقيقة لم يكن لدي الخيار".

"ففيما يتعلق بهذه المسألة، على سبيل المثال، حاولت أن أتطوّع ما إن علمت بأن آندرز يجنّد قوّة مقاتلة. ذهبت إلى قنصلية بولندية، وهناك قالوا لي أن أنتظر. كانت الأولوية لمن يمتلك خبرة عسكرية سابقة، فانتظرت. وعندما حاولت ثانية بعد عدّة أشهر، كان آندرز قد غادر. ولذلك لم يكن بمقدوري سوى أن أتطوع مع برلنغ. كانت تلك مفارقة أخرى في حياتي. فقد انتهى المطاف بأبناء القرويين، والعمال، ورجال الشرطة ذوي الرتب الدنيا الذين ظلوا في بولندا مع آندرز الذي كان مؤيدا

للغرب، في حين وجد أمثالي من أبناء الطبقات العليا والارستقراطية، وأبناء الضباط ذوي الرتب العليا وأبناء العائلات الميسورة أنفسهم مع برلنغ المؤيد للسوفييت، إذ كانوا قد رُحّلوا إلى الإتحاد السوفييتي، فلم يستطيعوا الوصول إلى آندرز. كنا نقاتل ضد المصالح التي يفرضها ماضينا. فقد وقفنا إلى جانب أولئك الذين صادروا أراضي عائلاتنا وقصورها".

"وهكذا لم أكن أملك شيئاً عندما دخلت برلين. كان في جيوبي كل ما كنت أملكه".

"سرت مع رجالي قاطعين بولندا فحررناها أثناء مسيرنا، وكنا من بين أوائل من دخلوا برلين، جنباً إلى جنبٍ مع الروس. كانت تلك اللحظة إحدى أكثر اللحظات فخرا أثناء مسيرتي المهنية. وتولد هذه الأمور جميعها روابط متينة بحق. مما لا شك فيه أنني لا أقدر أن أنسى الظلم الذي لحق بعائلتي. على أية حال، وصلت إلى نتيجة مفادها أن ذلك كان الثمن الذي تعيّن دفعه لأجل الثورة العظيمة التي وقعت بينما كنت أدخل سن الرجولة".

"عندما اخترت الجيش، صارت لي عدّة اتصالات مع الروس. كما أُتيحت لي فرصة التعرف إلى روسيا كقوة عالمية. زرت مركز الفضاء بايكونور في كازاخستان. وأصبحت على دراية أفضل بثقافتهم. وهكذا، إن كنا نريد أن نضرب مثالاً ملموسا ـ عندما يسألني أحدهم أين تعرفتُ إلى الروس وتعلمت أن أحبهم ـ أجيب بأن ذلك وقع في أربعة أماكن: في التايغا السيبيرية، وخنادق الجبهة، ومركز بايكونور للفضاء، والبولشوي".

يقع مكتب ياروزلسكي قرب محطة وارسو، في شارع يشتهر

بمواخيره حيث بائعات الهوى من أوكرانيا، روسيا، بيلاروسيا، رومانيا، بلغاريا، ومولدافيا. إنه كتلة شرقية جديدة، حلف وارسو جديد يكسو المدينة بأوراق دعايته الخاصة على شكل ملصقات ورقية لامعة تُظهر نساءً عاريات يقدمن عروضاً خاصة بأعياد الميلاد ويقلن بالحرف **"ثلث ساعة مجانية"**.

من حين لآخر يغادر ياروزلسكي مكتبه ويظهر في قاعة المحكمة ليرد على التهم الموجهة إليه والتي يبلغ عدد صفحاتها 400 صفحة، تهم تمخض عنها إطلاق النار عام 1970. المحاميان اللذان يدافعان عنه هما، بمثل عمره، في السبعينيات. تأجلت آخر جلسة استماع "لأسباب صحية" بالرغم من أن الجنرال يبدو بصحة ممتازة.

في قاعة المحكمة يتألم ياروزلسكي ويغدو أكثر شحوبا وانكسارا. لا تنفرج أساريره إلا عندما يقترب منه أحدهم، شخص لعله كان هناك كي يحضر قضية أخرى، فيصافحه. أصبحت أحداث عام 1970 أحداثاً منسية ومن الماضي؛ كما هي الحال بالنسبة لإعلان القانون العرفي عام 1980، إذ لا ينظر إليه الجميع في بولندا نظرة سلبية. ثمة من يعتقد بأن البديل كان الفوضى، الدماء في الشوارع، والعنف الذي سيرتكبه الأجانب، جنود الجيش الأحمر.

"لولا الدعم الذي أتلقاه من الناس العاديين لوضعت حدا لحياتي الآن". يقول الجنرال بواقعية، كما لو أن قراراً كهذا هو قرار عادي، يكاد يكون بديهيا.

لابد أن هذه الفكرة راودته منذ وقت طويل، أقلّه منذ كانون الثاني عام 1981، في تلك الأيام المليئة بالرعب التي سبقت إعلان القانون العرفي انقسمت القيادة الشيوعية حيث علم ممثلوها بأنهم على وشك أن

يفقدوا إما وظائفهم أو شرفهم، أو كليهما. ذات يوم، دعا ياروزلسكي الرئيس البولندي هنريك يابلونسكي (الذي كان أشبه برئيس صوري منه بسياسي قوي) لينضم إليه على شرفة المكتب الذي شغله بصفته رئيساً للوزراء. "إن سقط القانون العرفي وتدخّل الروس، فأنت تعلم ما سنفعله، أليس كذلك؟" سأله ثم قلّد حركة من يصوّب مسدسا إلى رأسه. كان المعنى الضمني لهذه الحركة أن المواطن الذي يجلب العار لبلده بأن يسمح للغرباء بانتهاك حرمتها لديه خيار واحد فحسب: الانتحار. بيد أنها ربما كانت مجرد خدعة لتشجيع يابلونسكي على "التضحية بنفسه" لصالح الرأي العام.

كانت الأيام التي سبقت إعلان ما يسميه البولنديين «**حالة حرب**» مثار جدل حاد بين المؤرخين، وعملاء ك ج ب سابقين وساسة سوفيت وبولنديين سابقين. يؤكد أناتولي غريبكوف، جنرال متقاعد في الجيش الأحمر شغل منصب رئيس أركان القوى المسلحة في حلف رئيس وارسو عام 1981 بأن ياروزلسكي نفسه هو من طلب تدخل القوات الروسية، خشية ألا يكون قادراً على فرض القانون العرفي دون مساعدة. علاوة على ذلك، يؤكد غريبكوف أن اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي في موسكو صوتت ضد الغزو، وأن ذلك أزعج ياروزلسكي الذي اتّهم رفاقه في موسكو بأنهم "يخونون صداقة قديمة".

وبالمقابل، يرد الجنرال بأنه طلب من اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي عدم التدخل، وأن قرارها بعدم إرسال دباباتٍ إلى وارسو كان قبولاً على مضض لطلبه.

ثمة كوميديا أخطاء لا نهاية لها يجري تمثيلها هنا، يتّهم فيه كل طرف الطرف الآخر بأنه يُمسك العصا من الجانب الخطأ. يؤكد الجنرال

فيتالي بافلوف، ممثل الـــ ك ج ب في وارسو بين عامي 1973 و1984 أنه في 12 كانون الثاني ـ أي في اليوم السابق للإعلان ـ اتصل ياروزلسكي بمخائيل سوسلوف طالبا منه "مساندة عسكرية مباشرة" إلا أن سوسلوف رفض طلبه. كما يتذكر الجنرال تشيسلاف كيشتشك، الذي كان آنذاك وزير الداخلية البولندي، ذاك الاتصال الهاتفي ويقول بأن يارزولسكي حاول الاتصال بليونيد بريجينيف، إلا أن بريجينيف رفض التحدث إليه. وبدل ذلك، تحدث ياروزلسكي مع سوسلوف الذي كرر رفضه قائلا بأن السوفييت لن يرسلوا قواتهم "أيّا كانت الظروف".

يصرّ ياروزلسكي قائلاً بأن "ذلك كان التأكيد الذي سعيت للحصول عليه وليس الجواب الذي خشيته". تعتريه نوبة من الغضب ويصبح وجهه أكثر شحوبا.

لم تكن موسكو، وقد عانت من العقوبات التي فرضتها عليها القوى الغربية كنتيجة لغزوها أفغانستان عام 1979، راغبة بالمجازفة بإخفاق سياسي آخر. أو هذا ما تؤكده إحدى وجهات النظر. ففي بولندا ثمة عديد مقتنعون بأن السوفييت كانوا يُخادعون فحسب بالنسبة للضغط الذي مارسوه، وبأنهم لم يكونوا ليجرؤوا على إرسال قوات. كانت موسكو تأمل أن يقوم الرفاق البولنديون بأنفسهم بهذا العمل.

تبيّن وثائق اكتُشفت حديثاً تُسجّل أحاديثه مع الكرملين بأن ياروزلسكي كان يعاني حالة قلق فكري عظيمة لأنه لم يكن واثقاً إن كان سيقدر أن يتغلب على الوضع لوحده. يؤكد رئيس أركان بولندا السابق، الجنرال فلوريان سفسكي، أن ياروزلسكي أرسله إلى موسكو في بداية كانون الثاني ليطلب "تأكيدا يبيّن أن الشيوعيين البولنديين ليسوا لوحدهم". لكنه يضيف بأن موسكو رفضت التوقيع على الوثيقة التي جرت صياغتها

في وارسو، التي أشارت إلى «الإيفاء بالتزامات الحلف» و«الدعم الكامل للشعب البولندي في صراعه ضد الثوريين المناهضين». يؤكد سفسكي أنه عندما عاد إلى وارسو خالي الوفاض، علق ياروزلسكي الذي كان مضطرباً بشدّة، "لقد تخلى عنا حلفاؤنا" و"استنفذنا جميع الخيارات المتاحة لدينا".

"إن كنت قد قلت ذلك، فقد عنيته بالمعنى السلبي، وليس لأني قبلت بحقيقة أن خياراتنا قد استنفذت. إضافة إلى ذلك، ما رأيك بهذا الكلام؟ ألا يُثبت بأن كل ما قالوه أكاذيب". وبحركة سريعة يخلع الجنرال النظارات السوداء التي تحمي نظره الضعيف ويستبدلها بأخرى شفافة للقراءة، ثم يسحب من حقيبة جلدية نسخةً مصورة لرسم بقلم الرصاص يُظهر دبابات وقوات على جبهة مفترضة تقع وارسو في مركزها. "قدّمت هذا الرسم السوفييتي للبرلمان البولندي عندما كان يحقق معي، وهو يبيّن كيف كان سيتم التدخل العسكري للقوات الروسية الموجودة أصلاً في بولندا، إضافة إلى القوات المرسلة خصيصاً لهذا الغرض. هذا إن لم نذكر التحضيرات التي تمّت في بلدان الكتلة الشرقية. فقد زُوّدت القوات التشيكوسلوفاكية بأقنعة للغاز. كما كان الألمان الشرقيون، الذين يعارضون بشدّة أي إصلاح، جاهزين للتدخل بصرف النظر عن احتمال حدوث مضاعفات سلبية على الرأي العام ستسببها رؤية القوات الألمانية على الأراضي البولندية. جميع الأمثلة التي ذَكرتَها أكاذيب. وعندي الوثائق التي تثبت ذلك. وإن كنت لا تزال غير مقتنع، فسوف أقرأ لك الرسالة التي كتبها غورباتشوف بهذا الخصوص للبرلمان البولندي عندما كان يحقق معي، والتي طبعها لاحقاً في مذكراته **حياة وأعمال**. إنها موجودة في الفصل الثالث والعشرين، هل قرأتها؟"

تقرع الباب سكرتيرة ياروزلسكي التي رافقته منذ أن دخل البيلفيدير (مقر الإقامة الرسمي للرئيس البولندي) وحتى انتقل إلى المكتب عام 1985. "هل لي أن أذكرك بذاك الموعد؟"

يزمّ ياروزلسكي شفتيه. "عد ثانية غدا. لابد أن أقرأ لك رسالة غورباتشوف. إنها ـ كيف لي أن أصفها؟ ـ تبيّن الكثير. بدونها لن تقدر على فهم أحداث 13 كانون الثاني عام 1981".

كانت لا تزال تثلج في اليوم التالي، وقد انخفضت درجة الحرارة إلى 18 تحت الصفر. "كيف حالك اليوم، جنرال؟"

ينظر إلي ويقول "ثمة قول روسي قديم". أتوقع أن يقول طرفة سيبيرية غريبة أو حكمة تنطوي على تهكم موسكوفي، بيد أن توقعاتي تخيب. "أنا بحال جيدة، بأفضل حال يمكن للمرء أن يتوقعها بالنسبة لرجل في مثل سني".

والحق أن اللغة الإيطالية ولغات أخرى عديدة تعبّر عن هذه الفكرة ذاتها. ينظر الجنرال إلي مندهشاً، وعلى وجهه ذاك التعبير الذي ينم عن عدم موافقة مصحوبة بازدراء عرفه البولنديون عنه بوصفه تعبيراً يتميز به عما سواه.

"قد يكون ما تقوله صحيحا. على أية حال، وصلنا إلى رسالة غورباتشوف، أليس كذلك؟ سأترجمها بدقة متناهية. إنها مؤرخة بتاريخ 31 آب 1995، وموقعة من غورباتشوف.

كان من الواضح بالنسبة لي، بصفتي عضواً في اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي في الإتحاد السوفييتي وفي اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، بأن الجنرال ياروزلسكي، السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي البولندي، استعان بكل إجراء متاح كي يمكّن

بولندا من حل الأزمة الاجتماعية ـ السياسية التي تعاني منها بطريقة سلميّة، وأنه سعى لاستبعاد أي استخدام للقوى المسلحة التابعة لبلدان حلف وارسو أو تدخّل هذه البلدان في الشؤون الداخلية لبولندا. ويبدو جلياً بالنسبة لكل شخصٍ غير متحيزٍ بأن تطبيق القانون العرفي في بولندا كان عاقبة الوضع الداخلي، والأزمة الاجتماعية ـ السياسية التي كانت تتنامى حدة، إضافة إلى التوتر المطرد في العلاقات بين بولندا والإتحاد السوفييتي. وفي هذا الوضع، كان الجنرال ياروزلسكي مرغماً على اتخاذ الإجراءات التي اتخذها، متقبّلاً عواقبها، والتي مثّلت برأيي أهون الشرين في ذلك الوقت. لقد واجه ياروزلسكي ووزرائه خياراً بين احتمالين سلبيين ومن الأفضل تحاشيهما، وبحث بحثاً يائساً عن حل لهذه المشكلة: إما أن يقبل أن تعم الفوضى بولندا، والتي كانت ستحمل معها خطر الانهيار الكامل للكتلة الشرقية الاشتراكية، أو يردّ على الأحداث التي وقعت في بولندا باستخدام القوة. كان كلا الحلين غير مقبولين. وكان لا مفر من قراره".

تُعنى رسالة غورباتشوف بمسألة "أهون الشرين" بيد أنها لا تتطرق إلى مسألة الطلب المزعوم بالتدخل العسكري. ينفعل الجنرال، بل ويحمر وجهه، فأقرر أن أتّبع معه مقاربة غير مباشرة بهذا القدر. أسأله لماذا قال رئيس الـــ ك ج ب في بولندا أن طلب المساعدة العسكرية صدر من عنده، ياروزلسكي، مخافة ألا يصمد القانون العرفي بدون مساعدة من الخارج.

مرة أخرى يغدو ياروزلسكي بَرِماً. "إن كنت ستأخذ كلام بافلوف وكأنه الإنجيل... فلن أكون قادراً عندئذ على الدفاع عن نفسي. فبافلوف يكرر ما قاله في اجتماع المكتب السياسي للحزب الشيوعي واستشهد به

لاحقا المُعارض بوكوفسكي. لقد ألّفتُ كتابا كي أدحض هذه الأقاويل. عندما كان أعضاء حركة التضامن يسيطرون عليه، أعاد برلماننا البولندي فتح القضية. ورُفضت نظرية بوكوفسكي. انظر، لقد ظهرت هذه النظريات في الصحف البولندية ومعها الكثير من الأدلة التي تدعمها في الوقت ذاته الذي كانت فيه بولندا تعبّر عن اهتمامها بالانضمام إلى الناتو. وقد طُرحت هذه النظريات كي تُلحق الضرر ببولندا. فحتى تلك اللحظة كان عدد من الجنرالات الروس، مثل رئيس الأركان السوفييتة، الجنرال دوبرينين، يقولون بأن خطط غزو بولندا كانت جاهزة. أقول هذا بدون أي إشارة ضمنية معادية لروسيا أو السوفييت، بل أعترف بأن ذلك كان النتيجة المنطقية للطريقة التي جرى بواسطتها تقسيم العالم في ذلك الوقت. لم يكن من بديل إن نحن تأملنا موقع بولندا الجغرافي والاستراتيجي".

لكن ألم يحس بالقلق قط من أن ينهار القانون العرفي؟ وأن المساعدة العسكرية الخارجية قد تكون ضرورية بالفعل لدعمه؟

"كانت وجهة نظري عن الوضع شديدة الوضوح. بتاريخ 28 تشرين الأول وقع إضراب لم يكن ناجحا تماما، إذ كانت أعداد الذين شاركوا فيه أقل بكثير مما هو متوقع. كذلك أعطت نتائج استطلاع للرأي أُجري في شهر تشرين الثاني عام 1981، وكان الهدف منه الوقوف على نسبة الشعبية التي تحظى بها مؤسسات مختلفة في بولندا، بدءا بالكنيسة وصولا إلى الجيش، أعلى عدد من الأصوات للجيش بلغت نسبتها 93%. وبعد إعلان القانون العرفي، أعلنت الإضراب مئتا شركة فقط من الشركات البولندية البالغ عددها ثماني آلاف شركة. وفي الشركات التي أعلنت الإضراب، لم يشارك في الاحتجاج إلا ثلث الموظفين فقط. ففي معظم

الحالات لم يستغرق الإضراب سوى يوما واحدا. أما أطول إضراب فقد كان في قطاع عمال المناجم، واستغرق عشرة أيام. ثم وقعت كارثة في أحد المناجم مات فيها عديد من الأشخاص وضعت حداً للإضراب".

يتابع الجنرال مونولوجه. أحاول أن أقاطعه؛ فينتبه، إلا أنه يستمر متجاهلا ذلك. أريد أن أقول أنه إن كان واثقاً بهذا القدر من التأييد الشعبي، فمن المؤكد أنه لم تكن ثمة حاجة لتأزيم البلاد بالدبابات وتكتيكات القوّة التي استخدمتها الشرطة.

بيد أنه يسبقني إلى ذلك بمقدار شعرة مثل محام ماكر قضى ساعات طوال في تمحيص حجة محامي الدفاع بحثا عن تناقضات ممكنة. "ينبغي أن يكون السؤال المنطقي الذي تطرحه عند هذه النقطة هو: إن كنت واثقاً بهذا القدر بخصوص استقرار النظام وإجماع الرأي الذي حظيت به، فلماذا كان إعلان القانون العرفي ضرورياً؟ وبمقدوري أن أجيبك على هذا السؤال. كان نفوذ حركة التضامن يتراجع بشكل كبير في بولندا، أما داخل حركة التضامن ذاتها فقد كان نفوذ جناحها الراديكالي المتشدد، المعارض لأي حوار مع الحكومة، يزداد قوة. كانت شوارع وارسو وغيرها من المدن البولندية ستشهد بتاريخ 17 كانون الثاني عام 1981 ما شهدته بودابست في عام 1956. أعود فأقول: لم يكن لدي خيار".

يكره ياروزلسكي أن يُنادى بـ«سيدي الرئيس». "أُفضّل لقب جنرال، فلا زالت أشعر بأني جندي. في الواقع، إن كان عليّ أن أعترف بخطأ ارتكبته في حياتي فهو أني سمحت لهم بأن يقنعوني بالتخلي عن مسيرتي المهنية العسكرية لصالح السياسة. بدايةً كوزير دفاع، ثم رئيساً للوزراء، وأخيرا كرئيس". هذا هو نقده الوحيد لذاته. أما جميع ما يدعوها بالأخطاء

فيصنفها على أنها «أهون الشرين». كان لا بد فيها من إلقاء اللوم على الظروف التاريخية. لم يقل، ولو لمرة واحدة، أنه يؤمن بالديمقراطية، وبأن نظامه الشيوعي الاستبدادي كان نظاما خاطئا.

نعم. ياروزلسكي على حق: لقد كان جنرالا ولم يكن رئيسا.

"أود أن أعود إلى موضوع عائلتي وأصول حبي للروس. أنا على قناعة بأن مواقف والدتي وشقيقتي تجاه الروس تغيرت عندما احتكتا في سيبيريا مع «رجل الشارع» الروسي العادي. لنكن صادقين: إن علم أمراض النظام وعلم أمراض الناس العاديين أمران مختلفان. لقد راقبتني والدتي وأختي أطرق هذا الدرب الجديد بدرجة من التفهم، على الرغم من أنهما لاقتا صعوبة في تبريره. أذكر أني كتبت لهما رسالة ما إن عدت إلى بولندا في نهاية الحرب، بينما كانتا لا تزالان في سيبيريا تنتظران السماح لهما بالعودة إلى الديار. أخبرتهما أن ثمة أشياء عدّة في بولندا الجديدة لا أفهمها ولا أحبها. إلا أنني قلت أيضاً أنني قررت أن أخدم بولندا كما هي حقيقية وليس بولندا التي نتمناها أن تكون. قلت أننا يجب أن نكون مستعدين لتقديم التضحيات لبولندا الحقيقية. بولندا الوحيدة الممكنة، بولندا الوحيدة الفعليّة: إذ لا نقدر أن نغير تاريخها أو جغرافيتها. وإذا ما فكرت بالأمر بعيداً عن أي شيء آخر فقد اخترت الواقع. واقع يالطا. إنه الواقع ذاته الذي قبله الغرب. ولذلك إن كنتم تلومونني، يتعين عليكم أن تلوموا أنفسكم أيضاً. منذ ذلك الحين آمنت بصدق بهذا المبدأ: أن أخدم بولندا الممكنة، وليس بولندا أحلامنا".

"تاريخ بولندا مرصع بأفعال بطولة مأساوية، ومواقف رومانسية، ولفتات نبيلة. لقد كتب أونوريه دو بلزاك، الذي أدرك طبيعة شعبنا بشكل

جيد جدا لأنه تزوج امرأة بولندية، في **ابنة الخال بيتي** أنك إن أوقفت بولندياً على حافة واد فسوف يرمي بنفسه فيه. هذه لفتة نبيلة، بيد أن ثمنها عادة ما يكون ثمنا مرتفعا جدا. وجدت نفسي على حافة واد، إلا أني آثرت الخيار الواقعي بألا أرمي نفسي فيه، ألا أقوم بلفتة نبيلة نتائجها مأساوية حتما".

"توفيت والدتي عام 1966. لا تزال شقيقتي حية ترزق؛ ولديها أولاد يدرسون في الجامعة الكاثوليكية في مدينة لوبلين. زوجها بروفسور متقاعد كان محاضراً في جامعة لوبلين؛ الجامعة ذاتها التي درس فيها البابا ومن ثم درّس فيها. شقيقتي وصهري متدينان بشدة، كذلك كانت والدتي. أنا أيضا كنت إنسانا مؤمنا في البداية، إلا أني ابتعدت تدريجيا عن الكنيسة فيما كنت أمرّ بعملية تغير طويلة. وهذا التغير لا يؤثر على احترامي للكنيسة، وفوق ذلك كله، احترامي للدور الذي لعِبَته في تاريخ بولندا. أكنُّ احتراماً عظيماً للتعاليم الأخلاقية للكنيسة. وللأناجيل، بالطبع. إلا أني لا أؤمن بالله".

"قبل أسابيع قليلة قابلت الأب الأقدس في روما. وقرأت له كلمات كاتب بولندي عظيم، ستيفان فيلكانوفيتش. «قلوب الشعب البولندي قريبة جداً من البابا، وعقولهم بعيدة عنه». البولنديون يحبّون البابا، لكنهم لا يطيعون تعاليمه بالضرورة. لست روميّا كاثوليكيا، ومع ذلك أحب أن أرى البولنديين يهتمون بتعاليم البابا أكثر مما يفعلون".

"اعترف أن هذا لم يكن ما فكرت فيه بالضبط يوم انتخاب كارول فويتيلا. اعترتني يومذاك عواطف متناقضة، مثل بقية الزعماء البولنديين في ذلك الوقت. فمن جهة، شعرت بالرضى والفخر لوجود بولندي على عرش بطرس، والأمل بأن يدعم هذا الأمر موقع بلدنا دولياً. من ناحية

أخرى، كنا قلقين من أن يزيد انتخاب فويتيلا نفوذ الكنيسة الرومية الكاثوليكية في بولندا، جاعلاً منها شريكاً أكثر إثارة للمتاعب بالنسبة للسلطة الحاكمة. بيد أننا أدركنا لاحقاً بأنه لا مبرر لهذا القلق. فقد بيّنت لي المقابلات المتتالية معه أن البابا لا يمتلك فهماً واضحاً لما يدور في بولندا فحسب، وإنما يرى ذلك أيضاً بالعلاقة مع ما يدور في بقية دول العالم. رأى البابا أخطاء النظام التي تسود في بولندا، لكنه انتقد أيضاً الأوضاع في أمكنة أخرى، وأولها في العالم الرأسمالي".

"نعم، أعلم، لا شك أن الحكومة البولندية ترددت قبل أن تعطي الإذن لفويتيلا بزيارة البلاد. كانت الزيارة الأولى عام 1979. كنت آنذاك وزيراً للدفاع ولم أكن مسؤولا عن القرارات السياسية كهذا القرار. أتذكر جيداً كم قلقنا من ألا نقدر على ضبط حماسة الناس لزيارة البابا وأن يخلق ذلك وضعاً خارجاً عن سيطرتنا. كانت الزيارة محفوفة بالمخاطر. لم أكن مسؤولا عن المباحثات، إلا أني أذكر أن واحدة من النقاط الشائكة المطروحة كانت تتعلق بموعد الزيارة، الذي صادف عيد القديس ستانيسلاوس".

"كانت المشكلة ما يلي. منذ ألف عام حَكَم ملك بولندا بالموت على أُسقف كراكو، ستانيسلاوس ستيبانوفسكي. وقد ظل المؤرخون طوال ألف عام منقسمين حيال وقائع المسألة. يقول المؤرخون المؤيدون للكنيسة بأن ستانيسلاف ضحى بحياته دفاعاً عن المعتقد. فيما يقول مؤرخون آخرون، بحّاثة جديون، بأنه قُتل لأنه خان الدولة البولندية".

خيانة؟

جلب ستانيسلاف، الذي كان أسقف كراكو مثل فويتيلا، لنفسه عدواة الملك بوليسلاوس الوقح عندما شجب قسوته وظلمه. حيث حَرَم

ستانيسلاوس الملك من عضويته في الكنيسة، وكان يوقف الصلوات في الكاتدرائية عندما يدخل الملك. وهكذا، قام بوليسلاوس بنفسه بقتل الأسقف فيما كان يتلو القداس. ومنذ ذلك الحين صار ستانيسلاف رمزا للروح الوطنية البولندية. أعتقد أن هذا الجنرال المثقف، الارستقراطي، والجنتلمان يحاول أن يقول بأنه ربما كان لدى بوليسلاوس سببا عادلا لقتل ستانيسلاف، مثل «خيانة الدولة البولندية» وعصيانه السلطة الحاكمة، وانتقاده لسيده.

كان أوغستو بينوشيه ليحبّ هذه القصة.

بيد أن ياروزلسكي غير مبال بالأمر برمته. لعل المؤرخين الكاثوليك على حق بشأن القديس ستانيسلاف، أو لعل الحق إلى جانب المؤرخين الشيوعيين. أما ياروزلسكي فلا يزعج نفسه بشأن أي موقف يتخذ. فهو لا يرى المغزى الأخلاقي للقصة.

"ها أنت تفهم الآن لماذا ساجلنا وكان سجالنا منطقياً بأننا لم نشأ أن يعاود هذا النزاع الذي يعود لألف عام الظهور بينما الوضع في بولندا صعب بما فيه الكفاية أصلا. كان ذلك غير ضروري".

"عندما جرى انتخاب البابا عام 1978، لم يكن أحد يتخيل أن الإتحاد السوفييتي سيزول بعد ثلاثة عشر عاما فقط، وأن النظام السياسي للدول الاشتراكية سينتهي. ولذلك كنا معنيين بالأمر نوعا ما، بيد أننا لم نكن قلقين فعلا. لنقل بأن المخاوف التي أثارها انتخاب أول بابا بولندي كانت ـ إذا استخدمنا مصطلحات عسكرية ـ مخاوف تكتيكية أكثر منها استراتيجية".

"جاءت محاولة اغتيال البابا فويتيلا بمثابة مفاجآة. كان قد مضى عليّ في رئاسة الوزراء ثلاثة أشهر بالضبط. لم نعرف هنا في بولندا

سوى ما قرأناه في الصحافة العالمية، بما فيها المعلومات بشأن ما يسمى «العلاقة البلغارية». لاحقاً، وخلال إحدى قمم حلف وارسو، سألت الزعيم البلغاري تودور زيفكوف عن رده على هذه الشائعات، فأجابني "جنرال ياروزلسكي، هل تظن فعلا أننا لو كنا خططنا لعملية من هذا النوع، كنا سنترك ذاك الفتى سيرغي إيفانوف، ممثل شركة الخطوط الجوية البلغارية في روما، كيما تستجوبه الشرطة السرية في الغرب؟" رأينا، منذ الحادي عشر من أيلول، كم يمكن أن تكون جذور الإرهاب متشعبة، وكم شكلاً من أشكال التعصب يمكن أن يرتبط به. قالوا لي بأن علي آغا، الذي نُقل مؤخرا إلى سجن جديد في تركيا، غيّر روايته بشأن محاولة اغتيال البابا وأنه لم يعد يشير إلى أي علاقة بلغارية".

"ثمة لغز تاريخي آخر هو القبور في غابة كاتين. نعم، نعلم الآن بأن الاثنين وعشرين ألف سجين حرب بلغاري قُتلوا ودُفنوا هناك وفي أماكن أخرى قريبة. كانوا ضباطاً يمثلون قسما كبيرا من الطبقتين الحاكمة والوسطى البولنديتين. قتلهم الروس بطلقة في مؤخرة الرقبة، بينما كان يُعتقد في الأصل بأن النازيين هم المسؤولون. رأيت بنفسي إفادات الناس في الموقع الذين قالوا بأنهم الألمان. بدأ الناس بعدئذ يعبّرون عن شكوكهم. سمعنا إذاعة أوروبا الحرّة تطرح هذا السؤال عدّة مرات وتؤكد بأن موسكو هي المذنبة. في البداية، شطبنا في وارسو هذه الاتهامات بوصفها دعاية نموذجية من دعايات الحرب الباردة. إلا أن مطالبنا بأن تقدم موسكو أدلة على مسؤولية النازيين زادت إصرارا وتصميما بمرور الوقت. وقد قلت لرفاقي في موسكو «يارفاق، لا شك أننا نصدّق ما تقولون، لكن أعطونا الذخيرة التي نحتاجها كي ندحض هذه الدعاية القادمة من الغرب». ردّوا علي بأن الاتهامات ضد القوات الروسية هي

استفزاز رأسمالي يستحق أن نتجاهله. واستمر الصمت حتى عهد غورباتشوف".

"خلال تلك الفترة كنت واحدا من الذين عرفوا أين تكمن الحقيقة لكنني أكدت بأن اتهام موسكو بشأن القبور الجماعية في كاتين لن يكون ذا فائدة، إذ لن يكون بمقدورنا أن نعيد الضحايا إلى الحياة كما أننا سنلحق الضرر بالعلاقات الثنائية. بيد أني شعرت في لحظة ما أن الوقت حان كيما نعيد فتح هذا الفصل من التاريخ".

في تلك الفترة دُكَّ جدار برلين، وهُزمت الشيوعية، وانتهت الحرب الباردة. تم الكشف عن حقيقة ما جرى في كاتين في عدد من الكتب. لقد جاءت هداية الجنرال متأخرة قليلاً، بيد أن ياروزلسكي يحب أن يظن نفسه بأنه مصلح شجاع.

"حتى غورباتشوف كان لا يزال غير متأكد، فقد كان قلقاً حيال رد فعل المؤسسة العسكرية، وقد تفهمت قلقه، إذ كنت أفضل من يعرف نوع المقاومة التي يبديها الجيش تجاه أي اقتراح بالإصلاح. بيد أني أوضحت للروس، عشية زيارتي إلى موسكو في نيسان 1991، بأنني لن أذهب إلا إذا قدّم الكرملين اعترافا واضحا بمسؤوليته. اعترف غورباتشوف بأن كاتين كانت جريمة سوفيتية، وليست نازية. جرى الاستخفاف بدوري ولم ألقى معاملة عادلة حتى فيما يخص كاتين. ذهب الفضل كله إلى ليتش فاليسا وبوريس يلتسن الذي كشف بعد عدّة سنوات عن وجود وثيقة وقعها ستالين تأمر بقتل البولنديين. إلا أن أحدا لا يتذكر قط بأنني أنا من لوى ذراع موسكو، أنا الذي اتهمني الغرب بأني سياسي عنيد ومتصلب".

"تاريخ العلاقات بين الغرب والكتلة السوفيتية تاريخ مليء بالمفارقات. أخبرني غورباتشوف شخصيا ـ وهو يذكر ذلك في كتابه

أيضا ـ أنه تلقى، بعد الانقلاب الفاشل الذي قاده المتشددون المناهضون للإصلاح، بعض الاتصالات الهاتفية من جورج بوش، بل ومن ليتش فاليسا يعبران فيها عن دعمهما. كما طلبا منه أن يصمد، وأن يحافظ على الإتحاد السوفيتي ـ بل ويقوّيه ـ لأن الغرب كان بحاجة إليه. كان أعداؤنا السابقون مذعورين من فكرة خسارة اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية الذين ظلوا حتى عهد قريب يدعونه بـــ[إمبراطورية الشر].

كان تقبّل البولنديين للقانون العرفي أصعب بكثير على الصعيد الإيديولوجي من أن يتعاملوا معه في حياتهم اليومية. وعلى الرغم من أن حركة التضامن كانت محظورة، إلا أنها كانت لا تزال قوية كسابق عهدها. ظل الناس في الشارع يروون النكات عن النظام. وجرى التعامل بتسامح عشوائي مع حظر التجول الذي ظل بعيدا عن أن يطبّق على الطراز السوفييتي، بتلك الطريقة الآنية اللامبالية التي يشترك بها الشعب البولندي مع الأوروبيين الجنوبيين".

يروي يرزي كيسيلفسكي، الابن الصحفي لكاتب بولندي معارض مشهور، القصة التالية: "أذكر حادثة وقعت معي بينما كنت عائدا إلى البيت بعد يوم قضيته في العمل في الصحيفة. استقليت سيارة أجرة، ودون أن يتطلع السائق إلى وجهي، تابع الاستماع إلى الراديو بينما قاد السيارة. بدأت أستمع إلى الراديو أيضا، شارد الذهن نوعا ما. لاحظت بأن ثمة خطب ما، ثم أدركت ما هو. كان السائق يستمع إلى إذاعة أوروبا الحرة التي تملكها الحكومة الأميريكية وتبث برامجها من موناكو، وهذا أمر تحظره السلطات. لم تكن لدى السائق فكرة عمن أكون. كان من الممكن أن أكون رجل شرطة متخف. بيد أنه لم يبالِ. كان الكل يعرفون

أن المخاطر التي كانت مرعبة من الناحية النظرية غير مطبقة عمليا".

أحيانا كان المثقفون يتصرفون عامدين بطريقة تتسبب باعتقالهم كيما يتباهوا بأوراقهم الثبوتية بوصفهم معارضين لياروزلسكي. كما كانت الشرطة، التي تحولت من «ميليشيا ثورية» وأصبحت الآن مجرد حارس رسمي للقانون والنظام والعدو اللدود للجيش، تتحدى أحيانا أمر الاعتقال الصادر بناء على أوامر القوات المسلحة. ومن قصر بانكوف في برلين الشرقية، اعترض زعيم ألمانيا الشرقية المتطرف إيريك هونكر قائلا "إن رفاقنا البولنديين مقصرون في قمع المجرمين. إن كانوا بحاجة إلى مساعدتنا، فإننا جاهزون لمد يد المساعدة إليهم".

خيمت في ذلك العام الأزمة الاقتصادية على أجواء عيد الميلاد في وارسو. فقد سُرح العمال، وأصاب الركود النمو الذي شهدته السنوات الأخيرة. كما نضب الإستثمار الأجنبي لأن تكاليف اليد العاملة في بولندا هي الأعلى في أوروبا الشرقية، ويعود السبب في ذلك إلى العقود التي انتزعتها بالقوة حركة التضامن من المستثمرين في فترة الثمانينات.

الساعة الآن الحادية عشر صباحا. في مكتب ياروزلسكي، يحتسي حارساه الشخصيان وسكرتيرته رشفات صغيرة من الفودكا. احتفال متواضع مقارنة بالمكاتب الأخرى، حيث سيُدعى الموظفون إلى وليمة في أحد المطاعم. وما إن يظهر زائر في المكتب حتى تختفي زجاجات الفودكا وراء الكراسي البلاستيكية مصحوبة بابتسامات تنم عن امتعاض.

بات الثلج يغطي كل شيء الآن، فحتى قصر الثقافة يبدو أقل شؤما تحت غطائه الأبيض السميك.

"أخبروني أنك قابلت الكولونيل منغيستو. أذكره جيدا عندما كان

زعيما أثيوبيا شابا. زار وارسو عام 1979 وبدا مسرورا بكل ما رآه. قال لي بأنه يريد أن يضع نهاية للإقطاع في أثيوبيا ويستبدله بصنف الاشتراكية الذي عندنا. طبعا، لم يخبرني كيف كان ينوي أن يحقق هذا الهدف. يقولون لي بأنه سيُحاكم لجرائمه ضد الإنسانية، لكن يتعين علينا أن ننتظر لنرى على أي أساس يجري تحضير هذه التهم. لا زلت أقلّب التفكير بمحاكمة صديقي إيغون كرنتز، آخر رئيس لألمانيا الشرقية، تلك المحاكمة التي نجم عنها حكم بالسجن".

جنرال، يقول مينغيستو بأن صديقه غورباتشوف خانه.

"ليس الوحيد الذي يقول ذلك، بل ثمة كثيرين غيره. لكن ماذا كان بوسع غورباتشوف أن يفعل؟ كان عليه أيضا أن يحكم الإتحاد السوفيتي كما هو على أرض الواقع، وليس الإتحاد السوفيتي المثالي".

ومع ذلك، أشرف غورباتشوف على انهيار الإتحاد السوفيتي. ماذا يمثل غورباتشوف بالنسبة إليك؟ بطل أم خائن؟

"غورباتشوف رجل عظيم. رجل انتهى بأن غيّر العالم بالرغم من أنه لم يبدأ كمصلح. كان ثمة نهر عظيم، نهر التاريخ، مياهه محتجزة وراء صخرة، أو بالأحرى وراء كتلة عظيمة من الأحجار. غورباتشوف هو الرجل الذي أزاح الصخرة وسمح للمياه أن تتدفق بحرية. ولذلك يبقى غورباتشوف بالنسبة إلي شخصيا صديقا عزيزا".

والبابا؟

تغدو ملامح ياروزلسكي جدّية ويتنهد تنهيدة عميقة.

"شخصية جبارة، مثقف عظيم ووطني بولندي فذ، إلا أنه في الوقت ذاته مواطن عالمي بحق. قابلته ثماني مرات، وبوسعي القول أنه في حين يعرف مئات الملايين من الناس في العالم مدى براعته في التحدث إلى

الجموع، فإن قلة قليلة تعرف مدى براعته في الإصغاء. لقد قابلت، كما تعلم، عديدا من رجال الدولة والزعماء الذين لا يتقنون، في لحظة معينة من حيواتهم، سوى إلقاء المونولوجات. أما البابا فيعرف كيف يصغي. لطالما استمع إلى سجالاتي ومشاكلي".

ليتش فاليسا؟

"آه، ليتش" يبتسم الجنرال، فهو يعرف جيدا بأن بطل حركة التضامن ذو الجماهيرية الواسعة، المحارب لأجل العدالة الذي حمل على الدوام شارة مريم المقدسة على طية سترته الرخيصة ومن ورائه وقف عشرة ملايين مؤيد إنما هو الآن شخصية غير مهمة، إن لم نقل سيئة السمعة. إنه، بطريقة أو بأخرى، رفيقه في سوء الحظ. "ليتش، رجل خارق، موهوب بغريزة طبيعية عظيمة تجاه السياسة وإن كان، لسوء الحظ، يفتقد إلى المؤهلات الفكرية، الثقافية، أو الشخصية لأن يقود بلدا مثل بولندا. إلا أنه غالبا ما حَسَبَ الأمور بالشكل الصحيح، فقد كان يعرف ما يفعله. لطالما كانت نقاشاتي مع ليتش نقاشات صريحة وصادقة، وفي أغلب الأحيان... ممتعة أيضاً".

المارشال تيتو؟

"التقيته ثلاث مرات، مرتين في حياته ومرّة في مأتمه. حتى أنه دعاني ذات مرة كي أنضم إليه في رحلة قصيرة في البحر الأدرياتيكي على متن يخته الخاص. اعتبرته، في جميع هذه المناسبات ـ بما فيها مأتمه ـ رجلا بالغ الذكاء، نجح في توحيد الجمهوريات اليوغسلافية ووقف في وجه ستالين دون أن يجلب على بلده عواقب وخيمة. لكن، بمرور الوقت، بدا وكأن نظامه يتحول إلى نظام ملكي، حتى كاد أن يكون نظام أمير بيزنطي سلبته الثروة والجاه عقله. وقد شجع الغرب نزعته هذه".

فيدل كاسترو؟

"افتُتِنا جميعا بفيدل في البداية، بما فينا أنتم الغربيون. إنه رجل مدهش، ساحر للجماهير. رجل بمقدوره أن يقيم علاقة مباشرة مع أي حشدٍ من الناس. وأنا قادر تماما أن أميز بين الهستيريا الجماعية المزيفة التي تولدها الآلة الدعائية والهستريا الجماعية الحقيقية. دعنا نقول أنني، من موقعي،... درست هذه الأمور عن كثب". عند هذه النقطة، يَمنُّ الجنرال عليّ فيبتسم. "كان فيدل رجلا صالحا ويتحلى بعزيمة كبيرة. تغيرت الأحوال بعدئذٍ، ولم يقدر أن يتغير معها. لطالما كان رجلا منسجما وصادقا مع نفسه. لم يستطع المضي إلى الأمام كما فعلنا في بولندا، بل غدا حبيس أفكاره. أعرف أيضا أخيه، راوول، معرفة جيدة. فتى طيب، لكن ليس بقدر فيدل. لا أحد يعلم ما سيحل بكوبا بعد فيدل...".

رونالد ريغان؟

"همم.... كانت مشاعري حيال ريغان مختلفة تماما باختلاف الفترة الزمنية. ففي البداية كان رأيي فيه سلبيا دون شك. إذ كانت العقوبات التي فرضها على بولندا موجعة جدا. كان ريغان بالنسبة إلي رجلا منافقا بكل بساطة. فقد استقبل بحفاوة وتكريم شديدين الديكتاتور الروماني تشاوشيسكو الذي طبق القانون العرفي طوال عشرين عاما، لكنه لم يستغرق منه الأمر سوى بضع ساعات كي يصدر حظرا علينا عندما كنا في وضع صعب تعيّن علينا فيه أن نعلن حالة حرب. غيرت رأيي فيه لاحقا. فعندما رأيته يقف إلى جانب غورباتشوف في الساحة الحمراء يقول، وابتسامة عريضة تعلو وجهه، بأنه لم يعد لإمبراطورية الشر وجود، بدأت عندئذ أراه بمثابة رجل قادر أن يغير رأيه. وقد أُعجبت به لهذا السبب. كما ترك نائبه جورج بوش انطباعا جيدا لدي عندما زار وارسو".

وماذا عن هلموت كول؟

"رجل آخر تحفظت في علاقتي معه في البداية. وبصراحة، كان تحفظي شديدا. ومع هذا، قدّم كول لأوربا الكثير. يؤسفني أن مسيرته السياسية انتهت على نحو مُخز بهذا الشكل".

وإيريك هونكر؟

"من السهل أن نتجاهله بوصفه شخصية لا تسترعي الانتباه. بيروقراطي في بزّة رمادية. لاشك أنه حكم ألمانيا الشرقية بقبضة حديدية. كان هونكر رجلا دوغماتيا. بيد أني رأيت بأن للرجل جانبا ديناميا. والأهم من ذلك كله أني ما رأيته قط إلا وتذكرت بأنه قضى عشرة أعوام في سجن نازي. كانت تلك تجربة تركت فيه ندوبا عميقة. لكنه متعصباً. فقد كان، على سبيل المثال، شديد المثابرة على اللياقة البدنية والتمارين الرياضية. فذات يوم، وعقب اجتماع سياسي، أعطاني آلة أوكسجين خاصة صنعها علماؤه، صُمِّمت كي تجدد الجلد وتزيد إحساس المرء بالصحة الجسدية. أخذتها معي على الرغم من أنني لم أقتنع بها. بيد أنني بدأت أشعر بفوائدها عندما استخدمتها. كان هونكر مثل آلته: قد تشك به في البداية، لكنه لن يخذلك عندما تضعه أمام الامتحان".

إننا الآن في شهر كانون الأول عام 2001 بعد عشرين عاما بالضبط من ظهوره على التلفاز، ببزّته العسكرية أمام علم بولندا الأبيض والأحمر وفي وسطه النسر البولندي، كي يُدلي ببيانه بصوت جاف أجش. عشرون عاما مضت على ما كان، في الواقع، الانقلاب الحقيقي.

اليوم، توقف الثلج عن الهطول بينما كنت أتحضر لمغادرة وارسو. تتحلق الفتيات والفتية حول محطة ماكدونالد وحقائبهم على ظهورهم. إنهم

طلاب جامعيون في الطريق إلى منازلهم في سهول بولندا الريفية لقضاء عطلة عيد الميلاد.

ياروزلسكي أيضا على وشك أن يغادر وارسو إلى بيته الريفي المحاط بأشجار البتولا التي أثقلها الثلج. تُذكره هذه الأشجار بطفولته في سيبيريا. استدعاني إلى مكتبه ليودّعني، ليعاتبني أيضا "ستضعني في كتاب يضم جميع مجرمي عصرنا. الوحيد الناقص هو بول بوت". ألمح طيف ابتسامة كئيبة. "بيد أنك لم تسألني ولو سؤالا واحدا عن الموضوع الذي يشكل، من وجهة نظري، الندم الرئيس الذي أحسه في مسيرتي".

تذكرت القديس ستانيسلاف ونسخته المعاصرة الأب بوبيلوشكو. لعل الجنرال على وشك أن يقول لي بأنه يتماهى مع الملك بوليسلاوس. كلاهما أصلعان وفاشستيان. وكلاهما يؤمنان بسياسة الأمر الواقع أكثر مما يؤمنان بالمُثل العليا. "أنا أصغي، جنرال. هل تريد أن تتحدث عن اغتيال الأب بوبيلوشكو؟"

كان يرزي بوبيلوشكو كاهنا شابا معروفا في إحدى الأبرشيات في ضواحي وارسو. انتقد بوبيلوشكو صراحة ضروب الاستغلال التي تنطوي عليها الشيوعية كما أيّد حركة التضامن. كان آلاف الناس يحتشدون للاستماع إلى عظاته يوم الأحد. اختُطف بتاريخ 19 تشرين الأول عام 1984، وبعد أحد عشر يوما وجدوا جثته في مستودع وقد تعرضت لضرب وحشي. هزت هذه الجريمة بولندا، واتهمت المعارضة الحكومة أنها كانت وراء ذلك.

"كلا، لقد قُتل بوبيلوشكو على يد متعصب مجنون. كتب الرجل رسالة إلي فيما بعد يعتذر فيها عن العار الذي جلبه للبلاد. لم تكن الحكومة مسؤولة بأي شكل من الأشكال. لا شك بأن العلاقات مع الكنيسة

كانت صعبة، إذ كان ثمة صدامات مستمرة. إلا أن أحدا منا لم يُعط أي أمر لجريمة كهذه. كلا، أنا أتحدث عن فترة زمنية سبقت ذلك، فترة يزعم عديد من الناس الآن بأنهم نسوها. إني أتحدث عن عامي 1967 ـ 1968، عندما كانت بولندا واقعة في قبضة هوسٍ دعوناه [المعاداة للصهيونية،] وهو ما كان، في الحقيقة، معاداةً للسامية. كنت رئيساً للأركان آنذاك، أي أني كنت في موقع مسؤولية. ربما كان بمقدوري أن أؤثر على مجرى الأحداث، بيد أن القوة ـ أو الشجاعة ـ كانت تنقصني لكي أقود معارضة. لم تكن بولندا المعادية للسامية هي بولندا الوحيدة الممكنة. كان ثمة فرصة للقتال، بيد أني لم أقاتل. وكما ترى، أُلامُ لارتكابي أخطاء لم أرتكبها قط. أحاكَم لجرائم لم ارتكبها، في حين أُحَلُّ من تبعة الخطأ الحقيقي الوحيد الذي يجب أن أُلام عليه".

"يمكن أن تكون الحياة مفارقة. أرادني الجميع أن ألقي بنفسي من حافة الوادي، أن أقوم باللفتة النبيلة، أن أكون مسرحيا. بيد أني لم أكن ممثلا قط. كنت أعيش في العالم الحقيقي. أنا مضطر للذهاب الآن، فزوجتي تنتظرني. اقضِ عاما جديدا سعيدا، وكن عادلا معي. اسأل نفسك ماذا كنت لتفعل لو كنت في حذائي، لا، بل في جزمتي العسكرية".

أنور خوجا

الهرم سلطة، كبت، قوة، وثروة. إلا أنه لا يعدو كونه، إضافة إلى ذلك، سيطرة على الغوغاء، تضييق لعقولها، إضعاف لإرادتها؛ إنه رتابة، وخراب. إنه، يا سيدي الفرعون، حارسك الأكثر جدارة بالثقة، شرطتك السرية، جيشك، أسطولك، وحريمك. كلما زاد ارتفاعه، بدت رعيتك أصغر. وكلما صَغُرت رعيتك، ارتفعت أنت.

من الهرم لـــ اسماعيل كاداره

عندما دخلتُ زنزانتها لأول مرة، كان الفراش الشيء الوحيد الذي استطعت أن أتبينه. كان ملقى على الأرض الحجرية العارية بدون غطاء ولا وسادة. وبعد برهة، تبينت كومتين من الكتب إلى جانبه، مجلدات ثخينة ذات أغلفة من نوعية جيدة عليها عناوين فرنسية، مرتبة بعناية كما لو كانت موضوعة على طاولة بقرب سرير بروفسور. ثمة زوج من النظارات موضوع على أعلى كتاب. كانت النظارات تكبّر الكلمات الأولى من عنوان الكتاب، «**تاريخ الفلسفة**...».

قبل دقائق قليلة كنت أمشي في شوارع تيرانا المشمسة. كان يوما من أيام الصيف التي يلتقي فيها الشرقي والمتوسطي وتضفي فيها الظلال المختلفة لأشعة الشمس الذهبية جوا من المرح على كل شيء، حتى على حجارة الشقق التي بناها الصينيون في العاصمة الألبانية في السبعينيات.

كنت أبحث عن السجن الذي يخضع لحراسة مشددة. كان مدخله في نهاية شارع ضيق غمرته المياه المتدفقة من أنبوب مياه معطل. تجمع حول البوابة الضخمة حشد من الناس يتدافعون للدخول. رجال يرتدون قمصاناً تحتية وصنادل يخبطون على حاجز من الشباك الحديدية

ويصيحون غاضبين. ونسوة متعرقات جلسن في سيارات ألفا روميو قديمة صدئة تحمل لوحات أرقام إيطالية متوقفة في عرض الشارع. كانوا جميعهم أقارب لأناس اعتُقلوا الليلة الفائتة خلال إحدى المداهمات المتكررة التي تتم بناء على أوامر الرئيس الجديد، طبيب القلب الذي تحوّل إلى سياسي، سالي بيريشا. وكما أوضحت يومياً الصحف المؤيدة لبيريشا، كان الهدف من هذه المداهمات التي تشنها الشرطة هو "محاكمة ومعاقبة المسؤولين عن خمسة عقود من الديكتاتورية"، وفي الوقت ذاته، تعليم السكان المعجزات التي تجترحها الديمقراطية.

بين فينة وأخرى يظهر حارس خارج بوابة السجن الرئيسة، يحدّق في الحشد، يبصق على الأرض، بطريقة تنم عن لامبالاة تامة، ثم يختفي ثانية مغلق الباب ورائه. الوحيدون الذين يُسمح لهم بالدخول هم الحرس القادمون للقيام بالنوبة التالية. حُشر هؤلاء الحراس في شاحنة زرقاء قديمة كانت الشرطة الإيطالية قد تخلصت منها فأعطتها للحكومة الألبانية. كانت الشاحنة لا تزال تحمل شارة **جندي يحمل قربينة**.

استقبلني آمر السجن في غرفة ستائرها مسدلة وجدرانها مطلية بنفس اللون الأخضر الذي طُليت به جدران الصفوف في إيطاليا في فترة الحكم الفاشي. وبعد أن نظر بسرعة إلى الوثيقة التي تأذن بإجراء مقابلة مع واحد من نزلائه، مختومة حديثا من أحد القضاة، أقفل عليها بسرعة في أحد الأدراج، كما لو أن لمسها كان أمرا مهينا له، أو ربما خطرا، ثم صرفني إلى غايتي.

كانت أروقة السجن مليئة بمزيد من الرجال بقمصانهم التحتية. لعلهم سجناء، أو لعلهم رجال شرطة، أو رجال بدلوا أحد هذين الدورين بالدور الآخر ولا يزالون يتساءلون إلى أي من هاتين الفئتين ينتمون فعلا. حتى

آنجيلا رابيكي وزوجها ألبرت كانا غير قادرين دوما على التمييز بين رجال الشرطة واللصوص.

تعمل آنجيلا مراسلة لوكالة آتا، وكالة الصحافة الرسمية التي ظلت حتى عهد قريب ناطقة باسم النظام الألباني الستاليني. وعُيّن ألبرت مؤخرا في وزارة الخارجية الجديدة بعد إدخال إصلاحات عليها وكان يأمل أن يُرسل إلى الخارج، إلى مالطا ربما. كنت قد التقيتهما مصادفة فعرضا علي المساعدة، ربما لأن الأجنبي كان ما زال شيئا نادرا في تيرانا في تلك الأيام، أو ربما لأنهما كانا متلهفين لقضاء بعض الوقت مع غرباء من الخارج.

كانت المشكلة الأولى التي صادفتنا هي العثور على شخص يعطي الإذن بالمقابلة. لم يكن هذا بالأمر السهل لأن قلة قليلة من المسؤولين في المناصب العليا كانت لتنظر بعين الرضى إلى طلب غريب كهذا. لهذا بحثنا معا في أسماء الأصدقاء المقربين والمعارف السياسيين، والعلاقات العائلية والجماعات المعارضة. ثم ارتأت آنجيلا وألبرت أنه من الأفضل أن نحاول مع وزراء تيرانا ومحاكمها، بحثا فيها عن ثغرة قانونية تُشرعن المقابلة. كانت مكاتب الوزراء والمحاكم في الشارع ذاته، وقد بُنيت جميعها من القرميد الأحمر على الطراز الذي كان موسوليني يفضله خلال الاحتلال الفاشي لألبانيا. وهناك كانت جميع المحاكم تغص بالمراجعين الذين احتشدوا على السلالم، وقد جُهّزت كلها بآلات كاتبة سوداء قديمة.

وفي آخر المطاف رضي قاض، وكان صديقاً لآنجيلا منذ أيام الدراسة، فوقّع الإذن على ورقة بنية اللون بعد أن قطع محاكمة كان يقوم بها ـ قضية قتل بسبب نزاع على أرض ريفية منذ زمن بعيد ـ ودون أن

يسألني أي سؤال استأنف محاكمته فأمر عائلة الضحية وعائلة المتهم بالتوقف عن تبادل الحديث الودي مع بعضهم البعض والجلوس في أماكنهم.

كنت مُثارا ومندهشا إلى حد كبير، ما أضحك آنجيلا التي سألتني "ألا تعلم الخدمات الشخصية هي السلعة الوحيدة التي لطالما كانت متوفرة بغزارة في ألبانيا، حتى في أسوأ أيام الديكتاتورية".

في طريقنا إلى السجن، بدت عصبية آنجيلا. لم تخبرني السبب، بيد أن وجهها غدا شاحبا بعدما أُغلقت بوابة السجن من ورائنا. اعترفت لي حينئذ بأنها لم تكن مستعدة للقاء «تلك المرأة». فجأة غدت فكرة مواجهة الكابوس الذي سيطر على حياتها بشحمه ولحمه عبئا ثقيلا عليها.

"الأمر ببساطة هو أنه ليس بمقدورك أن تتخيل الرعب الذي نحسه نحن الألبان لمجرد ذكر ذاك الاسم، لا تقدر أن تتصور الخوف الذي يبثه فينا. أعتقد أن الأمر يعود إلى أنها وزوجها كما لو أنهما أقنعونا، خلال ما يزيد على خمسين عاما من الديكتاتورية، بأنهما فعلا كائنان بشريان خارقان. فمازال البعض يقولون لنا بأنها لا تزال تزدري الناس وأن عينيها لا تزالان باردتان وثاقبتان. لا أظن بأنني قوية كفاية كي أنظر في عينيّ السيدة ماكبث".

أقنعت آنجيلا أن تفكر ثانية. فأخذت نفسا عميقا، مثل رياضي قبل بداية السباق، ثم وافقت. نعم، كان عليها هي أيضاً أن تواجه الأرملة السوداء.

وهكذا، بعد لقائنا القصير مع آمر السجن، صعدنا السلم راكضين، أنا وألبرت وآنجيلا. قابلنا مرافقينا في أعلى السلم، جنديان غير حليقان، لهما وجنتان بارزتان يتميز بهما القروي الألباني. كانا يرتديان بزّتين زرقاوين

غير مزررتين ويحملان بندقيتين ثقيلتين من الحرب العالمية الثانية تدلتا على كتفيهما.

وبينما كنا نمشي في رواق مزدحم، جاء دور ألبرت لينكص. شدّني من ذراعي وقال لي بهدوء بينما تلفت من حوله "لم تنتبه. هناك واحدا من السجناء، زعيم شيوعي سابق، أخافني حتى الموت، فقد قال لي: «انتبه لنفسك، لأننا سننتقم عندما نعود إلى الحكم»".

لم أجد كلمات أطمئنه بها.

بعد أن صعدنا مزيدا من السلالم، توقفنا أمام زنزانة. أومأ الحارسان إلينا بالدخول، إلا أن أحدا منهما لم يجرؤ على لمس الباب الحديدي غير المقفل. كانت الأرملة السوداء في الداخل.

ترددنا ثلاثتنا. لم ينطق أحد باسمها، لا القاضي، ولا آمر السجن، ولا حتى آنجيلا أو زوجها. كان الجميع يخشاه، كما لم تكن ثمة حاجة لذلك.

منذ مجيء الأرملة السوداء وزوجها إلى الحكم لأول مرة قبل نصف قرن، ارتبط اسمهما بألبانيا نفسها على نحو لا فكاك منه. فصار كل شيء يدور في فلك الاسم شبه المقدّس للقائد العظيم وقرينته. بيد أن هذا لم يكن يعني أنه من الممكن النطق بهذا الاسم بحرية. فقد اهتم النظام الذي أسسه هذا الثنائي كثيرا بإساءة الاستخدام التي قد تلحق بالاسم فجعل النطق به أمرا مخالفا للقانون باستثناء المناسبات الرسمية أو الموظفين الرسميين المرخص لهم، وذلك لكي يتحاشى أن يُمتَهن. ومن المفارقة أن الوضع لم يتغير في ظل الحكومة الجديدة للدكتور سالي بيريشا، ولكن لسبب معاكس تماما. فقد كانت الفوضى السياسية والانهيار الاقتصادي يعمان بحيث خشيت الحكومة أن يثير الاسم المقيت الحنين، أو الاحترام. وهكذا، كان

لا يزال من غير المُستحسن أن تنطق بالاسم، حتى في تيرانا الجديدة و«الديمقراطية»، لعلّ ذلك كان ممنوعا، بيد أنه كان خَطِرا بكل تأكيد.

أخيرا، فتحتُ الباب وقلتُ "صباح الخير سيدة خوجا"، مما أصاب آنجيلا بالهلع.

جاؤوا لاعتقالي بعد ثلاثة أيام. كانوا بانتظاري في صالة فندق تيرانا القديم والقذر عندما عدت من العشاء في مقهى في الهواء الطلق برفقة جون باتل، عامل إغاثة أمريكي. كانوا ثلاثة، يرتدون بزّات تشبه بزّات حراس السجن ما عدا أن الأزرار كانت مزررة، وقد حلقوا ذقونهم أيضا. دنوا مني وخاطبوني عندما ذهبت لأجلب مفتاح غرفتي. "مجرد مراجعة، لن يستغرق الأمر طويلا، إنه مجرد إجراء شكلي". قال الجنود بلهجة إيطالية تعلموها من التلفاز.

كان إلير، البواب الذي عرفني منذ أسبوع واسترق السمع إلى مكالماتي الهاتفية، يتحدث على الهاتف. سمعته يقول "لا، ليس هنا، ليس هنا". فَخَمّنتُ ـ وكان تخميني في محله ـ بأنه يتحدث إلى زوجتي، بيا، التي كانت تتصل من إيطاليا في الموعد الذي اتفقنا عليه. لم يكن بوسعي أن أفعل شيئاً حيال الأمر. ارتجف صوته بينما أضاف هامساً، **سنيورا**، البوليس هنا.... بوليس... **أمن**"، أي الشرطة السرية المقيتة.

شحب لون جون لمرأى حفلة الترحيب. كانت هذه أول تجربة له مع رجال شرطة عدائيين في هذا البلد الذي أرسلَته إليه واشنطن قبل أيام قليلة «ليساعد الديمقراطية الجديدة الناشئة». التقينا قبل بضعة أيام وقررنا أن نتلاقى مساء كي نتحدث عن جدّيه الإيطاليين ونتبادل الآراء والأفكار.

وإذ فكرت بسرعة، قلت له "جون، من فضلك، اركض إلى السفارة

الإيطالية وأخبرهم بأنني اعتُقلت". ابتسم، ثم انطلق بسرواله الأميركي القصير، تاركا إيّاي وحيدا مع رجال الشرطة.

آنذاك كان الظلام قد حلّ. خارج الفندق في ساحة سكاندر برغ، ساحة مربعة مطلية باللون الأبيض توجد فيها تماثيل من الخمسينيات وملصقات تعلن عن رحلة سياحية داخل البلاد لا يُعرف عنها أي شيء ولا وجود لها إلا بالاسم. كانت بانتظارنا سيارة فيات أخرى عليها شعار الجندي الإيطالي الذي يحمل قربينة. قطعنا الساحة بينما كان سكان تيرانا يخرجون لتوهم من منازلهم ليقوموا بنزهاتهم المسائية كما هي عادتهم. أشعل الرجال سجائر بارتيزاني، ساحبين إياها من علب لا تزال تحمل النجم الأحمر الشيوعي. صافح بعضهم البعض بالأيدي، كما جرت العادة في هذه البلاد التي كانت ذات مرة من مقاطعات الإمبراطورية العثمانية العظمى. كانت الفتيات تتهادين ببطء، غير آبهات بالصفير الذي يشبه عواء الذئاب من ورائهن.

بعد عدة شهور قصّ جون ما حدث معه بعد أن تركني. فبعد أن وجد السفارة مغلقة ليلا، قرع باب منزل السفير الذي يقع على بعد عدة مبان. كان السفير يستضيف مأدبة عشاء رسمية ارتدى فيها الضيوف البزّات الرسمية، وليس السراويل القصيرة. وهكذا، عندما سلم جون رسالته شكره السفير على عجل ثم دفعه إلى المطبخ كي يتناول المرطبات. لم يمتعض جون، إذ توقع أن يُكافأ بترحيب أحرّ، ربما بدعوة للانضمام إلى الحفلة، لكنه بعد ذلك شكر نجومه الجالبة للحظ لأن السفير كان يتمتع بحس اللياقة الاجتماعية، فقد وقعت في هواه مباشرة ابنة السفير فائقة الجمال التي لاذت بالمطبخ هربا من الحفلة الرسمية. وفي اليوم التالي مباشرة كانا

يقضيان معا إجازة على أحد الشواطئ الإيطالية على الجانب الآخر من البحر الأدرياتيكي.

بينما كان جون يمتّع نفسه في مطبخ السفير، كنت سجين في زنزانة في مخفر الشرطة رقم واحد، وتمت مصادرة جواز سفري. كانت الزنزانة مظلمة، بيد أني استطعت أن أتبين أن أحدهم لطخ الجدار بيده المدماة، تاركا عليه بصمة مشوومة لراحة اليد. سألني صبي يقف في زاوية الزنزانة يرتدي بزّة عسكرية نُزعتْ عنها شاراتها "ماذا فعلت كي يُرمى بك في هذه الزنزانة". أجبته وقد أحسست بأني ممثل في أحد أفلام الدرجة الثانية "لا أدري. لا ريب أن ثمة خطأ. أنا بريء. وأنت، ماذا فعلت".

كان وجهه شاحبا كوجه طفل يبكي ويريد العودة إلى بيته، إلى مزرعة ما في الشمال، بعيدا عن عالم لا يفهمه، ولا هو يفهمه. كانت سيرته تلخص الاضطراب السياسي لعصره، تناقضات حكومة ديمقراطية بالاسم بيد أنها لا تزال ديكتاتورية بأساليبها. "قادونا إلى الساحة الرئيسية حيث كانت ستقوم مظاهرة. قالوا لنا، نحن الجنود، أن نصوب أسلحتنا إلى رؤوس الحشد. أطعت الأمر، فسقط أحدهم ميتا. اعتقلوني بتهمة القتل. قالوا بأنهم لم يعطوا الأمر قط".

وضعت يدي على كتفه، وكذبت عليه. "إذا أنت بريء أيضا. لا تقلق، سيكون كل شيء على ما يرام".

قبل ثلاثة أيام، في زنزانتها في السجن الذي يخضع لحراسة مشددة، رددت نيكسمي خوجا الكلمات ذاتها تقريبا. "أنا بريئة. إنهم مخطئون. لم أكن أريد سوى مصلحة بلدي".

كان زعماء النظام البائد يشغلون كامل الطابق في هذا السجن. حارب معظمهم كأنصار في الحرب العالمية الثانية. كانوا جيلا من البشر فوق القانون، صبغوا، على نحو هجاسيّ، كل حائط في البلاد بشعارات من قبيل «المجد والخلود للحزب الشيوعي الألباني»، «شكرا لك يا أنور، يحيا أنور»، «لن يبيع الشعب الألباني نفسه مقابل الروبلات أو الدولارات، بل يؤمن إيمانا عميقا بالعلاقات الدولية البروليتارية». كانوا متشددين عنيدين حافظوا على عبادة ستالين على قيد الحياة حتى نهاية الثمانينات، حيث كانوا لا يزالون منهمكين بنصب تماثيل نصفية جديدة للعم جو أمام المدارس والمصانع في حين كانت أوروبا الشرقية تتخلص من تماثيل لينين.

كانت آخر مرّة رأيت فيها هؤلاء المتشددين، الموجودين مع نيكسمي خوجا في نفس الطابق من السجن، عندما كانوا لا يزالون في الحكم. كان ذلك أثناء احتفالات يوم العمال عام 1989، آخر احتفال ستاليني للعمال في أوروبا.

في ذلك اليوم وصلوا ـ بعد جولة قصيرة في العاصمة الوحيدة في العالم التي لم يُسمح فيها للناس العاديين باقتناء سيارات ولا وجود فيها لإشارات المرور ـ في موكب من سيارات الفولفو السوداء ستائرها مغلقة. كانوا في السبعينيات من أعمارهم يحملون شارات حمراء على ستراتهم المجعدة، يضمّون قبضاتهم بجانب صدغهم، وتختبئ نظرتهم الغامضة خلف نظاراتهم الشمسية، بينما تنبس شفاههم بكلمات الأغاني الشعبية التي تحتفي ببطولات الأنصار التي سطّرها أنور ونيكسمي خوجا في الحرب ضد النازيين الألمان والفاشيين الطليان.

ظلت **النومنكلاتورا** وفيّة لأنور ونيكسمي خوجا قرابة خمسين عاما.

وعندما جمّد أنور ألبانيا داخل اقتصاد أوتوقراطي صارم وقطع العلاقات مع موسكو عام 1961 وبكين عام 1978، عملا بنصيحة نيكسمي، اتّهَمَ كلا البلدين بأنهما غير ملتزمين كفاية بالمُثل الماركسية. ظل الحرس القديم مخلصا لهما على الرغم من أنهما عدلا المادة 28 من القانون بحيث حظّرت العلاقات أيّا كانت مع «البلدان الإمبريالية والتحريفية»، فأقحما ألبانيا في عزلة سياسية تامة.

مَرِض أنور في السبعينيات. فكان لا بد من بديل ليحل محله بشكل دائم في الاحتفالات الرسمية الطويلة. كان هذا البديل طبيب الأسنان بيتر شابالو الذي اختطفته الحكومة بالمعنى الحرفي للكلمة وأخفته حتى عن عائلته. عاش شابالو مع عائلة خوجا. تولّت نيكسمي زمام الحكم في تلك الفترة وضغطت لفرض نوع من التشدد ذا نزعة أخلاقية. كانت هي من أمرت (أو هكذا يقولون) رجال الجمارك أن يحلقوا لحى وشاربي الأجانب القلّة الذين سُمح لهم بدخول البلاد.

غدا الحكم الديكتاتوري، في إحدى مراحله، أكثر عنفا وهوسا بذاته. أُعيدت تسمية آلاف الشوارع وساحات المدن بـــ«8 تشرين الثاني» تيمّناً بيوم تأسيس الحزب الشيوعي الألباني. وفي عام 1967 تمّ حظر الدين وأصبحت ألبانيا أوّل أمة ملحدة على الصعيد الرسمي. حيث سُوّيت كنائسها ومساجدها بالأرض.

بيد أن نُصُبا من نوع آخر كانت على وشك أن تُشَيّد، معابد أكثر عنفوانا مخصصة لدين الخوجا الحقيقي: الروح الوطنية الألبانية العنيدة. كان الرفيق أنور هو من جاء بفكرة بناء غرف إسمنتية على شكل دبابات. وعلى عكس الدبابات الحقيقية، كانت دبابات أنور غير قابلة للحركة، بيد أن كلفة تصنيعها كانت أرخص بكثير بحيث صار عددها النهائي هائلاً:

700000، بمعدل واحده لكل أربع مواطنين. كانت هذه الغرف أهرامات صغيرة خدمت أكثر من هدف، حالها كحال هرم خوفو العظيم.

امتص بناءها طاقات الشعب، واستهلك ثروات الأمة التي تحاشت بذلك أقل خطر ينطوي عليه توزيع الثروة، وأشار إلى أن بلاد «**أبناء النسور**» محاطة بأعداء ينوون غزوها. وكما أعلن أنور قبيل وفاته مباشرة عام 1985 (العام نفسه الذي تم فيه انتخاب تكنوقراطي شاب يُدعى ميخائيل غورباتشوف أمينا عاما للحزب الشيوعي السوفييتي وكان عامل كهرباء له شاربين يدعى ليتش فاليسا يهز بولندا الشيوعية من أساسها) كان الألبان مستعدين «لالتهام العُشب» داخل غرفهم على أن يستسلموا، أو يساوموا.

إذا، كان أنور ونيكسيمي خوجا و**النومنكلاتورا** أبرياء، إذ أنهم «ما أرادوا سوى مصلحة البلد».

حالما دخلنا زنزانتها، نهضت الأرملة ووقفت إلى جانب فراشها مثل جندي جاهز للتفتيش. كانت أكبر سجينة في أوروبا، تبلغ الثالثة والسبعين، ترتدي ثيابا مثل التي ترتديها مديرة كلّية للبنات: تنورة زرقاء داكنة تصل إلى تحت الركبة، وبلوزة زرقاء داكنة عليها داوئر بيضاء، وحذاءً خفيفاً. كان شعرها مشدودا ومعقودا على شكل كعكة عند مؤخرة عنقها. ظلّت «عقصة» الشعر هذه الوحيدة المسموح بها في ألبانيا الستالينية طوال نصف قرن. كانت تسرّح شعرها على ذلك النحو كي تبيّن بأن القائد العظيم وزوجته كانا غير مبالين بالترف وأنهما لا يزالان ثوريين.

لم تستطع آنجيلا، وقد تملكها رعب شديد، أن تتحاشى إلقاء التحية باحترام، وبعينين مُسبلتين. بيد أن نيكسمي خوجا لم تتكبد عناء الرد.

كانت لحظة محرجة. وبما أنه لم يكن ثمة كراس في الغرفة، اقترحت عليها أن تجلس على الفراش، بيد أنها رفضت، لأن ذلك غير لائق. أجابت على أسئلتي بلغة إيطالية بَطُل استعمالها كتلك اللغة التي يستخدمها أستاذ مدرسة متقاعد، دون أن يكون في كلامهما أي أثر للكنة. كانت عباراتها المصاغة بإحكام موجزة ودقيقة. حاولت أن أستفزها، إلا أنها بقيت رابطة الجأش.

ما هو شعورها بعد أن فقدت كل شيء، هي التي امتلكت كل شيء ذات مرة، هي من كانت بحق كل شيء بالنسبة لأمة بأسرها؟ "أنا امرأة قوية". أجابت. "عندما كنت نصيرة، نمت بجانب أنور وسط الثلوج. مررنا بأوقات عصيبة عندما كنا نحارب النازيين والفاشيين. لكن في النهاية كانت بلدنا الوحيدة التي حررت نفسها بنفسها، دون مساعدة الأمريكيين، على عكسكم أنتم الإيطاليون وعلى عكس باقي أوروبا. لا أزال مقاتلة. تلك هي تقلبات الحياة السياسية، ألا توافقني؟" نظرت إلي بعينين مليئتين بالسخرية.

سألتها، ألست بذلك تساوين بين الاحتلال النازي لألبانيا وبين أول محاولة في تاريخ البلاد الطويل لطرح نظام يقوم على تعدد الأحزاب؟ لم تُبد الأرملة أي انفعال. "على العكس. ثمة مقارنة مباشرة بينهما. ما عليك سوى أن تتذكر أولئك الخونة الذين هزمهم الأنصار فهاجروا إلى أمريكا بعد الحرب. ها هم يعودون اليوم إلى ألبانيا كيما يحققوا حلمهم ببلد مُستَعبَد للرأسمالية. إنهم ذات الأشخاص الذين هزمناهم أنا وأنور في الجبال عام 1944، الخونة الذين وقفوا في صف هتلر وموسوليني، أولئك الذين حاولوا غزو ألبانيا بعد الحرب العالمية الثانية بمساعدة مرتزقة

موّلتهم الحكومة البريطانية. إنهم ذات الأشخاص الذين قاتلناهم أنا وأنور طوال حياتنا".

تحدّثت نيكسمي كما لو أن أنور كان لا يزال حيا يرزق. وكما لو أن الشيوعية كانت لا تزال على قيد الحياة. "لطالما كنت مثالية. أنا هرمة ومتعبة الآن، بيد أن السجن لم يغير طريقة تفكيري. سنبقى أنا وأنور ماركسيّين حقيقيين. فنحن نؤمن بالماركسية، ولطالما آمنا بها". توقفتْ عن الحديث، وبينما نظرت خارج النافذة كما لو كان بمقدورها أن ترى مكتب المكروه سالي بيريشا، الذي كان في السابق طبيب عائلة الخوجا، قالت بازدراء، "هؤلاء الناس لا يؤمنون سوى بالدولارات".

عقب فوزه بالانتخابات مباشرة، اتهَم بيريشا بالفساد قرابة اثني عشر شخصا من زعماء النظام البائد وزجّهم في السجن. اشتُبِه بأن لدى أرملة خوجا حسابات مصرفية في سويسرا وفيلات في إيطاليا وأطيان في جنوب أفريقيا. تضمّنت التهم التي كانت حصيلتها حكما بالسجن لأحد عشر عاما اختلاس مبلغ 300 دولار. كان من غير الممكن إثبات تهم أخرى.

أنكرت الأرملة جميع التهم بما فيها تهمة الاختلاس. "لم آخذ ليكا واحدا. صرفنا أنا وأنور جميع الأموال التي تلقيناها من الدولة على الضيافة الرسمية". تحدثت كما لو كانت الدولة وعائلة خوجا شيئين منفصلين. "نعم" كررت متلذذة بالعبارة، "الضيافة الرسمية... كانت الشخصيات الأجنبية رفيعة المستوى تنزل في منزلنا. لقد عزّزنا العلاقات الدولية على حسابنا. لا شك أني عشت وأنور أفضل من معظم الناس، بيد أننا عملنا كالعبيد كي نبني هذا البلد من لاشيء. ضحّينا بشبابنا، بكل شيء، كي نبني ألبانيا اشتراكية. لم يسبق لأحد قبلنا أن بنى المدارس

والمستشفيات، والمعامل. كان البلد الذي ورثناه لا يزال في طور الخروج من العصور الوسطى، من الإقطاعية، ونحن جعلناه مُكتفٍ ذاتيا".

سألتها آنجيلا، التي كانت تحاول أن تبدو واقعية كي تخفي عواطفها، عن وضعها القانوني. "أنا سجينة سياسية". أجابت السيدة ماكبث. "حرمتني هذه الحكومة من حريتي طوال واحد وعشرين شهرا عبر تهم باطلة. إنه الصيف الثاني الذي أقضيه في حرّ هذه الزنزانة المنفردة. بل لقد منعوني في الأسابيع الأربعة الأخيرة من أي اتصال مع أولادي الثلاثة".

للمرة الأولى خلال المقابلة نظرت الأرملة في عينيّ آنجيلا مباشرة، كما لو كانت آنجيلا الممثل الرسمي للنظام الجديد. "تدَّعون بأنكم تؤمنون بالديمقراطية، لكنكم في الحقيقة معادون للثوار، تتصرفون مثل الديكتاتوريين، يجب أن تخجلوا من أنفسكم. اكتبي عن ذلك، عن الطريقة التي يعاملني بها ساسة هذه الديمقراطية". نطقت بالكلمة الأخيرة باشمئزاز من يبتلع دواء مرا. كانت يداها على خصرها، وعيناها تنظران بتلك النظرة الصارمة الثاقبة التي كانت آنجيلا تخشاها بشدّة.

هل شعرتْ بالندم لإعطائها الأمر بتعذيب وإعدام خصومها؟ توتّر وجهها. "لا". ثم كررت، "لا، إذ يجب على الدولة أن تحمي نفسها من أولئك الذين يخططون ضدها. لاشك أن ثمة تجاوزات حصلت" ثم هزت كتفيها بلا مبالاة، كما لو أنها أرادت القول "أمور تافهة لا تستحق الذكر".

لم تقل إن كانت قد شملت بين هذه التجاوزات إعلانها عن الجرم الشائن الذي جرى اختراعه حديثا، «التخريب، الخيانة، والدعاية». وهو جرم جرى تعريفه بصورة مبهمة بحيث كان من الممكن تطبيقه على أي فعل لم توافق عليه هي وأنور. بيد أن الشرطة السرية لم تكن مضطرة

لتصيّد المجرمين عندما كان أنور ونيكسمي خوجا في أوج سلطتهما، فقد تصيّد «المجرمون» بعضهم البعض. في كل عام، كان يتعيّن على كل مواطن أن يكتب تقريرا عن سيرته الذاتية، وأن يعدد أسماء الجيران، الأقارب، أو زملاء العمل المذنبين بجرم «التخريب، الخيانة، والدعاية». كان يُسمح لأولئك الذين فضلوا عدم اتهام الآخرين أن يتّهموا أنفسهم. وكان من الطبيعي أن يختفي الناس في معسكرات الأشغال الشاقة لعدة سنوات في كل مرة، كما كان من الطبيعي أن يتعرضوا للتعذيب.

لم تذكر أنه كان من المحظور التقدّم بطلبٍ للحصول على جواز سفر، أو قراءة كتب من قبيل رواية بوريس باسترناك **دكتور جيفاغو** ورواية جورج أورويل **1984**، في حين كانت الكتب الوحيدة التي تُدرَّس في المدارس هي الكتب التي ألفها أنور، والتي كانت تطبع بلغات أجنبية عدة في دور نشر كبيرة تملكها الدولة.

كما لم تذكر بأن أخبار الاكتشافات العلمية والاقتصادية **المزعومة** التي حققتها ألبانيا، «الأمة النموذجية وموضع حسد العالم» كانت تُبثّ حول العالم من إذاعة تيرانا.

أمور تافهة لا تستحق الذكر؟

«لعل إلغاء الدين كان أمرا مبالغا فيه»، اعترفت الأرملة أخيرا. "لم يكن أنور راغبا بتدمير الكنائس والمساجد. كانت تلك رغبة حلفائنا الصينيين، وهم الوحيدون الذين ساعدونا ماديا وعسكريا، كما كانت رغبة أعضاء الحزب الشبان الذين فرضوا عليه ذلك. لم نُرِد أنا وأنور سوى أن يحيا المسلمون والمسيحيون الأرثوذكس والكاثوليك بسلام جنبا إلى جنب. وقد كنا محقين في ذلك. أردنا أن يشعر الجميع بأنهم ألبانيون فحسب. انظر ما يحدث الآن في البلقان نتيجة الصراعات الدينية والأثينية. سَيُثبت

التاريخ أننا كنا على حق. لقد وصفتنا الدعاية الرأسمالية بأننا رجعيين ومنطويين. على العكس، سوف تدرك بأن رؤيتنا كانت رؤية حديثة".

ذكرتها بالأم تيريزا من كالكوتا، الراهبة الرومانية الكاثوليكية المولودة في ألبانيا، والتي قامت بعدة زيارات مثيرة للجدل إلى «عش النسور» الذي يربض فوقه أنور ونيكسمي خوجا. كما كانت الأم تيريزا ضيفا دائم التردد على نظام آخر سيء السمعة هو نظام دوفالييه في هاييتي. وفي كلا الحالتين، لم يكن لدى الراهبة القديسة المبجّلة سوى الابتسامات لمضيفيها، رافضة أن تتحدث عنهم أو عن أنظمتهم القمعية بالسوء. كان نظام الخوجا نظام ستاليني، فيما كان نظام دوفالييه نظام رأسمالي وفاسد.

قالت الأرملة، "لطالما كانت الأم تيريزا وطنيّة حقيقية، وألبانية عظيمة. بيّنت للعالم كيف يُساعد الفقير وكرّست حياتها للمعوزين دون أن تتدخل بالمسائل السياسية، تماما كما يجب على أي زعيم ديني أن يفعل. وبدل أن يفعلوا ذلك، يريد عديد من الزعماء الدينيين العبث بخيارات الناس. يريدون أن يلعبوا أدوارا سياسية. هذا بالضبط ما كان يحدث في ألبانيا قبيل إعلان الإلحاد، وهو ما يقولون لي بأنه يحدث الآن، بوجود كل هذه المنظمات الإسلامية التي تفتح مكاتب تجارية في ألبانيا ولا أحد يقدر أن يتتبع نشاطاتها الحقيقية".

توقفت الأرملة ونظرت في عينيّ مباشرة، "أنا لا أؤمن بالله، أنا ماركسية. أؤمن بالإنسان وبالشعب. بيد أننا أحببنا الأم تيريزا. فكما تعلم، أحست هنا بأنها في وطنها. جاءت بعقل منفتح ومدحت إنجازاتنا".

خيّم الليل في الزنزانة في مخفر الشرطة رقم واحد. تمّ استدعائي من

زنزانتي ومثلت أمام ضابط استجوبني من وراء مقعد جُلب مباشرة من قاعة صف. بدأ الاستجواب على الطريقة الستالينية القديمة وهي أن يُطرح السؤال ذاته عشر أو عشرين مرة أملا في أن يقع الموقوف في تناقض. "لقد تبعناك يوم ذهبت إلى إحدى القرى بعد مدينة فير. نريد لائحة بأسماء وكنى كل من تحدثت إليهم... نعلم بأنك لست صحفيا، بل جاسوسا على علاقة مع أعداء البلاد. لحساب من تعمل؟".

استجوبني، بداية، ضابط ودود، تبعه ضابط عدائي، وفي النهاية ضابط ودود آخر.

لاحظ أحدهم الصليب الذهبي الذي أضعه في سلسلة حول عنقي. "هل أنت مسيحي؟" "نعم". تبادلوا النظرات فيما بينهم. "نحن جميعا مسلمون". حوالي الساعة الثالثة فجرا قررت أن أفرض عليهم الأمر بالقوّة. "أنا مواطن أجنبي ولديّ الحق في أن أتصل بسفارتي. ليس لديكم دليل يؤكد أي تهمة ضدي. سأغادر الآن". وقفت وتوجهت إلى الباب. حاول جنديان إيقافي، تملصت منهما. لكن عند نهاية الرواق حرّر جندي ثالث صمام أمان مسدسه وصوّبه إلي فعدت إلى كرسيّ أمام الضابط الذي مزّق إفادتي كعقوبة لي. "لنبدأ ثانية من البداية. أخبرني اسمك، وعنوانك، ولحساب من تعمل بالفعل"؟

بعد مضي ساعة أخرى، في حوالي الساعة الرابعة صباحا علقوا الاستجواب. حيث أرسلوا بطلب شخص ما يقطن في مجمع سكني قريب عندما أدركوا أن لغتهم الإيطالية كانت غير جيدة كفاية كي يتابعوا.

كان رجلا ضئيل الحجم في حوالي الخمسين ذا وجه مغضّن وعينين زرقاوين حزينتين. صافحني الرجل وقدّم نفسه بأنه "رودلف كاركو، أو بالأحرى رودولفو كاركو. أنا إيطالي، لكني ولدت وترعرت في ألبانيا.

هل أنت مهتمّ بقصتي"؟ ـ "بالتأكيد" قلت قبل أن أضيف بينما نظرت إلى الحراس "لكنهم قد لا يوافقون..." "لا تقلق، سيوقفوننا حالما يكونون جاهزين ليطرحوا عليك مزيدا من الأسئلة".

وهكذا حكى لي رودولفو عن حياته كإيطالي "تائه". "عندما انتهت الحرب، كانت والدتي المسكينة، كارولينا كوماتشي، التي لا تزال على قيد الحياة وهي الآن في المنزل تنتظر عودتي، من بين الذين قرروا البقاء. طبعا، لم نتخيل قط ما كان سيحدث".

تلفت رودولفو حوله. "تنحدر والدتي المسكينة من إحدى أعرق العائلات في مدينة بولونيا، عائلة كوماتشي. أحبّت رجلا ألبانيا وتزوجته رغم معارضته عائلتها. كان والدها مدير تحرير صحيفة فاشستية أسَّسها موسوليني في ألبانيا خلال الاحتلال الإيطالي. كانوا أغنياء". فَرَكَ إبهامه وسبابته بتلك الإيماءة الإيطالية التي تدل على «المال، الكثير من المال». "بيد أن البلد صار شيوعياً بعدئذٍ. جعلونا نغيّر أسماءنا، وصادروا جوازات سفرنا التي تحمل شعار السافوا الملكي ولم نقدر على تجديدها إذ كان من غير المسموح أن يقترب المرء من السفارة. كانت السفارة في الحي الدبلوماسي ولم يكن بمقدور المواطن العادي أن يمشي في شوارع المنطقة فما بالك أن يدخل سفارة أجنبية. اضطررنا بعدئذ للتأقلم مع الحياة والعمل اليوميين". توقف وتأمل وجهي متفحصا ومؤكدا لنفسه بأنني أفهمه وأتعاطف معه. "باختصار، استسلمنا للوضع، وها نحن لا نزال هنا".

اقترب رودولفو مني. لا يزال بوسعي أن أتذكر أسنانه المصفرّة، وعينيه المليئتين بالخوف، ولغته الإيطالية القديمة. "لا تقلق، دكتور ريكاردو. ستخرج من هنا عاجلا، فكثيرا ما انتهى بي المطاف في هذه الزنزانة، فقد ورد اسمي في كل لائحة للمشبوهين لمجرد أنهم كانوا

يعرفون بأني لست ألبانيا فعلا. وفي كل مرّة كنت أسجن في هذه الزنزانة لعدة أيام. صرت أعرفها جيدا فنحن صديقان قديمان. ابتهج، دكتور ريكاردو، فأنت أجنبي، إيطالي، إيطالي حقيقي ومعك جواز سفر ساري المفعول. أنا واثق أنهم سرعان ما سيطلقون سراحك وستعود إلى الوطن، بينما لا أقدر أنا أن أغادر ألبانيا، ولا حتى الآن وقد صار عندنا ديمقراطية". قلت له محاولا أن تكون كلماتي مشجّعة، "شكرا على كلماتك اللطيفة. لكن لعل بمقدورك الآن أن تستعيد مواطنيّتك، بل وبمقدورك أن تصبح حرا".

نظر إلي رودلفو نظرة حزينة. "قد يمنحوني جواز سفر ذات يوم، لكنني ما عدت أريد أن أتقدم بطلب للحصول عليه. إذ كيف لي أن أترك والدتي العجوز ورائي؟ لم يعد لديها أقرباء في إيطاليا كما أنها عجوز جدا. لقد خسرنا وفازت ألبانيا وسنموت سجناء فيها".

في اليوم التالي لمقابلتي مع الأرملة التقيت إيركام، أستاذ للّغة الفرنسية يبلغ الخامسة والعشرين من عمره. عيناه حادتان، ويرتدي سترة من الدنيم تبدو ضيّقة عليه. فاجأني في البداية بأنه مثقف معارض لحكومة بيريشا، إلا أنه كان، على الأرجح، واحدا من رجال شرطة بيريشا جرى تجنيده مؤخرا في صفوف المعارضين لخوجا.

ذات مساء كنا نتمشى، مثل بقية الناس، حول ساحة سكاندربرغ، «حوض الأسماك الذهبية» لألبانيا. فيما مضى، كان يطل على الساحة تمثال برونزي هائل لسمكة القرش الكبيرة، أنور خوجا، إلى أن جاء يوم 22 آذار 1990 عندما أسقطه بمساعدة الكابلات، ودمره نفس الناس الذين كانوا قد اصطحبوا أولادهم في اليوم السابق مباشرة لكي يضعوا الزهور

عند قدمه اليمنى العظيمة. لم يعترض رامز عليا، خليفة خوجا المختار، على تدمير التمثال. بل كذلك وبوصفه رئيس الدولة الجديد، وفي حين كانت باقي أنظمة الكتلة الشرقية تنهار واحداً تلو الآخر، ادعى الدوفين السابق أنه لا يعرف القرش الكبير. حتى أنه قام ببعض الإصلاحات كيما يتفادى انهيار النظام. بيد أن إصلاحاته كانت إصلاحات تافهة جدا، ومتأخرة جدا. اعتبره معظم الناس بمثابة ألعوبة بيد الأرملة، وهكذا فاز بيريشا بالانتخابات وانتهى المطاف برامز عليا في السجن.

بدا التحري الجديد الذي يراقب حوض الأسماك الذهبية نسخة طبق الأصل عن الشرطة السرية السابقة.

عندما مررنا بجانب متحف التاريخ السابق في نهاية دورتنا الخامسة حول الساحة، أوضح إيركام بأن الألبانيين لم يعتبروا قط «العم أنور» بمثابة أخ أكبر أورويلي، بل اعتبروه بأنه الفرعون خوفو. "لقد عرف الفرعون، كما خوجا، كيف يستحوذ على السلطة حتى بعد مماته، من داخل قبره. أي من الهرم. ولهذا السبب لدينا أيضاً هرمٌ في تيرانا".

بالفعل، كان البناء الذي يُعرف رسمياً بضريح أنور خوجا على شكل هرم. شيّدته الحكومة في منتصف الثمانينات على جانب الطريق العام في تيرانا، الذي كان اسمه جادة موسوليني، ثم جادة ستالين، وأخيراً جادة الشهداء. هناك جرى تشييد الهرم ليكون جوهرة فن العمارة الألبانية.

لم تبخل أفقر دولة أوروبية بالتكاليف. فعلى مساحة ثلاثة طوابق دائرية متراكزة مكسّوة برخام كارارا عُرضت مخطوطات وصور أنور إلى جانب ممتلكاته الشخصية مثل مناديله، أحذيته، ومناظيره. بل وعرضت أيضا البزّات الموصى عليها التي اشتراها أنور من باريس في الثلاثينات. كانت تلك ملابس شاب موسر اختار المنفى بعد تخرجه من

المدرسة الثانوية الفرنسية في غيروكاستر، في جنوب ألبانيا المطلّ على المتوسط.

ثمة فيلم تلفزيوني قصير كان يعيد التلفزيون بثه **إلى ما لا نهاية،** يظهر فيه أنور عند تدشين الهرم، تصحبه نيكسمي وهي ترتدي ذات البلوزة المنقّطة وشعرها المعقود على شكل كعكة. وكعادتها دوما، كانت نيكسمي وراءه بخطوة كدلالة على الاحترام على الرغم من أن الجميع كانوا يعلمون أنها هي من كانت تُصدر الأوامر.

ثمة دكان صغير يبيع الكتب. بعضها ألّفه خوجا مثل كتابه المشهور **الشيوعية الأوروبية معادية للشيوعية والإدارة الذاتية اليوغسلافية: نظرية وتطبيق رأسماليين.** ظل الكتابان مقرران في جميع مدارس البلاد حتى عام 1990. وثمة كتاب آخر ألفه رامز عليا عام 1990. عنوانه **أنورنا،** يصف أنور بأنه "رجل وهبه الله طاقة جسدية وعقلية خارقة". ويتابع ليقول "بما أنه محلل نفسي عظيم، فقد وجد خوجا طريقة للنفاذ إلى عقول الناس، فحرّرها من الجبن، وخلق الشروط الأساسية لتحفيز عمليات الفكر".

اشتريت إحدى النسخ الأخيرة. وبعد عدة شهور أُغلق الهرم بناء على أوامر الفرعون الجديد.

لم تحب الأرملة الهرم، ورأت بأنه كان خطأ. أخبرتني، خلال مقابلتي معها في السجن، بأن أنور لم يُرد بناء الهرم، إلا الذين من حوله هم من أراد ذلك، كما حصل عند التأسيس الرسمي لدولة ملحدة.

لم تفهم الأرملة بأن إسماعيل كاداره يصف بهذه الطريقة بالضبط سير الأحداث في بلاط خوفو الملكي ساخرا من الحكومة الألبانية في

روايته التاريخية الساخرة **الهرم**. ففي النهاية يخضع خوفو بدون رغبة للأمر، إذ لا يريد أن يفكر بموته، لمشيئة كبير الكهنة هيميونو، الذي يصف الهرم ـ القبر المستقبلي بأنه "العمود الذي يُعلي من شأن الحكم، فإن تمايل هذا العمود ينهار كل شيء".

كرهت نيكسمي الهرم إلى درجة أنها كذبت حتى فيما يتعلق ببنائه، مُنكرة موافقة أنور المترددة على بنائه. في السجن قالت لي بأن "الحكومة بَنت الضريح بعد وفاته. كما بدأت عبادة الشخصية بعد وفاته أيضا. لم يكن لأنور، أو لي، علاقة بالأمر".

لا شك أن عبادة الشخصية أُقيمت على أسس راسخة في الستينيات. وبحلول الثمانينيات، عندما بدأ بناء الهرم، كانت قد وصلت إلى مستوى كوميديا رفيعة.

بعد سقوط رامز عليا، قرر بيريشا، الذي أحس بالقلق حيال عبادة من هذا القبيل، تحويل الهرم إلى مَرقص. في البداية، لم تعرف حكومته «الديمقراطية» الجديدة ما الذي يمكن أن تفعله بالبناء. كان هدمه أمرا خطرا، كما كان إبقاؤه مفتوحا أمر مستحيل. كانت فكرة بيريشا أن يحوّل البناء الذي استُخدم لقمعهم إلى مكان لتسليتهم. بيد أن الهرم أُغلِق بعد عدة سنوات، بعد أن ثَبُتَ أن صيانته مكلفة جدا وأنه كان مسكونا بكثير من الأشباح التي حالت دون أن يتحول إلى مكان للّهو.

لطالما لعبت الصروح والنُّصُب التذكارية دورا رئيسا في نظام خوجا. داخل زنزانتها، سألت نيكسمي إن كانت تعلم بأن جميع تماثيل زوجها وتماثيل ستالين هُدمت. "نعم، أعلم ذلك كله. كما أعلم أن القمامة لم تعد تُجمع، وبأنه يجري إغراق البلاد بسيارات كان أي بلد آخر ليرسلها إلى مناطق تجميع الخردة. سيارات مسروقة. أعلم بأن المصانع

أُغلقت، وبأن هذه التي يدعونها ديمقراطية دمرت جميع التقاليد في القرى. وبأن الناس لم يعودوا يعملون في الحقول...". لكن، قلت مقاطعا، ثمة صحافة حرة. نظرت الأرملة إلي بازدراء، "ألبانيا تسير على الطريق الخطأ، صدقني". ثم ابتسمت بثقة.

بيد أن الابتسامة اختفت لدى ذكر الصرح الآخر الذي لا يزال حيا، إسماعيل كاداره. فرّ الكاتب المشهور إلى باريس بعد عدة شهور من وفاة أنور. وعلى عكس أبناء شعبه الألبان، تمتع إسماعيل كاداره بامتياز كان كافيا ليحصل على جواز سفر. وما إن صار كاداره في المنفى حتى أظهر بأنه معارض متحمس. فهل كان خائنا؟

للمرة الأولى خلال المقابلة تتردد الأرملة السوداء. لقد بيّن كاداره المثقف للعالم بأن ألبانيا ليس ذاك البلد الغريب كما يصورها أعداؤها. لم يكن بمقدور الأرملة أن تتجاهله تماماً، ولذلك اختارت الدبلوماسية. "لم أعد أعتبره صديقا، فقد كتب أشياء فظيعة عن زوجي، على الرغم من أننا عاملناه كأخ طيلة عشرين عاما. ومع ذلك، يظلُّ كاتبا عظيما، وليس بمقدوري أن أُنكر ذلك".

انتهى التحقيق في مخفر الشرطة رقم واحد صباح اليوم التالي. غادر رودولفو حزينا. قال لي "تذكّرني وتذكّر والدتي"، ثم أضاف "لابد أن قراءة الأخبار من شتى أنحاء العالم، ومعرفة من توفي ومن لا يزال حيا، من يُصدر الأوامر ومن يطيعها، ومعرفة إن اندلعت الحرب أو حلّ السلام أمور تبعث في النفس شعورا عظيما بالرضى". ثم انتقل إلى صيغة الخطاب الرسمية الفاشية ـ **"أنتم"** بدلا من **"أنت"**، التي كان يستخدمها عندما كان لا يزال يعتقد نفسه إيطالي يعيش في تيرانا. كان

كلامه كلام رجل أمضى كثيرا من الليالي داخل زنزانة ويعرف بأن الحقيقة نادرا ما تَرِدُ في محضر الشرطة "أنتم محظوظون سيد ريكاردو. فبمقدوركم أن تستيقظوا صباحا وتعرفوا كل ما يجري، حتى وإن قالوا بأن «لاشيء جديد»".

كانت تلك فكرته عن الديمقراطية، ومنذ ذلك الحين صارت فكرتي أيضا. أكمل رودولفو سلامه كما لو كنا نفترق عقب حفل استقبال دبلوماسي أنيق. "سأبلغ والدتي، كارولينا كوماتشي، أمنياتكم الطيبة. لا بد أن أخبرها عنكم".

عندما خرجت من مخفر الشرطة رقم واحد عقب إطلاق سراحي، وجدت موظفة من السفارة الإيطالية تنتظرني في سيارة مع سائق كان محركها يدور. قالت لي "يريد السفير أن يراك".

استقبلني السفير وقدّم لي شرابا باردا. بيد أن مظاهر الحفاوة توقفت عند هذا الحد، إذ لم يكن مسرورا مني. الحق أنه كان يستشيط غضبا بشأن الحادث الذي هدد بتدمير علاقته بالديمقراطية الألبانية الجديدة العظيمة. "قضيت الليل بطوله أتحدث إلى الرئيس على الهاتف. لقد أثار لقاؤك مع الأرملة حفيظة الكثيرين. لكن أقنعته في النهاية بألا يطردك، إلا أني اضطررت بالمقابل أن أقبل نيابة عنك أن تغادر البلاد فوراً، على متن أول رحلة جوية إلى روما".

أقلّتني الدبلوماسية الشابة التي اصطحبتني من مخفر الشرطة إلى فندق تيرانا لكي أوضب حقيبتي. كانت الشرطة السرية قد فتّشت غرفتي، واختفت الملاحظات التي أخذتها. وفي طريقنا من الفندق إلى المطار مررنا بالسجن الذي يخضع لحراسة مشدَّدة. كان ثمة حشد جديد يقف خارجا في الشمس الحارة. كانوا أقرباء لأولئك الذين اعتقلوا الليلة الماضية.

أُطلق سراح الأرملة بعد ثلاث سنوات. وقبل ذلك بفترة قصيرة عَرَض عليها سالي بيرشيا أن يخفّض حكمها إلى عامين لتشارك في احتفال تأسيس الحزب الديمقراطي، كما في السابق، بيد أنها رفضت توقيع الأوراق، وكتبت إلى ابنها قائلة "لا تغضب مني. لا أحتاج أي مِنّة. لم أستطع إلحاق إهانة بأنور".

ظلّت الأرملة حتى آخر يوم قضته في السجن تستقبل أعدادا كبيرة من الألبان القادمين من كوسوفو. كان هؤلاء يصلون إلى الحدود، ومعهم جوازات سفرهم اليوغسلافية عند منتصف الليل كي يصلوا تيرانا فجراً ليعودون في الليلة ذاتها عبر الممرات الجبلية بعد أن يكونوا قد قضوا وقتا هادئا في زنزانتها. كانت تلك الزيارات شبيهة برحلات الحج. فبالنسبة لهؤلاء الناس، كانت نيكسمي إلهة حيّة.

لم تغيرها خمس سنوات قضتها في السجن. فبعد إطلاق سراحها بوقت قصير قبلت دعوة من الخارج. وأثناء مخاطبتها لحشد من «أصدقاء ألبانيا ورفاقنا في عقيدتنا اللينينية الماركسية» في بروكسل، عدّدت الأرملة الفوائد التي جلبها النظام: تحرير النساء، وبناء المدارس وشق الطرق، ومحاربة الأمية. "لم يعد للطبقة العاملة وجود في ألبانيا. ثمة عديدٌ من العاطلين عن العمل، ثمة بروليتاريا عظيمة، بيد أن الطبقة العاملة اختفت. لقد دمرت قوى الرجعية النظام الاشتراكي في ألبانيا بوحشية بربرية. كما دمرت صناعتنا وثروتنا".

لم تَتُب هذه المرأة «المثالية» الهرمة، فهي لا تزال تظنّ أن التاريخ يبيّن أن أنور كان على حق، وبأن الماركسية كانت أيضا على حق، وبأن هذا النظام الجديد المدعو ديمقراطية هو لعنة. لا تفتأ تعيد وتكرر بأن ما

كان في أيامها «عشا للنسور» يملؤه الفخر والاعتزاز غدا الآن فوضى مدمِّرة يسودها الفقر والمادية، والخضوع للمصالح الأجنبية، والجريمة، وتهريب المخدرات، والمحاكاة المُذِلَّة للثقافات الأخرى. كما أنها ترفض الخروج وتفضل العيش مختبئة بعيدا عن أعين الناس في منزل متواضع في تيرانا قريب من منزل ابنها إلير، "لا أريد أن أراها، لا أريد أن أراها". تكرر قائلة. ولسنا بحاجة لأن نحدِّد ما هو الشيء الذي لا تريد أن تراه.

فبعد حياة كاملة قضتها بمعزل عن الحقيقة، أولا كحاكمة مُطلَقَة تسكن في «الحي المحظور» الغامض في تيرانا، ثم كمعارضة جسورة تقرأ الفلسفة الفرنسية في زنزانة داخل سجن، لا تقدر هذه الأرملة إلا أن تعيش وحيدة، بعيدا عن تلك البروليتاريا التي أحبتها كثيرا.

عدت إلى تيرانا في نهاية نظام سالي بيريشا. كانت فضيحة مشروع استثمار الهرم سيء السمعة تهز المدينة. فقد أقنع عدد من الشخصيات المنظرانية ـ ساحرة، وجنرال متقاعدٌ، **ورجل مافيا** كوسوفي ـ الناس باستثمار مدخراتهم التي وصلت في مجموعها إلى عدّة ملايين من الدولارات بأن وعدوهم بمعدلات فائدة عالية جداً. حيث كانت الفائدة تُدفع من عملية جمع المال المستمرة. إلى أن انتهت مبالغ كبيرة من المال في جيوب الساسة. وكانت البلاد على حافة أول إفلاس تتعرض له.

جرى استدعاء هيئة دولية من مدققي الحسابات للضرورة القصوى التي ينطوي عليها الأمر. وصل قرابة اثنا عشر رجلا في الثلاثينيات من أعمارهم يرتدون ثيابا أنيقة قادمين من مكاتبهم في لندن، فيينا، وروما. وعلى مدى عدّة شهور، فتّش هؤلاء سجلات الشركات المالية الزائفة التي

كانت وراء المضاربات. وبما أن الفنادق كانت مكتظّة ولا توفر الخصوصية اللازمة، وضَعت الحكومة هؤلاء المدققين في البناء الوحيد الذي توجد فيه غرف شاغرة، وهواتف، وأثاث فخم: الڤيلا السابقة لعائلة خوجا، في الحي المحظور من تيرانا.

قابلني رئيس المدققين في غرفة نومه. كان حاسوبه النقال موضوعا على السرير غير المرتب وكانت ملابسه ملقاة على أرض الغرفة. التي كانت فيما مضى غرفة إلير ابن أنور: غرفة مفروشة بأثاث متواضع من طراز الخمسينيات تدلت على جدرانها لوحات مزخرفة برتقالية وخضراء على الطراز السوفييتي تُظهر لقاءات سياسية على أرضيات المصانع، وقرويين يعملون في الحقول ويقودون جرارات زراعية تقف شامخة. كانت تلك اللوحات تُظهر ألبانيا المزعومة: مستقرّة وتقدمية.

أما البيوت المجاورة التي كانت ملكا لكهنة البلاط السابقين فقد استولت عليها منظمات دولية مختلفة تدخل ألبانيا للمرة الأولى.

عقب زيارتي ببضعة أسابيع انهار بهدوء ما بقي من أهرامات المال. تم تهريب الأموال إلى الخارج وأُغلق الهرم الرخامي. كان الدكتور سالي بيريشا يواجه هزيمة، تحوّل البحر الأدرياتيكي إلى طريق عام مأساوي لتجار البضائع البشرية من مهاجرين غير شرعيين. وكانت قد توفيت الأم تيريزا، الراهبة المؤيدة لخوجا ودفالييه التي عاشت حياتها بين المنبوذين في كالكوتا، بيد أن مؤسستها الدينية حصلت على الحق بافتتاح فرعٍ لها في تيرانا، بجانب مؤسسة خيرية إسلامية. أما الرجل الذي حماها سابقا، جان كلود دوڤالييه، فقد كان في منفاه في جنوب فرنسا. كان الحزب الاشتراكي الألباني الذي أسسه أنور ونيكسمي خوجا عام 1944 على وشك أن يُعاد إلى السلطة بشكله الجديد، المعتدل، التقدمي والمؤيد

لأوروبا. تلقيت رسالة من رودولفو تقول. "أعظم مشكلة نواجهها هي على الصعيد المالي بيد أننا نحلم بغد أفضل. التاريخ أفضل معلم لنا. والدتي كارولينا كوماتشي ترسل لك تحياتها".



دوڤالییه

تدلت فوق رأسه صورة بابا دوڤالييه، وصورة البارون سامدي. كان يرتدي البزّة السوداء الفاحمة الخاصة بالجنازات، ويختلس النظر إلينا بعينين بحسر النظر خاليتين من أي تعبير مصابتين من خلال عدستي نظارتيه الثخينتين. أُشيع عنه بأنه شاهدَ شخصيا الموت البطيء لضحيّة من التونتون. فلم تتغير هاتان العينان، إذ كان اهتمامه بالموت طبيا على الأرجح.

من الكوميديون لــ غراهام غرين

"آن الأوان كي أروي حقيقتي، وحقيقة عائلتي، وحقيقة هذا الاسم الشهير الذي ولدت به. دعني أبدأ بقصة وصولي إلى الحكم، لأن هذه القصة بحدّ ذاتها توضح العديد من المفاهيم الخاطئة التي تتعلق بي. إذاً.... كنت مجرد شاب عادي في التاسعة عشر من العمر، طالب، كحالنا جميعا. حسن.... كحال معظمنا. نعم، هذا صحيح، عشت في القصر الوطني، البناء الأبيض الكبير بأعمدته الإغريقية في وسط بورتو برانس. عندما كنت في التاسعة عشر من عمري عندما كنت أنام في الغرفة الصغيرة التي كانت غرفتي منذ أن كنت طفلا، بسريرها المفرد، وخزانتها الصغيرة، وبعض الأشياء القليلة إنها الغرفة ذاتها التي أعطونيها في السابعة من عمري عندما انتقلت عائلتي إلى القصر عقب انتخاب والدي للرئاسة. ظلّت هذه الغرفة غرفتي حتى بعد أن أصبحت رئيسا. أحببت تلك الغرفة، وكنت بغنى عن كل شيء آخر. لم أتركها إلا بعد عدّة سنواتٍ عندما تزوجت.... وأردت أن أُرضِي ميشيل التي كانت لديها... أفكار أعظم. تركت غرفتي مترددا. في الواقع، كنت مترددا حتى عندما استلمت الحكم".

"كنت مولعا بالبابا. كنا مقرّبين جدا من بعضنا. كان يهتم لأمري كثيرا، ويُعطيني مصروفا للجيب كل أسبوع، لكنني كنت أعطيه دوما للفقراء. هذه طباعي كما تعلم، فأنا بطبيعتي كريم وغير أناني. كان عمري أربع سنوات ونصف عندما شهدت أول محاولة للإطاحة بوالدي: رأيت رجال الشرطة المسلحين يركضون في القصر وكان فرانسوا دوڤالييه يرتدي خوذة عسكرية ليحمي رأسه. عندما بلغت الثالثة عشر بدأ بإعطائي كتبا لتثقيفي: السيرة الذاتية لماوتسي تونغ، وجمال عبد الناصر، وجواهر لال نهرو، وتشانغ كاي ـ شك، وديغول. أرادني أن أتعلَّم منهم. في المساء، بعد أن كنا ننتهي من العشاء، كان يحكي لي عن روما القديمة، عن نظامها السياسي وأهمية أن نُقلّده. تركتْ هذه الأحاديث علامة لا تمحى على تفكيري. ومنذ ذلك الحين صارت لي **علامتي الخاصة**".

"استدعاني إلى مكتبه ذات يوم وكان محاطا بمستشاريه الذين يثق بهم. عرفت أن ثمة أمر ذو أهمية خاصة حتى قبل أن أدخل الغرفة. قال لي [تونتون]. نعم، هذا ما دعاني به. [أيها الصغير]. [تونتون، لابد أن تُحضّر نفسك، فسرعان ما سأرحل عن هذا المكان، ولابد، خدمةً للثورة، أن تحل محلي بوصفك وريثي الوحيد]. أجبته بأني لستُ مهتما ولا جاهزا. ألحّ علي قائلا: [صار القيصر أغسطس إمبراطورا عندما كان في التاسعة عشر من عمره، ألا تذكر؟ فكر بالبسطاء، بشعبنا. هل تريد لعملي أن يذهب سدى؟] أجبته، [كلا]. بعدئذ سمح لي بالانصراف. لم يأت على ذكر هذه المسائل لبعض الوقت. ثم ـ **بووم** ـ عندما حلّ موعد الاستعراض العسكري بتاريخ 18 تشرين الثاني عام 1970، أمرني أن أسير على رأس القوات. وفي الأول من كانون الأول، ألمحَ في خطابه بمناسبة يوم

الاستقلال إلى حاجة النظام لشبّان في الرئاسة. آنذاك شعرت بأن الوقت يقترب".

"توفي والدي بعد عدّة شهور فقط. كان ذلك مساء 21 نيسان عام 1971. لن أنسى تلك الليلة ما حييت. بدت وكأنها لن تنتهي. لم أحلف اليمين إلا بعد منتصف الليل بعشر دقائق إذ انتظر مستشاروه حتى يوم 22 نيسان كي يُعلنوا وفاته. كان الثاني والعشرون يوم سعد والدي. كنت في التاسعة عشر من عمري غدوت رئيسا أبديا لهاييتي. نعم، هذا صحيح: قبل ذلك ببضعة شهور فحسب كان القانون ينصّ بأن الحدّ الأدنى للسن لتولي رئاسة الدولة هو أربعون عاما، ثم تم تخفيضه إلى عشرين عاما بعد استفتاء شعبي. لم أكن قد بلغت العشرين آنذاك، بيد أنه كان لابد من حماية الثورة".

"تذكّرت خلال تلك الليلة كتب التاريخ التي تتحدث عن ديغول والقيصر أغسطس. كان شعب هاييتي البسيط، أولئك القرويون السود الذين يعيشون في فقر، بحاجة لمن يدافع عنهم. كانوا بحاجة إلى بابا دوڤالييه جديد. وكان القدر قد اختارني لألعب ذاك الدور، أنا جان-كلود دوڤالييه".

باريس. جادة الإليزيه. سيّاحَ يابانيون وأمريكيون يتهادون على طول الأرصفة العريضة وأعينهم تنظر بثبات إلى قوس النصر. ضربت موعدا مع ڤيرونيك روا كي ألتقيها في حانة فندق الميتروبول. الوقت منتصف العصر. جلست إلى طاولة قهوة محاطة بمرايا على طراز عصر الباروك. وعلى الرغم من أن الوقت لم يكن مناسبا، إلا أن ثلاثة كروات يرتدون قمصانا كانوا يلتهمون بنهم أطباقا مزدوجة من السباغيتي

ويتبادلون النكات مع مجموعة فتيات يرتدين تنانير قصيرة.

وصلت ڤيرونيك بمفردها، أنيقة، ترتدي حذاء بكعب مستدق الطرف. صديقة جان ـ كلود دوڤالييه، هذه فرنسية من جهة والدها، وإيطالية من جهة والدتها. وجهها جميل يشبه وجوه نجوم السينما في الستينيات. كانا قد التقيا على شاطئ الريفيرا الفرنسية منذ عشر سنواتٍ خلت، عندما كان «الرئيس الأبدي» لا يزال يقصد المطاعم الفاخرة ويسافر في سيارات مرسيدس يقودها سائق. كان منفاه آنذاك لا يزال منفى مذهّباً، بيد أن زواجه من الحسناء ميشيل بينيت كان يفقد بريقه.

حدث ذلك حوالي العام 1990. كانت أنظمة الكتلة السوفيتية تنهار في أوروبا. وفي البلقان كان سلوبودان ميلوزوڤيتش يستهل عشرة أعوامٍ من الحروب والدمار الشامل. كما كانت عائلة دوڤالييه تخوض صراعاتها، شديدة الخصوصية. فقد كانت ميشيل، التي أشرفت على الإنفاق حتى خلال السنوات التي قضوها في بورتو برانس، لا تزال المسؤولة عن الموارد الماليّة للعائلة، بيد أنها لم تكن تهتم بسمعة العائلة. ولذلك انسحبت عندما تضاءلت مدّخرات العائلة نتيجة الإنفاق الزائد. وتزايد إحساسها بالخزي بينما ظهرت تفاصيل أخرى تتعلق بماضي عائلة دوڤالييه. بيد أنها لم تذهب أبعد من مدينة كان، حيث تعيش الآن على بعد كيلو مترات قليلة من الڤيلا المستأجرة التي عاشت فيها مع جان كلود ذات مرة. وتقول الإشاعة بأن لرفيقها الجديد اسما مبهما ورصيدا مصرفيا ضخما، على عكس بيبي دوڤالييه.

لقد وقفت الشابة ڤيرونيك روا إلى جانب دوڤالييه وساندت قضيته عندما كان يمر بوقت عصيب. كانت إلى جانبه أثناء طلاقه من ميشيل، والأهم من ذلك، بعد طلاقه منها، عندما بدا بأن المبلغ المقدر بـ 300

مليون دولار والذي نُقل خارج بورتوبرانس قبل سنوات قد اختفى (تزعم الحكومة الهاييتية بأن المبلغ يقارب 900 مليون دولار).

لا تزال كيفية اختفاء هذه الأموال لغزا غامضا. ذهبت بعض الأموال إلى ميشيل، التي أدارت عملية الطلاق القانونية كما أدارت الاقتصاد الهاييتي في الماضي، حيث كانت تتحقق من أنها على علم بكل دولار صرفته. أما ما تبقى من الحسابات المصرفية فقد جمَّدتها المحاكم البريطانية والسويسرية بناء على طلب الحكومة الهاييتية. وهكذا، كان دوڤالييه مجبرا في عام 1992 على بيع ملكيته الوحيدة، قصر تريمريكور في فالدويز، والانتقال إلى بيت صغير في جنوب فرنسا، حتى أنه تخلف ذات مرة عن دفع الإيجار. كما قطعت فرانس تيليكوم خطّه الهاتفي. وفي عام 1994 كان دوڤالييه **مفلسا**، أو على الأقل هكذا وصفه أكثر الموالين له إخلاصا، سائقوا سيارات الأجرة الهاييتين في باريس، رجال تونتون ماكوته السابقون الذين اختاروا، بعد تفكير، العيش في الخارج بعد سقوط دوڤالييه.

بعدئذ تدهور الوضع بسرعة، وبدأت تظهر في الصحافة الفرنسية تقارير تفيد بأن الحكومة التي ساءها أن تلعب دور المضيف لديكتاتور سيء السمعة أرادت أن تتخلص منه. استجاب دوڤالييه إلى ذلك بأن طلبَ اللجوء السياسي، لكن طلبه رُفض. بعد ذلك طالبت لجنة من المنفيين الهاييتين تؤيد محاكمته لـ«جرائم ضدّ الإنسانية» بأن يتم طرده على أساس أنه **مهاجر غير شرعي**، مثل آخرين غيره لا حصر لهم ولا عدد. لكن الحكومة الفرنسية التي زاد من هذا الوضع ارتباكها أعلنت أنها كانت ستستجيب للطلب لو لم تكن قد "فقدت كل أثر" للديكتاتور السابق.

حافظت ڤيرونيك على رباطة جأشها وبقيت معه. وطوال عدة سنوات

لم يحظيا بمستقر دائم بل كانا مجبرين على العيش متنقلين. استأجرا شققا في فيلفرانش سورميه، ونيس، وغراس وفي الفترات الزمنية التي كانت تفصل انتقالهما من شقة لأخرى، كانا ينزلان في الفنادق باسم السيد والسيدة فاليري لفترات تمتد عدة أشهر في كل مرّة. كانت الحجوزات تتم عن طريق شركة آي إي آر التي تمتلكها فيرونيك، بيد أن الفواتير لم تكن تُدفع بانتظام. وعندما كان يحدث ذلك، كانت المساعدة تأتي من أصدقاء هاييتين قدامى مثل فرانك بيير من ميامي بيتش، رئيس منظمة سياسية تحمل اسما مشؤوما هو كابوا لامور، وهو نفس اسم جنرالٍ هاييتي ثائر مشهور قام، خلال ثورة العبيد السود التي اندلعت في نهاية القرن الثامن عشر، بذبح عدد لا يحصى من المستوطنين الفرنسيين. أصبح هذا الجنرال بطلا بالنسبة لشعبه لأن السود، بفضل أمثاله، دحروا الجيش النابليوني العظيم وأعلنوا عام 1804 أول جمهورية للسود في التاريخ البشري.

انتهت الآن أزمة بيبي دوڤالييه المالية. فقد سُوِّي وضعه القانوني بفضل قانون العفو الذي أفاد أيضا الآلاف من المهاجرين الأفارقة، كما دُفِعَت جميع الفواتير. وبحسب بعض الجماعات المعارضة فإن أحد المصارف السويسرية رفع الحجز عن مبلغ تافه (يُقدَّر بأربعة ملايين دولار) لأن الحكومة الفوضوية في بورتوبرانس توقفت عن المطالبة بالمال بعد أن فاتتها بعض المواعيد الأخيرة للمطالبة باسترداده. وبعد أن سُدِّدت الديون فإن المبلغ المتبقي يسمح له بالتقاط أنفاسه والعمل للمستقبل بالرغم من أنه لا يكفيه للعودة إلى الحياة المترفة التي عاشها في الماضي.

ڤيرونيك هي العقل المدبر وراء الصورة الجديدة التي يظهر بها بيبي دوڤالييه. لقد أعادت تنظيم حياته، بدءا بمصاريفه وصولا إلى صداقاته،

كما أعادت علاقته السياسية بمؤيديه في المنفى، وأقنعته بالإقلاع عن مشروبه المفضل، الويسكي مع الكوكاكولا. لقد بدَّدت الاكتئاب الذي كان يهدد حياته. كما يقول بعض أصدقائه.

تبدو ڤيرونيك وهي تتحدث مثل مدير شركة ناجح بينما تجلس إلى طاولة منخفضة في فندق الميتروبول. تُخرج أوراقا من حقيبتها وتستخدم ضمير المتكلم بصيغة الجمع، "إننا مشغولون جدا في الوقت الحاضر. اجتماع تلو آخر". تبتسم بثقة. "لكن لا تقلق، سيصل الرئيس في أي لحظة".

وصل دوڤالييه إلى فرنسا صباح السابع من شباط عام 1986 على متن طائرة تابعة لسلاح الجو الأمريكي. وعندما حطّ في مطار غرونوبل، حيث كانت درجة الحرارة تحت الصفر، وجد بانتظاره وزير الداخلية ومعه فيزا من رئيس وزراء فرنسا آنذاك، لوران فابيو. كانت الفيزا تسمح له بالبقاء لمدّة أسبوع واحد فقط «إلى أن تتقرر وجهته المستقبلية». من الواضح أن فابيو كان يأمل أن توافق إحدى الدول الإفريقية المضطربة، ليبيريا أو زائير مثلا، على إعطاء دوڤالييه لجوءا سياسيا في سعيها الحثيث لنيل رضى الحكومة الفرنسية، بيد أنه كان مخطئا.

كان بصحبة جان كلود دوڤالييه في ذاك اليوم زوجته ميشيل بينيت ووالدته سيمون دوڤالييه. كان واقعاً تحت سيطرتهما، يخشاهما، ويحبهما.

لم يكن ثمة ودّ بين المرأتين. "كانتا تنتميان إلى جيلين مختلفين. كان ثمة... احتكاك،" يعترف دوڤالييه، متردداً في إلقاء اللوم على أي منهما، وعلى ما يبدو، فإنه لا يزال يخشاهما كلتاهما.

كان الأمر أكثر من مجرد ثغرةٍ بسيطةٍ بين الأجيال، فقد كانت

المنافسة موجودة منذ البداية عندما نجحت ميشيل في نقل لقب السيدة الأولى في الجمهورية من سيمون إليها. وشرعت بعدئذٍ بإجراء تغييرات رئيسية على القصر الوطني كلّفتها سبعة عشر مليون دولار. ردّت سيمون على ذلك ببناء ضريح فخم لبابا دوفالييه، آملة أن تُدفن هي نفسها هناك ذات يوم.

كانت سيمون وميشيل على طرفي نقيض. كانت ماما دوفالييه ابنة غير شرعية لرجل خلاسي بارز من خادمته. كان جلدها فاتح اللون، إلا أنها كانت واحدة من الشعب. «عاشت دوما في ظل فرانسوا دوفالييه»، يقول بيبي دوفالييه، الذي يشير بشكل شبه دائم إلى والده بالاسم والكنية من باب الاحترام. من جهة أخرى، كانت ميشيل الابنة الشرعية ذات الثقافة العالية لرجل خلاسي بارز آخر، أرنست بينيت. "الوحيدة التي أخشاها في عائلتي" قال ذات مرّة مشيرا إلى ميشيل. "لأنها تسلك طريقها الخاص دوما".

في نهاية السبعينيات عندما عادت ميشيل إلى بورتوبرانس كانت مطلّقة، لها هيئة عارضة أزياء، ولديها طفلين تعيلهما، ووظيفة مكتبيّة ثانوية في نيويورك. عادت ونيّتها المعلنة هي إغراء بيبي دوفالييه الذي أعطته إصلاحاته الحكومية وإطلاقه الاقتصاد الهاييتي من جديد منزلة صانع المعجزات بين أفراد المجتمع الهاييتي في نيويورك.

تُظهر الصور التي التُقطت في ذاك الوقت هذا الثنائي الغريب يرقصان على الأرضية الخشبية في القصر الوطني: الرجل البدين الأخرق الذي يضع زهرة كبيرة في عروة سترته ويحدّق حالما إلى عنق شريكته، بينما تبدو المرأة النحيلة، الأنيقة شاردة الذهن نوعا ما.

"مطلّقة!" زمجرت سيمون دوفالييه، التي خشيت وجود امرأة أخرى

في القصر. وأثناء محاولاتها ثني جان ـ كلود عن فكرة الزواج، ما انفكت سيمون تذكّره بأن زوج ميشيل السابق، ألكس باسكيه، كان واحدا من العائلة التي حاولت الإطاحة ببابا دوڤالييه، المنتخب حديثاً عام 1958. إلا أن بيبي دوڤالييه المفتون لم يُصغ لحجج والدته.

وكما تنبأ والدها، لم تضيّع ميشيل وقتا للحصول على ما أرادته. فقد تمّ الزواج في الكاتدرائية في بورتو برانس في 27 أيار عام 1980، وكلّف ثلاثة ملايين دولار، بما فيها العرض المذهل للألعاب النارية. وبعد الزواج مباشرة، أسَّست ميشيل مؤسسة ميشيل ب.دوڤالييه كحصّالة شخصية لنقودها. وطردت أقارب دوڤالييه من القصر واستبدلتهم بأقاربها. فغدا والدها، إرنست، واحداً من الخمسة والعشرون مُصَدِّرا للقهوة الهاييتية المرخص لهم فقط. بيد أنه، على عكس الباقين، كان معفيا من الضرائب. وبحسب الـــ **واشنطن بوست**، كانت القهوة مجرّد واجهة، في حين كان عمله الحقيقي الاتجار بالكوكايين الكولومبي، الذي يُهَّرب عن طريق مطار خاص غير معروف. ويبدو أن فرانز شقيق ميشيل، كان يعتمد أسلوبا مشابها، وانتهى به الأمر بأن يُعتقل لبيعه المخدرات في بورتوريكو.

كان الناس في شوارع هاييتي يموتون من سوء التغذية وطلقات زبانية دوڤالييه. بينما كان جان ـ كلود وميشيل دوڤالييه يعيشان في القصر في عالم خيالي من الرفاه الذي أطلقا العنان له. إذ قدّرت وزارة التجارة الأمريكية بأن 63% من دخل الحكومة الهاييتية في الثمانينيات سُحب بصورة غير شرعية عن طريق أعمال أو أشخاص مرتبطين بالنظام الحاكم. ولقد اعترف أحد وزراء الماليّة الهاييتين المخلوعين بأنه جرى تخصيص خمسة عشر مليون دولار شهريا لنفقات لا تدخل في

الموازنة». وفي كانون الأول عام 1980، جرى تحويل عشرين مليون دولار من الاثنين والعشرين مليون دولار التي أقرضها صندوق النقد الدولي لهاييتي إلى الحسابات الخاصة لميشيل وجان ـ كلود دوڤالييه عن طريق «مؤسسة» ميشيل.

وبمعزل عن قواها السحرية المالية، فقد كان لدى ميشيل فهماً ماكرا للعلاقات الاجتماعية. فعندما دَعَت الأم تيريزا من كالكوتا إلى بورتوبرانس لكي تتبرع لها لأجل أعمالها، امتدحتها الأم تيريزا على الملأ لـ «حبّها للفقراء». كذلك عرض التلفزيون الهاييتي احتفالات نظمتها ميشيل لجمع التبرعات لبناء مستشفى. كان سعر البطاقة 500 دولار، وخلال هذه الاحتفالات كانت تباع عن طريق اليانصيب قلائد تساوي 30000 دولار. وعندما كانت تمل ميشيل من بورتوبرانس وممن كانت تدعوهم بـ «الفقراء»، كانت تذهب في رحلات تسوّق إلى باريس.

كان جان ـ كلود يكره السفر، كما كان لديه كثير من الأعمال التي تُبقيه منشغلا في مكتبه. أحدها الدعاية التي كانت من أولوياته. كذلك الملصق الكبير الذي نصبته وزارة الإعلام على جانب الطريق المؤدي إلى مدينة بورت لوغان يقول "أودّ أن أقف أمام محكمَة التاريخ بصفتي الشخص الذي أسس الديمقراطية في هاييتي تأسيسا راسخا". التوقيع "جان ـ كلود دوڤالييه، الرئيس الأبدي". وكأن كلمة «الأبدي» لم تُمثّل تناقضا مع الشعار ذاته.

والحق، أن محكمة التاريخ لم تضيّع وقتا للنطق بحكمها، إذ تلقى القصر تهديدا باجتياح وشيك الحدوث. ففي غونيفيه، المرفأ الشمالي الذي لطالما كان معقل الثورة والمكان الذي أعلن منه العبيد الهاييتيون الاستقلال عن فرنسا عام 1804، خرج السود المتضورون جوعا إلى

الشارع ليمثّلوا جنازة للرئيس حاملين نعوشا، وهياكل عظمية، وعظاما بشرية. كان ثمة «شاهدة قبر» عليها النقش التالي «هنا مكانك يا جان كلود». لم يعد القمع الشديد الذي مارسه التونتون ماكوته يفي بالغرض. ولم يعد كهنة الڤودو والجمعيات السرية ـ أعمدة النظام ـ يريدون دوڤالييه، فبدؤوا باتهامه بأنه استسلم للخلاسيين.

سقط النظام.

صعدت ميشيل، مرتدية عمامة بيضاء، إلى الطائرة التي كانت ستحملها إلى المنفى. بدت متألقة مثل نجمة سينمائية. كانت، الوحيدة التي خرجت من الكارثة منتصرة ظاهريا. وعلى الرغم من اعتراضات ماما دوڤالييه، انتزعت ميشيل من جان ـ كلود إذنا بالسماح لزوجها السابق وطفليها، عشيرة الباسكيه، بمرافقتهم إلى المنفى. وصلوا إلى المطار متأخرين، كانت الساعة الثالثة والنصف صباحا، وكان جان ـ كلود هو الذي يقود سيارة ب م دبليو الفضية اللون، ووجهه جامد القسمات كوجه لاعبي البوكر. وكان سبب التأخير، حسب ما يؤكد أعداؤهما، أن ميشيل لم تقدر أن تمنع نفسها من إقامة حفلة شمبانيا في آخر لحظة كنوع من الوداع لأشد أنصارهما إخلاصا.

تهزّ ڤيرونيك رأسها. "أكاذيب. لقد روى لي جان ـ كلود كل ما يتعلق بتلك الليلة. كان لابد من تشكيل الحكومة التي ستخلفه. وكانت ثمة قرارات يتعين اتخاذها، ووثائق ينبغي توقيعها. لدينا شهودٌ بأن أحدا لم يُقم حفلة. إنها كذبة كسائر الأكاذيب الأخرى".

بعد عدّة أيام كان العمال في ورشة السفن في بورتوبرانس يغنون أغنية كاليبسو تدعى "أنا آسف لأجلك". تقول الأغنية:

ميشيل بينيت
أنا آسف لأجلك
من الآن فصاعدا
لن تري هاييتي إلا على التلفاز.

في هذه الأثناء، استأجرت عائلة دوڤالييه أول ڤيللا صادفتهم في الريفيرا الفرنسية. ومن المفارقة أنهم وجدوا أنفسهم جيرانا للكاتب غراهام غرين، مؤلف العمل الهجائي ذائع الصيت المناهض لدوڤالييه: **الكوميديون**.

في هذا المكان، وأثناء مقابلة لبرنامج 20/20 على قناة إي بي سي أجرتها معها باربرا وولترز، تروي ميشيل، التي بالغت في تبرجها، واتكأت على أريكة وبين أصابعها سيجارة طويلة، "لا أريد أن أشرح كيفية عمل نظامنا. إنه أمر بالغ التعقيد.... لأنك عندما تكونين رئيسة وسيدة أولى، فإنك تكونين مثل أم وأب للشعب". وإذ تُحرِجها باربرا بخصوص اختفاء الأموال العامة، تردّ ميشيل. "ربما كانت ثمة مخالفات في الحسابات، بيد أني لا أعتقد بأن الأموال صُرِفت بطريقة سيئة".

كان بيبي دوڤالييه يهز رأسه موافقا وهو يجلس إلى جانبها مرتبكاً كعادته.

لم يأبه دوڤالييه بتقلبات القدر فداسها
إذ لم يتوقع من الحياة الكثير
إلى أن وجد القدر فتاة أجَّجت لهيبا ظن
بأنه كان قد خمد
جرحه جمالها الحرّاق مثل سكين

حرّكت مشاعره فلم يقدر عقله أن يكبح جماحها
ثم تنّحت مبتسمة وراقبته يهوي
خانه جسده وجوع روحه
وفي الأخير كان دوڤالييه مجرد حالم

«دوڤالييه» أغنية لــ كريس كريستوفرسون

توفيت سيمون دوفاليه. ورحلت ميشيل. ڤيرونيك هي المرأة القوية التي حلت محلهما، حيث تبدو أكثر دوفالييرية من دوڤالييه نفسه. ترفّ رموشها الطويلة وتلوّح يديها بأظافرها المطليّة كلما أتى أحدهم على ذكر لائحة التهم الطويلة التي لم يُبَت فيها بَعد ضد نظام دوڤالييه: فساد النظام خلال فترة حكمه الممتدة من عام 1958 وحتى عام 1986، أعمال العنف التي قام بها التونتون ماكوته، الفقر المدقع في البلاد، الحكم الاستبدادي الذي رسخه دين الڤودو، جنون العظمة، والمسؤولية عن موت 40000 شخص ونفي مليون آخرين.

لا تنفكّ ڤيرونيك تنكر هذه التهم. "كلها أكاذيب، لم يسبق وأن أظهر لي أحدهم أي دليل". ثم تقسم بأن الرئيس الحالي، والكاهن السابق جان ـ براتراند أريستيد مجنون من الناحية الطبية، وفاسد علنا، وبأن سكان بورتوبرانس يخطبون ودّ دوڤالييه. تتحدث عن "الثورة الاجتماعية" التي أحدثها دوڤالييه، مستشهدةً بإحصائيات قديمة من الستينات تشير إلى تعليم السود الذين لم ينته استغلالهم من قِبَل النخبة الخلاسية، هذا الاستغلال الذي بدأ منذ زمن طويل، إلا في ظلّ حكم عائلة دوڤالييه"، وترثي زوال الطبقة الوسطى السوداء، "التي خلقها دوڤالييه للمرة الأولى، وتصف رحلاتها إلى حي البرونكس في نيويورك بهدف تحريض جماعات المهاجرين الهايتيين الذين يشعرون بالحنين".

"أقرأ في كل مكان أن منظمة هيومن رايتس ووتش أدانت حكومات دوڤالييه، زاعمة بأنها وجدت إثباتات على انتهاكات فظيعة لحقوق الإنسان. وهذا غير صحيح، إذ لم تنشر منظمة حقوق الإنسان أول تقرير لها عن هاييتي إلا في عام 1985، عندما كان الوقت قد فات لإلقاء أي لوم على عائلة دوڤالييه". إنه لعذر غريب، لأن بيبي دوك كان لا يزال في الحكم عام 1985. على أية حال، تُفضل ڤيرونيك عدم الخوض في تفاصيل التقرير الشهير وتُلحُّ على الانتقال إلى موضوع جديد.

تأخر دوڤالييه. تنتقل ڤيرونيك بين اللغات الإيطالية، الفرنسية، والإنجليزية بسهولة دبلوماسي. تقول بأنها لم تعرف قطّ عائلة دوڤالييه عندما كانوا في الحكم، وبأنها لم تذهب إلى هاييتي أبدا. "ستكون حياتي في خطر"، تقول بفخر. "بيد أني ذهبت إلى الحدود عدّة مرات، على بُعد أمتار قليلة من أرض هاييتي، عند الحدود مع جمهورية الدومينيكان". لا بدّ أن قربَها من الوطن الذي تبنّته كان أمرا اعجازيا، لأن كل ما تعيّن عليها فعله هو أن تقف هناك، على بُعد عدّة خطوات من العلم الهاييتي "كي تفهم الوضع المأساوي الذي صار إليه الهاييتيون بدون عائلة دوڤالييه".

"كذلك ثمة رجل أعمال خلاسي يسيطر على جميع واردات النفط إلى هاييتي. رجل فاحش الثراء. لماذا؟ لأن ابنته عشيقة أريستيد"، تقول ڤيرونيك بينما تضع فنجان القهوة، ثم تتابع بالإيطالية، باشمئزاز، "صارت السيطرة الاقتصادية في أيدي النخبة الخلاسية مرّة أخرى، كما في السابق".

عندما يصل بيبي دوڤالييه، تنهض ڤيرونيك واقفة. "ها هو الرئيس". تهمس لي في حال أخفقت في أن أتعرف إليه. والحق أنها حيطة في

محلها، لأن جان ـ كلود دوﭬالييه لم يعد ذاك الشاب البدين ذو الذقن الحادة والنظرة البلهاء كما ظهر في الصور القديمة. لقد خسر كثيرا من وزنه، فأصبح أكثر نحولا. خطّ الشيب شعره المجعد، وأصبح يتحدث بهمس حادّ، كلامه مرثاة يعزفها على وتر واحد. كما لو أن الطاقة المتيسرة لحنجرته غير كافية لتحريك حباله الصوتية.

عندما يغدو الجهد الذي يبذله عظيما، يرفع بصره إلى ﭬيرونيك فتنهي الجملة بطريقة آلية، وتكمل الشرح عنه لتنتقل بعدئذ إلى الموضوع التالي، متحدثة على الدوام بـــ«نحن، نا، لنا». إنها «ثورتنا» «حكومتنا». يترك بيبي دوك الأمر لها ولا يتدخل إلا عندما تخلط ﭬيرونيك بين اسمي أختيه بينما تصف تفاصيل خلاف عائلي. "كلا، لم تكن نيكول بل أختي الأخرى، ماري دينيز".

كانا سيبدوان كأي زوج باريسي عادي، لو أنهما كانا أكثر غرابة بقليل. يتحدثان عن الولدين، نيكولاس ذا الثمانية عشر عاما وآنيا ذات الستة عشر، كما يفعل أي أبوين. لم يعد الولدان يعيشان مع ميشيل بل يذهبان إلى إحدى مدارس باريس. يخبرني جان كلود بأن نيكولاس ساعده في إنشاء موقعه الإلكتروني. "إنه مجنون كمبيوتر، كجميع الأولاد في سنه". يبدو جان كلود وﭬيرونيك طبيعيين تماما. تبدو الأشياء التي يقولانها منطقية، كحال النبرة التي يتحدثان بها. يرتدي جان كلود بزّة زرقاء غامقة وربطة عنق رسمية، كما لو أنه لا يزال رئيس دولة. والحق أنه لطالما أحبّ أن يكون أنيق الملبس، على الرغم من أنه صدم والدته سيمون دوﭬالييه بعمله غير الأخلاقي عندما توقف عن ارتداء البزّات السوداء التي كان والده يفضلها.

أسألهما كيف عاشا قبل أن يُفَكَّ الحجز عن الحساب المصرفي في

البنك السويسري. ينظران إلى بعضهما، مندهشين. "أي حساب؟" يسألني. "لا يوجد حسابٌ مصرفيّ. لقد قال الناس أشياء بالغة الغرابة عن موارد دوڤالييه المالية. الحقيقة أن لدينا دخلا متواضعا" ثم يخفض بصره إلى الأرض كيما يبيّن أن السؤال أزعجه. تضيف ڤيرونيك "لطالما تلقينا بعض المساعدة المالية من مؤيدي دوڤالييه في شتى أنحاء العالم، **أنصارنا**".

لعلهم أولئك الذين اغتنوا في ظلّ النظام، أو لعلهم أولئك الذين يأملون أن يعود بيبي دوڤالييه يوما ما.

أقيمت جنازة بابا دوڤالييه بعد يومين من تعيين جان ـ كلود دوڤالييه رئيسا أبديا. كان التاريخ الرابع والعشرين من الشهر، وهو ما صادف، بفعل مصادفة سعيدة، يوم عيد البارون سامدي، إله الموت عند الڤودو، الرجل ذو القبعة العالية الذي يرتاد المقابر بسبب جوعه الأبدي إلى الجثث.

سُجِّيَ الجثمان في نعش مكشوف في القصر الوطني، وأُلبِسَ السترة السوداء المألوفة التي كان بابا دوڤالييه يرتديها على العشاء، وربطة عنقٍ فَراشيّة الشكل بيضاء اللون. كذلك وبفعل مصادفة سعيدة أخرى، كان نمط اللباس هذا هو نفس نمط لباس البارون سامدي. كان في يد الجثمان نسخة بغلافٍ أحمر من **مذكرات قائد من العالم الثالث** و**كتاب الثورة النموذجي**، هي نسخة دوڤالييه عن الكتاب الأحمر الصغير لماوتسي تونغ وفيه عبّر عن نظريته بأن "الطبيب مُجبَر أحيانا أن يقبض حياة كيما ينقذ أخرى".

تألَّفَ حرس الشرف الذي أحاط بنعش فرانسوا دوڤالييه من اثنين وعشرين رجلا من التونتون ماكوته واثنين وعشرين جنديا، و كان ذلك من باب الاحترام لتيمنّه بالرقم 22. فقد غدا دوڤالييه رئيسا في 22 تشرين

الأول 1957. وكان التاريخ الذي اختاره ليعلن نفسه رئيسا أبديا هو 22 حزيران 1964. وتقول الإشاعة بأنه احتفل واحتسى الشمبانيا يوم 22 تشرين الثاني 1963 بوفاة جون ف. كينيدي، خصمه الرئيس. وكعلامة على الاحترام، لم يكن ثمة غرفة تحمل الرقم 22 في فندق ألوفسون، أفضل فنادق بورتوبرانس وهو الفندق الذي قدّم لغراهام غرين مسرحا لأحداث تراجيديا ـ كوميديا السيدة سميث، براون، وجونز. بعد وفاته، صار دوڤالييه خالدا في بانتيون* الڤودو كروح قوية ذات سلطة تُدعى «لوا أوس».

وقف جان ـ كلود ووالدته سيمون بجانب نعش بابا دوڤالييه. بدأ الناس ينادون جان كلود بـــ«بيبي دوڤالييه». كانت تلك طريقتهم في إخباره بأنهم يؤمنون بأن روح والده خالدة فيه. أما أصدقاؤه في مدرسة غونزانا الثانوية في بورتوبرانس فقد اختاروا له لقبا أقل مداهنة، إذ دعوه «الرأس الفارغ».

حتى أن بابا دوڤالييه نفسه كانت لديه شكوكه حيال جان كلود (على الرغم من التماثل بينه وبين القيصر أغسطس). فقد حرص، قبيل وفاته، على تعيين اثني عشر وزيرا مهمتهم أن ينصحوه. كانت ماما دوڤالييه، والدة جان ـ كلود الأوتوقراطية الصارمة وممثلة بابا دوڤالييه على الأرض، أعلى مرتبة من هؤلاء الوزراء، بل ومن الوريث نفسه في تراتبية القصر غير الرسمية. بيد أن أعلى سلطة بين الجميع كانت سلطة الرئيس السابق الذي تحوّل الآن إلى إله ڤودو يتمتع بسلطة على جميع البشر الفانين.

لا أحد يمكنه أن يقول بأن فرانسوا دوڤالييه لم يول اهتماما كافيا

---

* هيكل مكرس لجميع الآلهة، المعروفة منها وغير المعروفة.

بالتحضيرات لخلافته.

"أنا فخور جدا باسمي، وفخور بما فعلناه أنا ووالدي لهاييتي. فقد ازدهرت البلاد في ظلنا. وكما ترى، أعيش هنا في فرنسا. قد يبدو هذا غريبا، كون فرنسا هي البلد الذي حاربته هاييتي كي تحصل على استقلالها. كان بمقدوري الذهاب إلى الولايات المتحدة أو أمريكا اللاتينية. كان الخيار بيدي. ليس صحيحا أنني أُجبرت على القدوم إلى هنا. لكن، كما ترى، أنا لا أتحدث الإنجليزية أو الإسبانية، ولهذا اضطررت لاختيار فرنسا. بيد أن قلبي لا يزال في هاييتي، ولا أزال الوحيد القادر على إنقاذ البلاد، التي باتت الآن في حالة مزرية".

"لا، لم أتقاعد. لم أصل إلى سن التقاعد.... وليس بمقدوري أن أبقى غير مبال بالبؤس الذي يعانيه شعبي. قَدَّمت الكثير لهاييتي عندما كنت رئيسا. وعلى الرغم من جهود المجتمع الدولي إلا أن بلدي لم تكن في محنة أسوأ مما هي عليه اليوم".

"أحنّ إلى التواصل مع... كيف أصف ذلك؟ مع ذاك العالم الريفي، مع عالم سكان المناطق الريفية، هذا العالم الذي يكمن في صلب الثقافة الهاييتية. كنت استمتع بزيارة المزارعين الهاييتين في حقولهم".

"عندما يتعلق الأمر بالڤودو، فبمقدوري أن أقول لك بأن السبب الوحيد الذي يدفع سكان الريف للذهاب إلى الكنائس الكاثوليكية هو الفوائد المادية التي يأملون الحصول عليها منها. إلا أنهم لا يؤمنون بنفس الرب الذي يؤمن به المسيحيون في الغرب. إنهم يؤمنون بالڤودو، دين شعبي وثقافته التقليديَّين، فالڤودو دِين متأصل عميقا في الروح الهاييتية. لذلك سيكون من الطبيعي ألا يحترمه الخلاسيون. بيد أن الڤودو كان الدين الذي

أَمَدَّ جيش المتمردين بالوحدة اللازمة لهزيمة نابليون والفرنسيين في بداية القرن التاسع عشر. كان الڤودو القوّة التي دعمت توسيان لوفيرتور، قائد ثورة العبيد المعروف بـــ اليعقوبي الأسود، الذي قاد جيشا مهلهلا فهزم نابليون وجلب الاستقلال لهاييتي. جاء الأفارقة من عدّة مناطق مختلفة في أفريقيا، وتحدّثوا لغات مختلفة، وكانت لديهم عادات مختلفة. الڤودو هو الدين الذي وحّدهم".

"هل أؤمن بالڤودو؟ بالطبع. أؤمن بقيم التآلف والتضامن التي يعبّر عنها الدين. لا يدخل السحر الأسود في صلب الڤودو، بل إن الڤودو يرفضه. ثمة بالفعل من يمارس السحر الأسود. إن حدث ومارس الـــ **هوغان**، أحد كهنة الڤودو، السحر الأسود فإن الآلهة تعاقبه. إضافة إلى ذلك، أخبريه ياڤيرونيك، بأن الغربيون أرسلوا، في مناسبات عدّة أطباء وعلماء ومراقبين حياديين كي يشاركوا في الاحتفالات الدينية للفودو كيما يروا إن كان بمقدورهم اكتشاف أسراره، إلا أن أحدا منهم لم ينجح. ذلك لأن ثمة عنصر فوقطبيعي في الڤودو لا يمكن للعلم أن يفسّره".

"التونتون ماكوته؟ هم الأنصار في الأصل. أليس هذا ما تدعوهم في أوروبا؟ نعم. الأنصار. أبناء أناس بسطاء، فتيةٌ من عائلات قروية حملوا السلاح كي يدافعوا عن حكومتهم. لكنهم لم يتلقوا تاريخياً دعم الكنيسة. هذا ما حدث فعلا، والكنيسة تحالفت مع الخلاسيين، الطبقات الموسرة. ومع ذلك فأربعة أخماس السكان كانت إلى جانبهم، وهذا هو المهم. فالتونتون ماكوته مدافعين عن الثورة الاجتماعية التي قام بها دوڤالييه وعن أرض الوطن. شكّلوا الميليشيات الشعبية التي منعت الجيش، الذي وقف بدوره إلى جانب النخبة الخلاسية، من تنفيذ انقلاب عسكري، وكانوا يعرفون بـــ متطوعي الأمن القومي".

"قيل الكثير عن التونتون ماكوته. أكاذيب كثيرة قيلت لتشويه سمعتهم. رغم أنهم هم من دافع عن هاييتي عام 1958، بعد عام من انتخاب والدي، عندما اجتاحها المرتزقة الأجانب الذين موّلهم الرئيس السابق بول ماغلوير. نعم، المرتزقة الذين قادهم والد زوج ميشيل. فبعد أن ربح التونتون ماكوته تلك المعركة، صاروا هم من يحل المشاكل التي تواجه الشعب. كانوا يعطون المال للعائلات المعوزة، وكان يقصدهم الرجال العاطلون عن العمل وتقصدهم الأمهات اللواتي احتجن المال كي يرسلن أولادهن إلى المدارس. لقد عملوا كوسطاء في غياب المؤسسات. أنا أسميهم... حِرَفيّو الثورة الاجتماعية".

"الندم؟ أحس بالندم لأمرٍ واحد: أنني كنت غير قادر على أن أتسبب بولادة ديمقراطية حقيقية في هاييتي. لم يمنحوني الوقت الكافي. ولا تزال هاييتي غير ديمقراطية بعد خمسة عشر عاماً من رحيلي. ذلك أنك غير قادر على خلق ديمقراطية بمجرّد أن تضخّ الأموال والمساعدات الأجنبية. لابد أن تمتلك ثقافة سياسية، كما أنك بحاجة إلى طبقة سياسية. هذا ما كنا نعمل على خلقه".

"منذ مدّة قصيرة بعثت برسالة إلى الأمة. كانت رسالة موجهة إلى **الدوفاليريين** في **المقاطعات** التسع والدوفاليريين الموجودين خارج البلاد. كانت رسالة أخوّة وأمل. قلت [إن هذا الوقت العصيب يبلو أفئدتنا وأرواحنا بلاء موجعا. إلا أننا نقف في مواجهته، يوحّدنا شعور مشترك بنكران الذات، جاهزين لقبول التضحيات التي تتطلبها ولادة وطنية جديدة]. تطرقت في رسالتي إلى الحرية، والعدالة الاجتماعية، والتسامح، أي أني تطرقت إلى القيم الدوفاليرية. قلت أيضاً: [أنا على يقين تام فيما يخص التحولات الحتمية؛ وبمقدوري أن أقود هذه البلاد إلى تحوّل مادي

وأخلاقي بعون **الله العظيم الخالد]**".

ليس بالضرورة أن يكون **الله العظيم الخالد** الذي تضرّع إليه دوڤالييه هو نفس الله العظيم لدى الكنيسة الكاثوليكية. فلطالما كانت العلاقات متوترة بين بورتوبرانس والڤاتيكان الذي يناصب الڤودو العداء يُعتَبر أداة في يد النخبة الخلاسية. لم يّدخر بابا دوڤالييه وقتاً ليبيّن، بما لا يدع مجالا للشك، أنه هو، وليس إله الروم الكاثوليك، الألوهة الوحيدة التي تسمح بها هاييتي الجديدة والثورية. وهكذا، في مستهل «حكمه»، طال التغيير حتى صلاة الرب. وباتت النسخة الثورية الجديدة:

دو فالييتا، الذي في القصر الوطني إلى الأبد، لتُقدّس
اسمك الأجيال الحاضرة والقادمة. لتكن مشيئتك كما في الأقاليم
كذلك في بورتوبرانس. أعطنا اليوم هاييتي الجديدة
ولا تتسامح مع تجاوزات اللاوطنيين الذين يبصقون على بلدنا
كلّ يوم. أدخلهم في التجربة، وتحت وطأة أحقادهم،
لا تُنجهم من الشرير.

قامت المدارس بتعليم «العقيدة الدينية الثورية الجديدة». وفي حين قامت هذه العقيدة على طريقة السؤال والجواب التقليدية، فقد غيّرت الثالوث المقدّس إلى خماسي مقدّس، وكانت على الشكل التالي:

سؤال: من هم دوسالين، توسيان، كريستوف، بيسيون، وإستيم؟
جواب: خمسة رؤساء للدولة بارزين يتجسدون في ويشكّلون رئيس دولة واحد يتمثل في شخص فرانسوا دوڤالييه.

زار البابا يوحنا بولس الثاني هاييتي في آذار عام 1983، بعد خمس

سنوات فقط من انتخابه. كانت هاييتي في أعلى سُلَّم أولوياته. وعند وصوله إلى مطار فرانسوا دوڤالييه الدولي، وبعد أن قبّل الأرض ثلاث مرات ـ وبذلك ترك انطباعا لدى من يؤمن بالڤودو بأنه كان يحتفل بطقس سحري، أو ربما يتفوّه بلعنة ما ـ ألقى خطابا كان يقصد منه أن يصدم الهاييتين. فأمام حشد كبير ميال إلى الشك، قال مخاطبا جان ـ كلود وميشيل دوڤالييه: "بلادكم بلادٌ جميلة، غنيّة بالموارد البشرية، بيد أن المسيحيين لا يمكنهم أن يتجاهلوا الظلم، واللامساواة المُفرطة، وتدني مستوى المعيشة، والبؤس، والجوع، والخوف الذي تعاني منه غالبية الشعب".

"لم يكن البابا على دراية جيّدة بوضع البلد". يقول دوڤالييه، ثم يضيف "على أية حال، وبينما يذكر الجميع الخطاب الذي ألقاه يوم وصوله، فإن أحدا لا يذكر خطاب الوداع الذي ألقاه يوم رحيله. كانت اللهجة مختلفة تماما. فقد طلب البابا من المجتمع الدولي أن يُقدِّم مساعدة مالية لحكومتي".

وفي نفس السنة، نجح في التسلل إلى البيزانو، كانت هذه أهم جمعية سرّية في هاييتي. يعود اسمها في أصله، كحال عديد من طقوسها ومعتقداتها، إلى غرب أفريقيا. دخل ديفيز إلى معابد الڤودو السرية الخاصة بجماعة البيزانو ووجد أن الرئيس كان أهم إله لدى هذه الجميعة. فقد مَلأت صور فرانسوا دوڤالييه مذابح المعابد. كانت راية البيزانو حمراء وسوداء، في دلالة إلى الدم والليل. وقد صادف أن يكون الأحمر والأسود لونا الراية الجديدة التي اختارها دوڤالييه لهاييتي عقب انتخابه. وكان للجمعية أباطرة وملكات، ورؤساء حكومة. كانت مزيجا من الديمقراطية الأميركية والأرستقراطية الفرنسية، والنظام القَبَلي الأفريقي.

تضمّنت موجودات المعبد عذراوات سوداوات، وقلوبا مغروساً فيها دبابيس، وزجاجات من الروم، وسيوفا ومعاول يستخدمها حفّارو القبور. بالإضافة إلى أن الأضحيات البشرية لم تكن أمرا غير مألوف.

كان شعار جماعة البيزانو «النظام واحترام الليل». وقد كان هذا الشعار شعار هاييتي الرسمي: فقد كان «النظام» هو وجوب إطاعة بابا دوڤالييه، في حين كان «احترام الليل» إشارة صريحة إلى الغارات والأعمال الليلية الشهيرة التي قام بها التونتون ماكوته. لذلك أحبَّ دوڤالييه ما نسميه اليوم «انطباعات عميقة» وقضى وقتا طويلا في سبك جمل قصيرة يمكن أن يحفظها بسهولة جمهور ناخبيه الأميين ممن يعتنقون الڤودو. فعقب تعيينه رئيساً أبديا في حزيران 1964، أعلن من شرفة القصر الوطني تعريفه الشهير لذاته، حيث قال متحدّثا بضمير الغائب، "الدكتور دوڤالييه عملاق بمقدوره أن يكسف الشمس".

على أية حال، عَرَّفه الدستور الجديد تعريفا ملتبسا على أنه **الملك**. كان بابا دوڤالييه يحلم باليوم الذي يقدر فيه أن ينصِّب نفسه الإمبراطور فرانسوا الأول ويستعيد النظام الملكي الهاييتي المنسي منذ أمد طويل.

وبينما نجلس في فندق الميتروبوليتان، تكاد قهقهات **رجُلا المافيا** الكرواتيَّين تطغى على صوت الرئيس الأبدي القصير الحاد. فبعد كل جملة ينطق بها، ينظر جان ـ كلود إلى الأرض بانتظار أن تترجمها ڤيرونيك، وكأنه يركّز على الجملة التالية، فيكررها ويشذّبها إلى أن يقتنع بأن نطقه بها سيكون مؤثرا قدر الإمكان.

"أخبريه ياڤيرونيك بأنه لم يسبق لرجل أسود أن ترقى إلى رتبة ضابط في الجيش قبل عهد عائلة دوڤالييه. كان هذا الأمر ممنوع

بالمطلق". يرتجف صوته. "قولي له بأنه لم يكن مسموحا لأولاد الناس العاديين أن يصيروا أطباء، وبأن عددهم كان لا يتجاوز اثنا عشر أو خمسة عشر طبيبا في العام، وأنّ العدد ارتفع إلى مئتين وخمسين طبيبا عندما جئت إلى الحكم، وأن ذلك كان بفضل والدي. أخبريه ذلك".

تقوم ڤيرونيك بالترجمة بيد أنها، إذ لا تُحسُّ بالرضى التام عن دفاع دوڤالييه عن نفسه، توسّع هذا الدفاع بأن تضيف إليه أسماء وتواريخ تعتبرها مهمة.

أسأله، على افتراض أن دوڤالييه اعتبر ترقية السود بهذه الأهمية، ألا ينطوي زواجه من امرأة من الطبقة الخلاسية على مفارقة؟

تبتسم ڤيرونيك. وحيث أن السؤال سَرَّها، فإنها تترجمه إلى دوڤالييه بنبرة مختلفة توحي بأنها لم تعرف الجواب هذه المرّة.

"أخبريه أنني، بمعزل عن... ماذا عسانا أن نقول، الأسباب العاطفية، كنت آمل أن يساهم زواجي في توحيد الشعب الهاييتي، السود والبيض. كان ذلك وجها آخر من وجوه الثورة التي جاء بها دوڤالييه".

تضحك ڤيرونيك وتعود للترجمة من جديد.

ألم يكن التونتون ماكوته مذنبين قط بارتكاب تجاوزات؟ أسأل بحذرٍ، آملاً في أن أدفع دوڤالييه إلى درجة من النقد الذاتي.

تجيب ڤيرونيك "ثمة أشخاص ذوي طباع حادة بينهم كما هو الحال في أية قوّة شرطة. لكن لماذا لا تلوم الصحافة رئيس الولايات المتحدة عندما تضرب شرطة نيويورك أحدا ما أو حتى تقتل شخصا بريئا؟ وماذا بمقدورنا أن نفعل حيال الأمر؟ كان متطوعو قوّة الأمن القومي وسطاء اجتماعيين، قدّموا العون للشعب في بلد يخلو من الخدمات الاجتماعية".

كانوا محسنين، إذاً. بيد أن تقرير هيومن رايتس ووتش أظهر حقيقة

مختلفة تماما. ففي كازيرن دوسالين، هذه الثكنات العسكرية الكالحة التي تقع على بعد خمسين مترا من ستائر الحرير في القصر الوطني، مارس التونتون ماكوته ما أسماه المعارض رينيه تيودور «اشتهاء الموتى السياسي»: التعذيب.

أرهب التونتون ماكوته سكان المناطق الريفية؛ فقد أخرجوهم من بيوتهم تحت تهديد المناجل، وساقوهم إلى مُدُن الأكواخ في ضواحي بورتوبرانس، إلى غيتوات مثل سيتيه سولييه، حيث لا مصارف للمياه، ولا ماء أو كهرباء. ومع هذا كانوا، بالنسبة للرئيس السابق، يستحقون التعريف الشعري بأنهم «حرفيو الثورة».

تقول ڤيرونيك، "فيما يتعلق بالماكوته، فقد جرت انتخابات في هاييتي دوڤالييه. كانت انتخابات ديمقراطية، وهذا أمر أودّ أن أذكره دوما. لقد ساعد الماكوته في تنظيم هذه الانتخابات". لعلها تشير إلى الاستفتاء الذي جرى بتاريخ 22 تموز 1985 عندما طرح جان ـ كلود تعديلين على الدستور: حق الرئيس الأبدي في اختيار خليفته، وحق الأحزاب التي أعلنت ولاءها للنظام في تلقي مساعدة مالية من الدولة. أقرَّ الاستفتاء كلا التعديلين بنسبة 99.98 بالمائة. "كلا، بل أشير إلى انتخابات عام 1957 عندما مَنَح فرانسوا دوڤالييه النساء حق الانتخاب للمرة الأولى. لقد حرَّرهن. ففي ظل عائلة دوڤالييه، صار لدينا **المرأة الماكوته** المسماة **ماري ـ جان،** المقابل المؤنث للمتطوعين الذكور. كان ذلك قرارا تقدُّميا فقبل ذلك كانت النساء مستبعدات من أي نشاط شعبي بحسب ما تنص به التقاليد".

عند هذه النقطة يقطع دوڤالييه صمتا طويلا. " ڤيرونيك، أخبريه بأن ذلك كان الوجه المؤنث من شخصية فرانسوا دوڤالييه".

الوجه المؤنث؟ هل عنى الجانب النسوي؟ "لا، لا، بل أقصد **المؤنث**". يُصرُّ بيبي دوڤالييه.

تتدخل ڤيرونيك الآن، متلهفة كي تحوّل النقاش عن موضوع يُنذر بأنه سيغدو موضوعا خطيرا، "كان لحكومة دوڤالييه مؤيداتها من النساء بالإضافة إلى الرجال. كان دوڤالييه شخصا مُبدعا وقف إلى جانب النساء".

"أخبريه عن أريستيد. قولي له بأنني **كابوسه**" يقولها دوڤالييه بنفاذ صبر بينما تنظر عيناه إلى الأرض، كحالهما دوما. لقد سئم الحديث عن الماضي، فالمستقبل هو ما يعنيه. مستقبل يخلو من الحضور الطاغي لشبح والده، ومن المراقبة الخانقة لوالدته، ومن مطالب ميشيل المفرطة. مستقبل يكون في الأخير، له وله وحده.

"أوه، نعم، أرسلني الرئيس إلى كندا، والولايات المتحدة، وجمهورية الدومينيكان كي أُرتِّبَ لقاءاتٍ مع مؤيديه" تقول ڤيرونيك، "كانت زيارة ناجحة تماما. دوڤالييه اليوم أكثر شعبية من أي يوم مضى. كما أنه يمثّل أسوأ كابوس لأريستيد. إنه جُثامه. ينشر أريستيد إشاعات زائفة مفادها أننا دفعنا للناس من أموال حسابات مصرفية كانت مُجمَّدة فيما مضى لكي يأتوا إلى الاجتماعات. الحقيقة أن دوڤالييه أكثر شعبية من أريستيد".

مرّة أخرى يُسمَع صوت دوڤالييه الخافت. "أخبريه بخصوص الڤاتيكان"، "بالطبع" توافقه ڤيرونيك. "قرأنا تقارير الڤاتيكان الداخلية بخصوص أريستيد. تقول هذه التقارير بأنه مريض عقليا. ولدينا دليل بأنه اعتُقِل بتهمة الاغتصاب في جمهورية الدومينيكان. لقد حوّل أريستيد هاييتي إلى دولة مخدرات تقتات على عائدات الاتجار بالكوكايين. إن الشعب يكرهه".

يخرج جان ـ كلود المتأنق، وقد أعدّ نفسه على أكمل وجه مثل عريس، من اللامبالاة التي اتسم بها حتى تلك اللحظة "لقد نجوت من عدّة محاولات للاغتيال. فقد حاولوا اغتيالي عندما كنت تلميذا في المدرسة، إلا أنهم قتلوا عددا من حراسي الشخصيين. وهكذا، لازلت حيا، جاهزا لأهِبَ حياتي لهاييتي مرّة أخرى".

لكن أعتقد أن العودة إلى القصر لا تزال بعيدة المنال على الأرجح. أسأله، هل يُعقل أنه أثناء وجوده في فرنسا، لم ينمِّ أي هواية، أو يمارس أي مهنة أو عمل؟ فبعد كل شيء، كان لا يزال في الخامسة والثلاثين عندما غادر هاييتي. يفكِّر دوڤالييه للحظة، ثم يبتسم "ثمة موضوع أوليه اهتماما خاصا". أسأله، ما هو؟ "الطاقة الشمسية. نعم، الطاقة الشمسية". يبتسم دوڤالييه بينما يبدو أكثر ارتياحا من ذي قبل. "حلمي أن أستخدم الشمس كيما أُنعِش الاقتصاد الهاييتي. أنا أحب الشمس". ثم يختتم كلامه بضحكة نادرة "جميعنا في هاييتي نُحبّ الشمس".

لعلها كانت مجرد مصادفة، بيد أن للشمس دورٌ مهمٌ في الڤودو. ويمثّلها على الأرض، **بابا ليغبا** كما يدعونه، الرجل الصغير الحجم كبير السن الذي يُراقِبُ البوّابات ومفارق الطرق، فيفتح أبواب العالم لضوء الشمس وللقوّة الروحية للآلهة. وكل احتفال ديني يبدأ بذكر اسمه.

البرونكس. بيوت قديمة مبنية من أخشاب تساقط عنها الطلاء منذ أمد بعيد. مجمعات سكنية على الطراز السوفييتي. تنتشر القمامة في كل مكان. وثمة جماعات من الأولاد يجلسون على الأرصفة. وتنتشر فيها رائحة **البوليه روتي**، الدجاج المطبوخ على الطريقة الهاييتية التقليدية. تقع منهاتن على الضفة الأخرى لنهر هدسون، لكنها تبدو كما لو كانت

على كوكبٍ آخر. هنا يلتقي جميع المنفيين الهاييتين من مؤيدي دوڤالييه والمناهضين له، تونتون ماكوته وضحاياهم، مثقفون ماركسيون ورهبان من الڤودو، يلتقون جميعهم في البرونكس، أو في الكوينز. يذهب الفقراء منهم إلى البرونكس، والأغنياء إلى كامبريا هايتس، حيث يبعثون من جديد الحروب والانقسامات القديمة.

هي الكوينز هو المكان الذي يختبئ فيه ذائع الصيت إيمانويل «توتو» كونستان، المُخبر السابق لوكالة الاستخبارات المركزية، والزعيم السابق المحبوب لمنظمة FRAPH، فرقة الموت التي أرهبت سكان هاييتي حتى عام 1994 والتي تعمل لحساب الضباط الخلاسيين الذين استولوا على الحكم بعد دوڤالييه. وباعتباره محكوم عليه بالسجن لفترة طويلة لارتكابه مجزرة شهيرة عام 1994 (وقعت أيضاً في مدينة غونيفز) فإن توتو كونستان مُعرَّضٌ الآن لأن تُسلِّمه الإدارة الأميركية للحكومة الهاييتية. لقد أجبرت أحداث القتل التي وقعت في غونيفز الإدارة الأميركية على أن تُراجِع سياستها في هاييتي وتجتاحها بعد عدّة شهور، وهو التّدخل العسكري الثاني بعد تدخّل مماثل في العام 1915. بيد أن الحكومة الأمريكية لا تبدو الآن في عجلة من أمرها كي تُسلِّم كونستان.

كونستان صديق فرانز باتل، طبيب وأحد المؤيدين المخلصين لبيبي دوڤالييه. ينظِّمان معاً أمسيات دوفاليبرية خاصة، حيث يستأجر مؤيدوه نواد ليلية في بروكلين أو لونغ آيلاند، ويملؤونها بالرايات السوداء والحمراء، ويستمعون إلى خُطَب قديمة مسجَّلة للرئيس. بل ويتلقون أحياناً اتصالات هاتفية مباشرة من باريس يدور فيها الحديث عن «الأعوام الذهبية» التي شهدتها هاييتي في ظلّ دوڤالييه و«الدمار الحالي» الذي تشهده في ظلّ أريستيد. أكثر صيحات هؤلاء المؤيدين إثارة هي صيحة تقول

«إما دوڤالييه أو الموت!» غير أنه أحيانا يقتحم نشطاء إحدى الحركات المناهضة لدوڤالييه المكان ويُفسدون الاحتفال، فيتسببون بأعمال شغب ليلية، بل ومعارك في الشوارع قبل أن تُفرّقهم الشرطة.

لديّ موعد مع الطبيب في منزله، بنغل من طابق واحد وشرفة كُوّمت عليها أكياس القمامة وقطع الأثاث المهملة. اجتمع لدى الدكتور باتل عشرة زوار لا يزالون جميعهم موالين لدوڤالييه. كان والد باتل أحد الحرّاس الشخصيين الذين قُتلوا دفاعا عن دوڤالييه خلال محاولة اغتياله في المدرسة. وعرفانا بالجميل موّل بيبي دوڤالييه دراسة باتل الطب في الجامعة. وبعدئذ جعله (على ما يبدو عندما رأى بأن ولاء باتل له أكبر من معرفته بالطب) مدير تحرير صحيفة مؤيدة له بَدَل أن يسلمه منصباً في أحد المستشفيات.

يدرس باتل الطب في الولايات المتحدة. وأثناء ذلك يكتب مقالات لـــ **هاييتي أوبزرفاتور**، مجلة أسبوعية تؤيد جناح اليمين السياسي في هاييتي ومركزها بروكلين. بيد أن نشاطه الرئيسي هو العمل لأجل تشيدس، الحزب النيو ـ دوفاليري الذي أسسه مع راهول دوبرفيل، صديق قديم لبيبي دوڤالييه.

كان دوبرفيل شابا تركيا في إدارة دوڤالييه. لعله كان سفيرا رئيسا، فقد كان جان كلود يثق به لأنه سريع البديهة، ومثقف، وغير متملق، ولأنه سافر كثيرا. أي كانت فيه جميع الصفات التي تنقص جان كلود. حتى أنه كان واحدا من بين القلة الذين اختيروا للحضور إلى القصر في تلك الليلة المشهورة عندما فرّ دوڤالييه إلى فرنسا. يبتسم راهول لفكرة حفلة الشمبانيا كما ابتسمت ڤيرونيك. "أتمنى لو أن ذلك حصل، لكننا كنّا

نحضّر آخر خطاب متلفز للأمة يقرأه دوڤالييه. كنا مجرّد مجموعة صغيرة من الأصدقاء المقرّبين، كما في اجتماع عائلي. وكنا مشغولين أيضا بتوقيع الوثائق وإجراء الترتيبات اللازمة لتسليم السلطة بشكل رسمي".

وبينما نتناول عشاء قوامه الدجاج والأرز لا يعود الحديث إلى مشكلة العِرق. "الخلاسيون قتلوا دوساليه، كما قتلوا توسيان، البطل الأسود العظيم الآخر من أبطال استقلال هاييتي. اضطهدوا الڤودو كما اضطهدوا الكنائس التي يقصدها السود. وفي الأخير، تخلصوا من دوڤالييه لأنه عيّن السود في مواقع السلطة، ومكّنهم من الدراسة، ومن أن يُصبحوا كهنة، وأطباء، وأساتذة".

"كنّا في تلك الأيام نصدِّر الأطباء إلى زائير وفرنسا، بل والولايات المتحدة أيضا". يقول الدكتور باتل مبتسما ابتسامة حزينة. لعله يفكر بتلك المجلدات السميكة التي يتعين عليه فهمها بلغة بلد أجنبي معاد ـ الإنجليزية ـ قبل أن يقف أمام لجنة حَكَمٍ ستقرر مستقبله المهني.

يستعيد راهول ذكرياته، وراهول هذا رجل ذو جسم رياضي وإنجليزية طليقة يعمل عاملا اجتماعيا في كونيكتيكت. ومثلما فعل عديد من الأشخاص من المقربين لبيبي دوڤالييه، يشير كلامه ضمنا إلى أن الرئيس كان مسؤولا بالاسم فقط، في حين كانت لحاشيته سلطة عظيمة. "حتى أننا اخترنا زوجة لجان كلود. كانت أجمل، وأحسَنَ ثقافة، وأكثر ذكاء من ميشيل. بيد أنه كان يريد أن يسلك طريقه الخاص هذه المرّة فدفع ثمنا باهظا لوقوعه في الحب، إذ ثار الناس عليه عندما بدأت ميشيل، وهي خلاسية، وتمسك بزمام الحكم. فقد استخدم الخلاسيون لون بشرة ميشيل ليُطالبوا بالعودة إلى الحكم وليؤكدوا، في ذات الوقت، على عدم

أهمية دوڤالييه الذي اقتصر دوره آنذاك على دور رجل واجهة". يهزّ باتل رأسه بالموافقة. باتل رجل ضخم عريض المنكبين يتحدث الإنجليزية بلكنة فرنسية واضحة. "كان جان كلود مختلفا تماما عما وصفوه. لعبت كرة القدم معه عندما كنا في الثالثة عشر. كان فتى مهذبا، بل وخجولا أيضا. تَخيَّل أنه عندما كان رئيساً لم يُدخّن قط أمام الناس كي لا يُعطي مثالا سيئا! لا ريب أنه كان صغير السن آنذاك. بل لعله كان فتيا جدا. أما الآن فإنه أكثر حكمة. وسيكون رئيسا ممتازا".

تتجمّدُ قطع الدجاج في أطباقنا بينما نتحدث لتمضية الوقت إلى أن تصير الساعة الواحدة صباحاً، السابعة صباحاً بتوقيت باريس. في الأخير يُعلن باتل "بمقدورنا الآن أن نُهاتف فخامته".

بقيت النساء اللواتي كُنّ معنا على العشاء، موظفات بدينات يعملن في مصارف ودوائر بريد في ضواحي المدن الأمريكية، في غرفة الجلوس حيث تمددن على أرائك من المخمل الأحمر يستمعن إلى موسيقا السبعينيات. أما نحن فتسللنا كالمتآمرين إلى قبو المنزل المليء بالتحف، والثلاجات القديمة، وعلب الطلاء، وكراس مكسورة. ثمة هاتف أبيض على الطاولة الوحيدة. يُفتِّش الدكتور باتل في جيبه ثم يُخرج بطاقة هاتفية كتلك التي يستخدمها المهاجرون في نيويورك ليتصلوا بأهلهم دون أن يدفعوا مالا كثيرا. يطلب رقماً طويلاً، الرقم الرئاسي، ثم يبتسم وينحني للهاتف كما لو أن دوڤالييه دَخَل الغرفة "سيدي الرئيس، كيف حالكم؟ أنا فرانز. الضيف الذي أخبرناكم عنه موجود معنا هنا. أظنّ أن بمقدورنا أن نثق به سأعطيكم إياه. احترامي لمدام ڤيرونيك".

يتحدث الرئيس ببط شديد كما لو كان يتحدث في نومه "نعم. نعم. لديّ... بعض... الذكريات... السيئة... من.. اجتماعات... ولقاءات...

مع... صحفيين... لا يريدون... سوى.. أن... يستغلوا... اسمي. بيد أني أوافق على لقاءك".

نظر إلي مرتبكا سائق سيارة الأجرة التي استقليتها عند الثانية صباحا "البرونكس مكان خطر. بيد أنني لا أخاف بسهولة. أنا من سيراليون". سيراليون؟ أغلقت الكراس الذي خصصته لدوڤالييه وأخبرته أنني قابلت مؤخرا فالنتين ستراسر، الديكتاتور السابق «لأرض الماس» البالغ من العمر ثلاثة وثلاثون عاما. ستراسر في لندن، ولا يزال يتمتع بهيئة عارض أزياء، بيد أنه مشردٌ يحيا حياة الكفاف. انفجر السائق ضاحكا. "فالنتين؟ كنت أحد مستشاريه الماليين. الطريق إلى مانهاتن طويلة، وسأقص عليك كل شيء عنه. كان ألعن من دوڤالييه، صدقني".

لم يستطع جان ـ كلود دوڤالييه العودة إلى هاييتي حتى الآن. لا يزال يدرس الألواح الشمسية كما لا يزال يزعم بأنه يعمل «بنكران للذات» لأجل مستقبل هاييتي وبعثها.

في عام 2000 أُعيد انتخاب جان ـ برتراند أريستيد، الكاهن الذي جُرِّد من منصبه فصار رئيسا للبلاد من عام 1990 إلى عام 1991. بيد أن الحكومة الأميركية التي أعادته إلى الحكم عندما غزت هاييتي عام 1996 تزعم بأن الانتخابات لم تكن نزيهة. وشيئا فشيئا يغدو أريستيد أكثر شبها بالطغاة الذين سبقوه.

لا يزال توتو كونستان، الذي وُجِدَ مذنبا وحُكِمَ عليه لجرائم ضد الإنسانية، يبيع العقارات في كوينز دون أن يعكّر أحد صفو أعماله.

يعيش كارل دورليان، أحد الجنرالات الهاييتين الذين حُكِمَ عليهم مع

كونستان، في فلوريدا ومعه فيزا حقيقية مثل بقية أعضاء اللجنة السياسية الذين سيطروا على الحكم عقب الانقلاب على دوڤالييه. أصاب دورليان حظا موفقا: فقد ربح 3.2 مليون دولار في اليانصيب. بعدئذ أصابَهُ حظ عاثر: اعتُقِل وأُرسل إلى هاييتي.

اختفت ميشيل بنيت تماما حيث تعيش الآن حياة غُفلا متنقلة، تحرص على أن تخفي أدقّ تفاصيلها عن الناس. عام 1997 حاولت حكومة هاييتي أن تجمِّد جميع الحسابات المصرفية الموجودة باسمها في الخارج بعد أن اقتنعت بأن بيبي دوڤالييه كان من الفقر بما لا يدع مبرراً لأي محاولات أخرى.

لا يزال بيبي دوڤالييه يُعلِن على موقعه الإلكتروني الذي يفتح على صفحة سوداء تبعث على الخوف «**هاييتي، إننا نقدِّم لك إيماننا وشجاعتنا**».

لا يزال الڤودو دين هاييتي، ولا يزال بابا دوڤالييه واحداً من آلهته.

ينظر بيبي دوڤالييه إلى تقلبات مسيرته نظرة فلسفية متجردة. يعرف بأنه سيحظى بفرصة ثانية في مطلق الأحوال، حتى وإن أبقاه أريستيد خارج هاييتي وأخفق أنصاره من البرونكس في إعادته إلى الحكم، إذ ستهتم آلهة الڤودو بالأمر. وعلى الرغم من تردده في ارتداء عباءة والده، إرثه الذي ورثه عنه، إلا أن هذا الإرث لابد أن يضمن له مكانا دائما في بانتيون الڤودو. ولعل بمقدوره هناك أن يباشر مسيرة جديدة كإله.



منغيستو

أذكُر عندما كان هذا المريمي يأتي إلى القصر بصفته نقيبا في الجيش. كانت والدته خادمة في البلاط. لا أعرف من ساعده ليتخرج من مدرسة الضباط. صغير القدّ، نحيل الجسم، دائم التوتر، بيد أنه واثق من نفسه. على أية حال، كان ذلك هو الانطباع الذي يعطيه. كان يعرف بنية البلاط، كما كان يعرف من يَعتقل ومتى، كيما يشل حركة القصر، فيجعله يفقد سلطته وقوّته، ويحوّله إلى صورة عديمة الفائدة بحيث صار يقف اليوم متهالكا ومهجورا.

من الإمبراطور لـــ ريتشارد كابوسشنسكي

"كيف.... حالي؟"

يكرر الكولونيل منغيستو هايل ـ مريم السؤال كأنه مسألة رياضية بالغة التعقيد. يُقلِّب التفكير فيه، تاركا إياه معلَّقاً في الفراغ لثوان تبدو بغير نهاية. يقف متردداً، ربما يغريه أن يعطيني جواباً صحيحاً.

ينظر إلى الفاكس الذي أرسلته من لندن قبل بضعة أيام. استغرق الأمر مني شهوراً قبل أن أجد رقم هاتفه؛ لأن أحدا لم يعرف كيف يقتفي أثره. حتى الصحفيين الجسورين من صحف المعارضة الزيمبابوية، الجاهزين للمخاطرة بأي شيء إن كان يُزعج نظام الرئيس روبرت موغابي، لم يقدروا على اقتفاء أثره. وفي الأخير أتاني زميل أمريكي يعيش في مدينة هرر برقم هاتف. اتصلت مرارا وتكرارا بيد أن أحدا لم يُجب على الهاتف قط.

إلى أن ردّ رجل على الهاتف ذات يوم. تحدّث الرجل بحذر، وبإنجليزية متلعثمة. تردَّد الرجل في التعريف بنفسه وتحدَّث عن الكولونيل بضمير الغائب، بيد أن صوته كان نفس هذا الصوت.

كان ذاك الرجل هو الكولونيل نفسه، وطلب مني أن أرسل رسالة بالفاكس أورد فيها الأسئلة التي أُريد طرحها.

وبينما ينظر إلى الورقة الآن، يتظاهر منغيستو بأنه يقرأ الأسئلة ثانية. يأخذ نفسا عميقا كما لو كان يريد أن يسيطر على شلال الكلمات الذي سيفلت من شفتيه إن هو لم يفعل ذلك. "كيف حالي؟ لا أزال حيا أُرزق. دعنا نقول أنني بخير".

يبدو الأمر مستحيلا، بيد أنه حقيقي: فالصوت الناعم، المتردد، الذي تقطعه التنهدات هو صوت منغيستو، الثوري عديم الرحمة الذي دمَّر أقدم مملكة في أفريقيا وأرسل آلافا من معارضيه إلى فِرق الإعدام خلال عملية ما أسماها، بكل فخر، «حملة الإرهاب الأحمر». الديكتاتور اللينيني الذي رَحَّل مئات آلاف القرويين «لمصلحتهم الخاصة». النجاشي الأحمر الذي جعل أطفال أثيوبيا الإقطاعية يخرجون في مسيرات وهم يرتدون بزّات الضباط السوفييت. حاكم أثيوبيا المطلق من شهر شباط عام 1977 إلى أيار عام 1991، الذي زاد بلده فقرا بينما بنى أقوى جيش في قارة أفريقيا مجهَّز بدبابات، وصواريخ، وطائرات بقيمة اثنا عشر مليار دولار.

بيد أن ذلك لم يكن كافيا. فعلى الرغم من أن المتمردين كانوا يفتقدون إلى المال والأسلحة الثقيلة، إلا أنهم هزموه مع ذلك. والآن، يتبعثر الركام المحترق لدبابات منغيستو فوق أرض أثيوبيا، نُصُبٌ تذكارية صدئة تذكّر بفصل محزن من فصول الحرب الباردة في أفريقيا.

اعتقد منغيستو في البداية، عندما كانت الثورة في أوجها، بأنه قادرٌ على كل شيء، وبأن كل شيء كان مباحا له.

كانت الثورة التي جاءت بمنغيستو إلى الحكم ردّا على المجاعة المُهلكة التي شهدها العام 1972.

فجأة بدا هيلا سيلاسي، إمبراطور أثيوبيا الأسطوري، «الأسد الذي قهر قبيلة يهوذا والمدافع عن الدين الأرثوذوكسي» هَرِما وبعيد المنال وغير مبال بمعاناة شعبه. وعندما قام منغيستو ومجموعة من الضباط الشبان باعتقال الإمبراطور في أحد أيام شهر أيلول عام 1974، كان الأمر أشبه بسد ينفجر: التجلّي الثاني للثورة الأفريقية التي كانت تجتاح القارة، ثورة ضد الإقطاعية ولأجل الديمقراطية.

خلال الأشهر القليلة التي أعقبت ذلك، وُضِعَ الإمبراطور قيد الإقامة الجبرية، حيث احتُجز في قصره مع أسوده التي أحبها. وبينما كانت فصول مسرحية الثورة تتكشف، صارت الأسود تمثّل ماضي الأمة المضطرب. عندما كان أعضاء اللجنة السياسية العسكرية الشبان يأتون إلى القصر لاعتقال أحد وزراء هيلا سيلاسي أو أحد مستشاريه النبلاء. كان بمقدورهم سماع تلك الوحوش وهي تعوي، معترضة على مصابها، إذ لم يبال أحد بالاعتناء بها منذ اندلاع الثورة وانهيار البلاط الإمبراطوري. كانت رائحة قذارتها النتنة تعمُّ القصر.

وسرعان ما نَفِدَ المرشحون للاعتقال من عند الحكام الجدد وتوصلوا إلى قناعة مفادها أن مجرّد وجود هيلا سيلاسي، الذي اعتبره القرويون شبه إله، كان يُمثِّل تهديدا للثورة الاشتراكية. وهكذا في أحد أيام العام 1975، عندما ذهب منغيستو إلى القصر كيما يرى إن كان النجاشي نيغستي، ملك الملوك (أو الرجل العجوز المجنون كما كان يدعوه) لا يزال على قيد الحياة، وجده يقرأ كتاباً بينما يرقد بسلام في سريره العظيم المصنوع من خشب الجوز، فحمي غضبه وخنقه.

أو هذا ما يقوله الناس. لكنّ منغيستو يُنكر ذلك. "لم يكن ثمة حاجة لذلك" يقول متبرّما. "كان هيلا سيلاسي رجلا عجوزا، مريضا، مكروها من الجميع. كانت لديه في الماضي أفكار تقدمية حديثة، إلا أن الشعب طلب منّا أن نتخلص منه، وهذا بالضبط ما فعلته ورفاقي الضباط. لم يكن بوسعنا أن ننقذه".

كيف مات إذاً؟ يتجاهل منغيستو السؤال بهزّة من كتفيه، موحيا بأن هذه التفاصيل تافهة إذا ما قورنت برؤيته الثورية. "مات ميتة طبيعية على حد علمي. لا أنكِرُ أن عديدا من رجالي كانوا ليفرحوا بأن يقتلوه بأيديهم العارية انتقاما لآبائهم وأشقائهم الذين فقدوهم بسببه. لم يَقُل لي الطبيب الذي كان يعتني به أي شيء عن تدهور صحته، ولذلك لم أقدر بأي شكل من الأشكال أن أتحقق شخصيا مما حدث".

دُفن الإمبراطور في الحديقة، في صندوق إسمنتي تحت مرحاضٍ عسكري. كان لقُربُ مكان دفنه من مكتب منغيستو دلالات رمزية. لعل الكولونيل لم يصدّق التقرير الطبي وأراد أن يُراقب الإمبراطور بالرغم من أنه ميت.

بعد ربع قرن جمع القدر مرّة أخرى هيلا سيلاسي الأرستقراطي ومنغيستو الثوري؛ الحاكم المطلق ذو النسب الذي يعود إلى الكتاب المقدّس والولد القادم من الأقاليم. فعلى غرار أسود الإمبراطور الشهيرة، تلك الأسود التي لطالما احتقرها، يعيش الكولونيل في قفص في العراء، وهناك يطوف كحيوان جريح.

وبرغم الإحباط، لا يزال منغيستو هايل ـ مريم حيا يرزق وبصحة جيدة، حيث يعيش في ضاحية سكنية في مدينة هرر. ليس ثمة ما يميّز

المنزل الذي يعيش فيه. فالمنزل صغير، يحيط به مرج أخضر، سقفه واطئ كسقف كوخ كولونيالي قديم، يتسلق على جدرانه نبات معترش فيصبغ زجاج النوافذ بلون باهت. يبدو المنزل مهجورا. بيد أن ثمة رجلان قويان يحرسان المكان خارجا، ليلا نهارا، كي يردعا المارة الفضوليين عن اختلاس النظر. يقف هذان الحارسان هناك كيما يتركا العالم حرا طليقا ومنغيستو سجينا.

يحيط بهذا القفص الجميل ذي الغرف الست قفص آخر لا ريب أن الفرار منه أكثر صعوبة: زيمبابوي.

يبلغ منغيستو الآن السادسة والستين. يتجعد شعره الأشيب فوق رأسه دونما ترتيب. في الأيام التي يشعر فيها بالتفاؤل، يتخيل بأنه ليس مسجونا على الإطلاق. "لم يتخلَّ أصدقائي عني، إذ لا يزال لدي أصدقاء مهمون في البلدان النامية وخصوصا في أفريقيا. لكنك، بالطبع، لا تتوقع مني أن أذكر أسماء".

أما في الأيام التي يشعر فيها بالتشاؤم ـ وما أكثرها ـ فيلفه اليأس. "أين لي أن أذهب؟ سيتعرف الناس إلي أينما ذهبت فأنا، في النهاية، منغيستو".

وصل الكولونيل إلى هرر عام 1991 كثائر أطاحت به ثورة جديدة. وكما حصل مع جان ـ كلود دوڤالييه قبل خمسة أعوام وزعماء آخرين لا حصر لهم ولا عدد قبل بيبي دوڤالييه، تمّ نقل منغيستو في طائرة أرسلتها على عجل الحكومة الأمريكية، التي يبدو بأنها تتحلى ببراعة في تخليص الطغاة الساقطين من الخطر بصورة فعالة. ففي حالة منغيستو، خطط للعملية هرمان «هانك» كوهين، ومن بعده وكيل الوزارة ووسيط بين الحكومة والثوار.

في ذاك الوقت بدت زيمبابوي، البلد الذي كان منغيستو ذاهبا إليه، ديكتاتورية يمكن التعويل عليها في ظل الرئاسة الأبدية للرفيق روبرت موغابي. استقر منغيستو هناك حيث عاش حياة هادئة ومريحة، لكنها غير مترفة. وبحسب بعض الزيمبابويين، فقد جلب منغيستو معه ثلاثة ملايين دولاراً نقداً. مبلغ متواضع، ربما لأن الوقت لم يتسن له كي يضع يده على غنيمة أكبر. أشيع في أثيوبيا بأنه يساوي أكثر من ذلك بكثير، لكن الكولونيل ظلّ حتى اللحظة الأخيرة غير مصدّقٍ أنهم سيطيحون به، ورأى بأنه لا داعي لكي يخطّط لحياة المنفى، بل آثر أن يشغل نفسه بهجمات عسكرية مضادة محكمة لكنها لم تكن مؤثرة.

تغيّرت الأحوال في هرر بعد عقدٍ من وصوله. فلم يعد الكولونيل يتردد على حانة أحد الفنادق في المدينة حيث اعتاد أن يجلس لاحتساء الويسكي بأريحية رجل سيدفع حساب الفندق خلال يوم أو يومين ويعود إلى منزله. غَيَّر الكولونيل عاداته لأن رجال موغابي أمروه أن يلازم منزله، ولأنه أحس بأن الأوضاع تغيّرت في هذه المدينة المنظّمة شديدة الشبه بالمدن الإنجليزية: انتشرت فيها نفحة من ذات الرائحة التي عمّت أرجاء أديس أبابا في الأيام المضطربة التي سبقت فراره.

إنها رائحة الفساد النتنة. ففي كل شهر يمضي تصبح زيمبابوي أشدُّ فقرا وأقل استقرارا، كما تكثر الشائعات عن الخيانة، والغدر. ثمة كلام يُنذِر بوقوع مصيبة مفاده أن الرئيس يخطط للفرار خارج البلاد عند الضرورة. لم يعد الناس يخشون الحديث عن أشياء كانت ممنوعة قبل وقت قصير فحسب، كلام عن أفكار جديدة، زعماء جدد، بل وثورة جديدة.

يدرك منغيستو بأن الوضع الذي يزداد تأزّما قد يُجبِر الرفيق موغابي

على الخروج إلى المنفى، على أقل تقدير. فإن حدث ذلك، سيأتي الوقت الذي يتركه فيه حرّاسه دونما حراسة، عندئذ سيكون بمقدور أي شخص أن يدخل إلى قفصه. بل ربما يدخله شخص أرسلوه من أديس أبابا في مهمّة انتقام. كما يدرك بأن الأميركيين لن يبذلوا جهدا في المرّة القادمة لإيجاد منزل صغير آخر به في إحدى بقاع العالم الهادئة.

إن كان قد تعلَّم شيئا من سقوطه فهو أن بمقدور الأصدقاء أيضا قد يخونوا.

في تشرين الثاني عام 1999 حاول منغيستو، القَلِق والغاضب، أن يفرّ من قفصه. طار إلى جوهانسبرغ مستخدما جواز سفر زيمبابويّ، وحجز لنفسه موعدا في عيادة غاردن سيتي كي يعالج قلبه المريض. صحافة جنوب أفريقيا سربت الخبر ما نجم عنه فضيحة دولية. طلبت الحكومة الأثيوبية من الجنوب أفريقيين ترحيله إلى أديس أبابا على الفور، كونه مطلوب هناك بتهم ارتكاب جرائم ضد الإنسانية، تهم لا شك أنها ستجلب له عقوبة الإعدام. وعندما واجه هذا الخطر، ترك منغيستو علاجه وطار عائدا على الفور. ورغم أنه فرّ قبل أن يجري اعتقاله ببضع ساعات، فإنه عاد إلى قفصه طواعية.

"أولاد حرام ناكرون للجميل" يُهسهِسُ، بينما لا تزال نظرته فولاذية كما كانت أيام الإرهاب الأحمر. "لقد ساعدتُ وموّلت ANC المؤتمر الوطني الأفريقي عندما كانت جنوب أفريقيا لا تزال في قبضة سياسة التمييز العنصري. وقفت إلى جانبهم عندما كانوا بحاجة إلي. والآن عندما أحتاجهم، يقولون بأنهم لا يقدرون على المساعدة. أكدوا لي قبل أن أغادر هرر أنه لن يكون هناك أي مشاكل بما أنني أسافر لأسباب إنسانية

وصحيّة. ومع ذلك، كانوا مستعدين لتسليمي إلى أثيوبيا". وبعد توقّف يضيف "كنت أظن بأن الذين يسيطرون على الحكومة في بريتوريا هم رفاقي في السلاح سابقا. كنت أظنّهم أصدقائي وزملائي".

تربط «رفاق السلاح السابقين» الذين جاؤوا إلى الحكم إلى أفريقيا في السبعينيات والثمانينيات علاقات تضامن وتنافس معقدة، كالعلاقات التي تربط أفراد عائلة ما. لكن وعندما نأتي إلى موضوع مانديلا، هذا الزعيم الذي يحترمه حتى أعداؤه السابقين، يكتفي منغيستو بالقول "أُعجبت به عندما كان في السجن لما يحمله من عزيمة أخلاقية". لكن هذا المديح سرعان ما يخضع لبعض التعديلات: "لا أرى سوى نتائج محدودة للفترة التي قضاها في الحكم. لم يعد لسياسة التمييز العنصري وجود، ظاهريا على الأقل، فلا أحد يعرف ما تفعله الحكومة الجديدة في جنوب أفريقيا".

لا يملك منغيستو سوى أن يُطري مضيفه، الرفيق موغابي. فعلى الرغم من الضغط الذي يتحمله من مصادر مختلفة كثيرة، لا يزال موغابي يرفض ترحيل منغيستو. فهو يعتبره بطلا ولا يفتأ يكرر بأنه "ساهم في كل حرب تحرير وقعت في طول القارة وعرضها".

ليس هذا مجرد إقرار بالفضل. فثمة هدف سياسي وراء تضامن موغابي المطلق مع النجاشي الأحمر. إن كلامه توبيخ لنيلسون مانديلا وتحذير لخليفته، ثابومبيكي، بأن أبطال صراع تحرير أفريقيا ينوون أن مساندة بعضهم بعضا، خصوصاً في أوقات المحن. إن مغزى كلام موغابي هو: انظروا، لقد التزمت برفيقنا منغيستو، لذلك لا تتخلوا عني بينما أعاني الآن من المشاكل. تذكّروا السبعينيات، تذكّروا التدريب العسكري الذي درّبتكم إياه، تذكروا ضيافتي.

إضافة لذلك، فإن الكولونيل مفيد لموغابي بطريقة أخرى. فعندما

يلومه الصحفيون الغربيون لإيوائه طاغية متهما بجرائم جماعية، يُحب موغابي أن يذكّرهم بأن الأميركين هم، في المقام الأول، من جلبه إلى هرر. فالأميركيون الذين يتهمونه الآن بأنه طاغية هم ذاتُ الأميركيون الذين كانوا توّاقين لمساعدة طاغية آخر عندما كان ذلك يناسبهم.

بل لقد ذهبت واشنطن، في حالة منغيستو، إلى حد أنها عرضت أن تدفع نفقاته، بيد أن موغابي رَفَضَ. "قلت لهم أنني لست بحاجة لنقودهم، وأنه بمقدوري أن أتدبّر الأمر وحدي، على الرغم من أنني كنت مجرد أفريقي فقير".

لم يعد منغيستو على اطلاع بهذه الحسابات السياسية. فعلى عكس الأيام الأولى من منفاه، مُنِعَ مؤخرا من محاولة الاتصال بالزعيم. وهكذا، يكتب منغيستو مذكراته ويعاقر الخمر. عزاؤه الوحيد هو الهاتف. فالحكومة الزيمبابوية تضمن له اللجوء السياسي، وتدفع فواتير هاتفه التي تصل إلى عدّة آلافٍ من الدولارات شهريا. وبدوره، يرد منغيستو على هذه المعاملة الطيبة بأن يعمل كمستشار لشرطة موغابي السرية المكروهة المعروفة باسم مكتب الاستخبارات المركزي.

تخلى عنه بعض أفراد حرسه الخاص الذين فرّوا معه من أثيوبيا ولجئوا إلى السفارة الكندية، يشتكون بأنه "يضربنا عندما يكون مخمورا".

لقد أكد تخليهم عنه إيمان منغيستو الراسخ بأنه محاط بالخونة. والحق أن هذا شك لطالما أقضّ مضجعه.

عندما كان رئيسا، حكم منغيستو البلاد بمساعدة جهاز أمن قوي إضافة إلى مئات آلاف الجواسيس. كان جهازا مبنيا على غرار جهاز الأمن في ألمانيا الشرقية، واحد من البلدان التي أُعجبَ بها كثيرا وأراد

زيارتها بصورة متكررة. وبينما يعيش الآن في منفاه، يغدو منغيستو شكّاكاً أكثر. فقد استغرقت المباحثات المعقدة التي أفضت إلى لقائي معه ثمانية أشهر. فهو يُدرِك أن حديثه معي ينكسر إنما يُعرّضه لخطر الترحيل.

على أية حال، ما إن ينكسر الجليد حتى يبدو من المستحيل إيقاف سيل الكلمات الذي يخرج من بين شفتي هذا النجاشي الأحمر. "أنا رجل عسكري، لم أفعل ما فعلت سوى لأنه كان لا بد من تحرير بلادي من القبليّة والإقطاعية. إن كنت فشلت، فلأنهم خانوني فحسب. أما ما يدعى بالجرائم الجماعية فليس أكثر من مجرد حرب دفاعا عن الثورة وعن نظامٍ استفاد منه الجميع".

من المؤكد أن أثيوبيا منغيستو كانت تجربة استثنائية في مجال الهندسة الاجتماعية. فقد صادر منغيستو أملاك الإقطاعيين الكبار والكنيسة الأرثوذكسية الأثيوبية، هذه الأملاك التي شكّلت 80% من الأراضي الخصبة. كما ألغى الحكم الملكي وأعلن «ثورة وطنية ديمقراطية»، جاعلا «الاشتراكية العلمية» القانون الذي يحكم البلاد.

عام 1982، عندما كان ليونيد بريجينيف الزعيم في موسكو، و«العم» أنور خوجا في تيرانا، وفي وارسو جنرال صارم بنظّارات سوداء يدعى فويسيتش ياروزلسكي، وقع منغيستو بلا حول ولا قوة تحت تأثير تعويذة أوروبا الشيوعية فأعاد تسمية بلاده جمهورية أثيوبيا الديمقراطية الشعبية، دولة يحكمها حزب واحد ـ حزب العمال الأثيوبي ـ بزعامة الأمين العام منغيستو. كانت الوثائق الرسمية مُصاغة ببلاغة سوفييتية. اكتشف موظفو الحكومة «ثوارا مناهضين» يقطنون مدن الأكواخ في أديس أبابا. كان نظامهم « ديكتاتورية البروليتاريا». حضر منغيستو اجتماعات قمة دول

الكتلة الشرقية. وكان الجيش الأثيوبي، في كل عيد للعمال، يقوم بمسيرات على طول الشارع الرئيس في أديس أبابا الذي تطل عليه صورة عظيمة للينين. بل لقد قلّدت أفضل وحدات الجيش «مشية الإوزة» التي يُعرف بها جيش ألمانيا الشرقية. وبالمقابل، أرسلت موسكو آلاف «المستشارين العسكريين» لإخماد ثورات الانفصاليين في أوغادين وأريتريا وصدّ الهجمات القادمة من الصومال. بعد ذلك جاء جنود فيدل: زاد عددهم في إحدى المرات على 18000 جندي كوبي يحاربون في أثيوبيا لأنهم معتادون على المناخ المداري وحرب العصابات أكثر من الروس.

عُرفت اللجنة السياسية العسكرية التي تزعمها منغيستو باسم Dreg (كلمة أمهريّة تعني اللجنة). حكمت هذه اللجنة، التي وُصفت أساسا بأنها «مؤقتة»، البلاد قرابة عقدين.

بدأت اللجنة كحكومة معتدلة تسعى للتحديث قوامها شبان مثقفون. لكنها تحولت ديكتاتورية عسكرية دموية. بعد ثورة عام 1974 بثلاثة أعوام، تخلّى منغيستو عن الإدعاء بوجود «لجنة جماعية» تحكم البلاد ونصّب نفسه حاكما مطلقا ليشنّ حملة تُعرف باسم الإرهاب الأحمر.

كانت أثيوبيا تمرّ بأحلَك أوقاتها. فعندما أَعدم جنود منغيستو «أعداء الشعب»، رفضوا تسليم الجثث إلى أن يدفع ذوي الميت فدية تساوي ثمن الطلقات التي استخدمت في الإعدام. وتُقدّر منظمة العفو الدولية عدد الذين قُتِلوا خلال حملة الإرهاب الأحمر بين عامي 1977 و1978 بنصف مليون شخص.

لكن مع كل ما جرى، لم يتُب الديكتاتور السابق. "نجوت من تسع محاولات اغتيال. كانت البلاد في فوضى عارمة. كانت إحدى الجماعات التي كانت علاقتها بالحكم البائد قويّة بوجه خاص تهاجم العمال الذين

أرادوا التقدّم. جاء ملايين الناس إلى العاصمة مُطالِبين «إما أن تدافع عنا أو تعطينا السلاح كيما ندافع عن أنفسنا». كانت معركة وكل مافعلته هو أن أخوضها".

ومع ذلك، لا ينفكّ منغيستو يتساءل إن كانت الأمور في الماضي ستؤول مآلا مختلفا. وضع الفاكس جانبا، وها هو يجلس الآن في مكتبه الصغير. ثمة خريطة لأثيوبيا تتدلى على الحائط. "قصدت الأميركيين قائلا، أنا معكم؛ لطالما كان بلدانا صديقين، بل لقد أرسلتْ أثيوبيا قوّاتا كي تحارب إلى جانب قواتكم في الحرب الكورية. نحن الآن بحاجة إلى مساعدتكم كيما نعيد بناء بلدنا ونطوّره"، يتوقف لبرهة، "ردّوا بأنهم منشغلين تماما بفيتنام، وأن إفريقيا لا تهمهم من الناحية الإستراتيجية. قصدت الصين، بيد أنهم خذلوني. ولهذا ذهبت إلى موسكو، إلى ليونيد بريجنيف. لا أزال أتذكر أول مرة صافحني فيها معانقا في الكرملين".

يصمت منغيستو، بينما يستمتع بذكرى ذاك المشهد. ففي ذاك اليوم، اعتمر الرئيس الأفريقي قبعة ستراخان كتلك التي رأى زعماء بلدان الستار الحديدي يعتمرونها. كان الطقس في موسكو باردا، لكن بالنسبة للضابط الشاب القادم من الريف الأثيوبي النائي، ما كان المناخ السياسي ليكون أكثر دفئا.

"شرحتُ له الوضع فأجابني (كولونيل، بلدي على استعداد ليعطيك كل ما تظن بأنك تحتاجه، باستثناء القنبلة الذرية). وهكذا كان. لقد ساعدنا اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية مساعدةً ملموسة، لا بالكلمات فحسب. منذ تلك اللحظة، صار بريجنيف مثل أب بالنسبة لي. التقينا حوالي اثنتي عشرة مرّة أخرى، جميعها في الإتحاد السوفييتي. في كل

مرة، كنت أقول له قبل أن أخبره عن مشاكلنا، رفيق ليونيد، أنا أبنك، وأنا أدين لك بكل شيء. أحسست بصدق بأن بريجنيف كان مثل أب لي".

فاجأ الخيار الذي أقدم عليه منغيستو الدبلوماسيين تماما. فلطالما تلقت النخبة الحاكمة في أثيوبيا تعليمها في الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى. كما أن الانتصار الذي حققه الحلفاء في الحرب العالمية لثانية وضع حدا للاحتلال الإيطالي لأثيوبيا فشجّع هيلا سيلاسي العلاقات مع الأمم التي أعادته إلى الحكم. ومع ذلك، لا يشعر منغيستو بأن الأميركيين خانوه. فكونه جندي، فهو يفهم كيف أن الحرب في ڤيتنام صَعَّبت على الأميركيين أن يفكروا بدولة أخرى تحيا في ظل حمايتهم. لا يزال منغيستو يحتفظ بكرهه للرجل الذي خانه وخان بريجينيف: ميخائيل غورباتشوف.

"عرفته عندما كان عضوا شابا في اللجنة المركزية للحزب، قبل أن يدخل البوليتبورو". يحبّ منغيستو أن يتلفظ بتلك الكلمة. تتسارع انجليزيته، التي تكون مترددة في العادة، كلما كان الحديث عن التسلسل الهرمي السوفييتي القديم، هذا التسلسل الذي طبقه في أثيوبيا. "بدا شخصا لطيفا، صادقا، كرّس نفسه لقضية الاشتراكية. كان حميما وودودا معي. لكن ما إن وصل إلى الحكم عام 1985 حتى بدأ يتحدث عن **البيروسترويكا** و**الغلاسنوست**. آخر الأمر اتصلت به من أديس أبابا كي أُرتب موعدا معه، فقد كنت بحاجة كي أعرف ما يدور. ذهبت إلى موسكو كي أسأله عن معنى هذين الشعارين اللذين لم أفهمها كما لم يفهمهما الشعب السوفييتي. قلت له، (رفيق غورباتشوف، لنكن صادقين مع بعضنا البعض. إن كان ثمة تغيّر في الاتجاه فأخبرني كيما يكون بمقدورنا أن نعدّل اتجاهنا أيضا، فقوّتكم قوتنا، وضعفكم ضعفنا)".

بيد أن حماسة منغيستو لم تُثر أي رد فعل لدى الزعيم السوفييتي. لقد

أراد غورباتشوف أن يضع حدا لحروب الإتحاد السوفييتي الاستعمارية. كان قد أعطى الأوامر بالانسحاب من أفغانستان، الذي كان سيتم بحلول عام 1990. كما أراد أن ينسحب من الصراع الدائر في القرن الأفريقي، هذا الصراع الذي بدأ منذ قرون مضت وبدا أن لا نهاية له. فقد ظهر بأن السبب وراء هذا الصراع لم يكن المناظرات الإيديولوجية وإنما النزاعات الإقليمية فحسب. وبعبارة أخرى، أراد غورباتشوف أن يتنصل من مبدأ بريجينيف في «تطوير لا رأسمالي» لمستعمراتهم السابقة، سياسة كانت قد ساهمت بانتشار الدول المؤيدة للسوفييت في القارات جميعها، كما كلّفت اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية الكثير من الأموال.

لعل غورباتشوف لم يكن راغبا بتوضيح ذلك لمنغيستو الوفي. وعوضا عن ذلك ابتسم وقال، "لا تقلق، رفيق منغيستو. لن أحيد مليمترا واحدا عن اللينينية الماركسية، فأنا فخورا بإنجازاتنا الاشتراكية، وسأظل كذلك".

إن كانت المناورة السياسية التي قام بها غورباتشوف مناورة مضلِّلة، فقد كان الوضع على الأرض معقدا أيضا. ففي حين كانت موسكو ترسل الأسلحة إلى الحكومة في أديس أبابا، بدأت أيضا بإرسال الأسلحة إلى جماعات انفصالية عدّة تحارب في أثيوبيا، مثل الأوغادين وتيغراي.

"بعد عدّة سنوات" يتذكر منغيستو بكلامه البطيء المحسوب "عندما كان المتمردون يتقدمون باتجاه أديس أبابا، اتصلت به طلبا للمساعدة فقال لي [اصمد. سنرسل لك الدعم. قد ينتقدونك، لكنك قدمت الكثير لأثيوبيا كي يذكرك التاريخ كرئيس عظيم. لقد نلت عن جدارة مكانتك في التاريخ لأنك بددت النظام الإمبراطوري البائد، وحدَّثت أمة من القرون الوسطى]. منافق! حتى أنهم منحوه جائزة نوبل للسلام! لقد أرسل السلاح إلى أعدائي

بينما أطراني بكلماته. لم أتصل به قط بعد هذا الحديث. عرفت بأنه يكذب. كان ثمة وقت عصيب يوشك أن يبدأ: لم نعد نعرف من هم أصدقاؤنا ومن هم أعداؤنا".

لا تزال تقضّ مضجعه ذكرى تلك الشهور الأخيرة المُذِلة التي قضاها في الحكم. يؤكد منغيستو أنه التفت مرة أخرى إلى الولايات المتحدة بعد أن تخلت عنه موسكو. "كان الرئيس .... ماذا كان أسمه؟ كارتر؟ كلا، انتظر.... الرئيس الذي تلاه. أوه، نعم، أتذكر، رونالد ريغان. رفض ريغان أن يساعدني" يقول منغيستو. لقد كان ريغان وغورباتشوف، بالنسبة إليه، وجهان لشيطان واحد. ويعود للحديث عن موسكو مرّة أخرى. "كان غورباتشوف وريغان متورطين في مؤامرة ضد التقدّم. لقد خان غورباتشوف العالم ككل، وليس منغيستو فحسب. دمَّر بلده كما دمَّر الحركة الاشتراكية الدولية برمتها، الشيوعية منها والقومية على حد سواء. جاء إلى الحكم قائلا بأنه أراد محاربة الفساد المستشري في الحزب الشيوعي القديم في الإتحاد السوفيتي، بيد أنه، في الحقيقة، لم يُرِد أن يُحسِّن النظام كي ينقذه، بل جاء كي يفككه".

في صيف عام 1991 كان المتمردون يتقدمون بثبات نحو أديس أبابا. نفذت قطع غيار طائرات الميغ من عند سلاح الجو الأثيوبي ولم يعد بمقدوره مهاجمة طوابير الأعداء. وقبل الإطاحة بمنغيستو بوقت قصير، عرض وزير خارجية إيطاليا، جياني دوميشيلز، التوسط بينهما، باسم الصداقة القديمة التي تجمع البلدين وباسم صفقات تجارية حديثة أخرى بينهما. "أخفقت محادثات الوزير الإيطالي السرية مع المتمردين. أخبرني دوميشيلز أن إيطاليا لا تقدر على مساعدتي"، يتذكر الكولونيل.

عندئذ تدخَّل الأميركين. لم يكن بمقدورهم أن يقدموا له أي مساعدة

عسكرية له، لكنهم قدّموا وسيلة الهروب. وكان ذلك لصالح البلد. قالوا بأنهم سيرسلون له طائرة تقلّه مع عائلته وبعض المؤيدين المقربين إلى مكان آمن.

قَبل منغيستو.

فرّ عديد من الأثيوبيين من الإرهاب الأحمر، ولم يجرؤوا على العودة إلا بعد عشر سنوات من سقوط منغيستو. أشرفت الأمم المتحدة عام 2001 على إعادة آخر 13000 لاجئ كانوا يعيشون في مخيمات في السودان وكينيا وجيبوتي واليمن.

في أديس أبابا، تسير ببطء محاكمات جرائم الحرب التي وقعت في أثيوبيا. ذلك أن الحكومة تفتقد إلى الوسائل اللازمة، ناهيك عن الإرادة، لوضع نهاية سريعة لمحاكمة مئة رجل متهمين بأنهم قادوا عمليات الإرهاب الأحمر. كانت جميع الأحكام أحكاما غريبة بالموت، ولا شيء آخر. وفي هذه الأثناء، يروي الشهود قصصهم. وشيئا فشيئا يتعلم الشعب الأثيوبي أن يروي على الملأ ما كان يُودَعُ في الماضي طيّ الذكرى الخاصة.

أدلى جيزو جيبر ـ مادين بشهادته ضد جسيجسي جيبر ـ مسكليل، أحد قادة المقاطعات التابعين لمنغيستو. قتل مسكليل والد جيزو، وقطع رأسه، ثم عرضه للبيع في مزاد في سوق في الهواء الطلق. قال جيزو "أخبرني بذلك الناس الذين كانوا في السوق في ذاك اليوم. قالوا لي بأن أحدا لم يشتر رأس والدي، على أية حال". قال جيزو بأنهم اتهموا والده ـ الذي كان يملك قطعة أرض صغيرة، بأنه إقطاعي وعدو لمنغيستو.

روى أحد الشهود الغُفل، "فقدت والدي عندما كنت في الثامنة. قتلوه

أمام منزل عمي. لن أنسى ما حييت يوم جاء عمي إلى المدرسة وأخذني. وطوال عدّة سنوات اتهمني رفاقي في الصف، بأنني ابن ثائر معارض. فيما بعد، رأيت قتلة والدي في السجن. لقد سامحتهم كما سامحني الله، بيد أني لا أقدر أن أنسى ما فعلوه، وأريد أن يعرف الجميع بذلك".

تَعجَّب شاهد آخر لم يرغب بأن نُعرِّف به "أي أيام أتذكّر! أتذكّر الرعب، اللاإنسانية، الذعر، السجن، التعذيب، أم الرجال الذين ماتوا في زنزانتي، أم الرجال الذين غادروا ذاك المكان. أتذكّر الأطفال الذين ولدوا في السجن، وكيف كانت أرجل أمهاتهم مُدمّاة من التعذيب. أتذكر الأمل الذي كنا نشعر به كل صباح عندما كنا نجتمع للصلاة فيما يخطِّط حراسنا ليوم جهنمي آخر. أتذكر كيف جلبوا خمسين قرويا أميا عصر يوم بائس، وحشروهم كلهم في زنزانة واحدة مع أطفالهم.... أوه، أتذكر جيدا كل ما حصل في عهد منغيستو. أتذكّر جيدا صديقي الجنرال ميريد نيغوسي، أتذكّر أولئك الناس الذين ساعدوني كي أكون اليوم هنا وأدلي بشهادتي. وفي أعماق قلبي، أتذكر إمبراطورنا. أتذكر كيف كانت الحياة: أتذكر جمال وعظمة بلدي أثيوبيا. لم يعد لذلك وجود اليوم".

لم ينجح منغيستو قط في كسب احترام النخبة الأمهرية في أديس أبابا، على الرغم من أنه حاول ذلك جاهدا. ففي حين شرع نظامه في تدمير الأساس التقليدي للمجتمع الأثيوبي، تاق منغيستو دوما أن يكسب رضاه.

أطلق ذات مرّة إشاعة مفادها أنه ينحدر من سلالة إمبراطور أثيوبي، على الرغم من أنه، حقيقة، جاء من كيفا، مقاطعة بعيدة في الجنوب الغربي، لم تستوعبها الثقافة الأمهرية إلا مؤخراً، وعلى مراحل. بيد أن

الأرستقراطيين الحقيقيين لم يزعجوا أنفسهم حتى بالإدعاء بأنهم كانوا يصدقونه.

كانت عائلة منغيستو فقيرة جدا، وقد انضم إلى الجيش للأسباب ذاتها التي دفعت بطغاة عسكريين أفارقة آخرين مثل جان بيدل بوكاسا وعيدي أمين للانضمام إلى الجيش: الهروب من الفقر، وإيجاد مكانه في هذا العالم من خلال ارتدائه بزّة محترمة. بيد أن منغيستو الجاد، المحب للنظام، والمكروه، لم يقدر قط أن يصبح أرستقراطيا متأنقا كأولئك الأرستقراطيين الذين التقاهم في البلاط الإمبراطوري في أديس أبابا. ولذلك درس منغيستو عظماء السياسة الدولية، «زملاؤه» كما يحب أن يسميهم. فقلّد لباسهم، وسلوكهم، والتمس صحبتهم قدر المستطاع. لقد شعر بأنه هو أيضا قد يصير رجل دولة.

"التقيت بعديد من الزعماء الأجانب"، يقول جذِلاً، إذ لا يزال يسعده أن يحس بأنه كان واحدا منهم. "بيد أن الرجلين اللذين أُعجب بهما واحترمهما أكثر من غيرهما هما الزعيم الكوري الشمالي كيم إيل سونغ وزعيم كوبا فيدل كاسترو. كانا بالغا الكرم. فيدل وطنيٌّ أصيل، ثائر حقيقي ورجل صادق جدا. لا أظن بأن العالم يفهمه جيداً. إنه إنسانيّ جدا. اجترح المعجزات في جزيرة كوبا الصغيرة، بالرغم من شحّ مواردها. أكنّ له احتراما عظيما. أما كوريا الشمالية فبلدٌ رائع، يكاد يكون ما فعلوه في وقت قصير أمرا لا يصدَّق. وعلى الرغم من صورته الكالحة في الصحافة الدولية، كان كيم إيل سونغ أكثر الرجال نشاطا. فعندما كنا نطوف معا في يخته الخاص، كان يشرب، يدخنّ، ويروي النكات، كان صديقا حقيقيا لأثيوبيا، فقد أعطاني محطة لتوليد الطاقة، وأحواضا للسفن، ومستشارين عسكريين، دون أن يطلب شيئا بالمقابل".

ومن المستغرب أن إيطاليا كانت أحد المتبرعين الأساسين لمنغيستو. ولهذا الأمر علاقة بالطرق الملتوية الفاسدة للسياسة الإيطالية أكثر مما له علاقة بأي شعور محدد بالصدقة. ففي الثمانينيات، أمطر موظفو الحكومة الإيطالية أثيوبيا بالمال اللازم لمشاريع تنموية ضخمة. كان ذلك، على الصعيد الرسمي، لأن إيطاليا ـ القوّة الاستعمارية التي احتلت أثيوبيا في الماضي ـ شعرت بواجب أخلاقي للمشاركة في تنمية البلاد. أما في الحقيقة، فقد كان وراء هذه العطيّة مصلحة ذاتية، إذ عادت بعض هذه الأموال إلى خزائن الأحزاب السياسية الإيطالية، بما فيها الحزب الاشتراكي الحاكم.

لا يتذكّر الكولونيل «أية مآخذ» على الحكومة الإيطالية. "سأكون ممتنا دوما لرئيس الوزراء الإيطالي بتينو كراشي لدعمه المشروع الزراعي في وادي تانابيل. كانت هبة سخية رائعة من إيطاليا". «هبة» ساهمت في تعزيز عملية تحويل الزراعة الأثيوبية إلى زراعة جماعية وأدت إلى ترحيل مئات آلاف القرويين إلى الوديان الخصبة في الجنوب، حيث روت السدود التي أقامتها إيطاليا حديثاً 20000 هكتار.

عام 1991 دمَّر الثوار الاريتريون والتغريون جميع هذه السدود تقريباً. فأثناء تقدمهم باتجاه أديس أبابا وفي غضون ساعات بُددت كل المبالغ الكبيرة من المال إضافة إلى مجمل الجهد البشري العظيم، أي كل الثمن الذي دفعه منغيستو كي يحصل على سدوده.

يعود تاريخ أثيوبيا إلى ثلاثة آلاف عام. كانت أمة مسيحية منذ حوالي العام 350 للميلاد. تزعم السلالة الحاكمة أنها تنحدر من سلالة منيلك: ابن سفاح لملكة سبأ والملك سليمان. ولطالما كانت الروابط مع

إسرائيل، الحقيقية منها والمزعومة، على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لأثيوبيا على مر القرون. ففي الثمانينيات والتسعينيات، نقلت إسرائيل جوّاً من أديس أبابا إلى تل أبيب آلاف اليهود السود الذين يُدعَون الفلاشا، وكان ذلك بموافقة الحكومة الأثيوبية. كان الفلاشا أحفاد قبائل يهودية قديمة عبرت البحر الأحمر بحثا عن وطن جديد. وعندما تمكن جيش موسوليني الضعيف التجهيز من اجتياح البلاد عام 1936، اختار هيلا سيلاسي ألا يلتجئ إلى عاصمة أجنبية، بل لاذ بدير قبطي أرثوذكسي في الأرض المقدّسة. كانت تلك طريقته في التأكيد بأن الجذور الثقافية للأمة كانت مرتبطة بالأماكن المقدّسة لماضيها التوراتي.

وطوال ثلاثة آلاف عام، لم تنظر أثيوبيا قط نحو الغرب، إلى داخل القارة الأفريقية، بل نظرت على الدوام إلى الشرق، نحو البحر الأحمر. لا يزال المرء يسمع في أديس أبابا اليوم كلاماً عن «الأفارقة» و«الأثيوبيين» كما لو كانت هاتان الفئتان تعزل واحدتهما الأخرى.

لكن من سخرية القدر أن المجاعة، هذه الكارثة التي تميّز أفريقيا عن سواها، لطالما حالت دون تحقيق أثيوبيا لطموحاتها. فقد حصدت مجاعة عام 1972، التي أدت إلى أولى الثورات ضد الإمبراطور، ما يتراوح بين 100000 و250000 ضحية. كما حصدت مجاعة عامي 1984 و1985 ما يقرب من مليون ضحية. وبالرغم من أن منغيستو استغل الغضب الشعبي الذي أثارته مجاعة 1972 في محاولته الوصول إلى الحكم، إلا أن منتقديه يقولون بأنه لم يُعر اهتماما بالمجاعة التي وقعت أمام ناظريه. لقد ركّز كلٌّ من هيلا سيلاسي ومنغيستو على الحرب الدائمة مع اريتريا للسيطرة على المنفذ إلى البحر الأحمر.

يرفض منغيستو أي مقارنة من هذا القبيل "ليس صحيحا أنني أبديت

قلّة اهتمام فيما يخص المجاعات. فما الغاية من بناء سد تانابيل وإعادة توطين سكان المناطق الريفية إلا ضمان عدم تتكرر مثل تلك المجاعات قط. لكن دعني أُعيد ما قلته مرّة أخرى: كنا في حرب، وكان لابد من إعطاء الأولوية للقتال وللانتصار فيها".

وبينما يستمر حديثنا، يغدو منغيستو أكثر انفتاحا. لا يزال حديثه بطيئا، إلا أنه ينفجر ضاحكا بين فينة وأخرى. يُسبغ عليه قميصه الكاكي مظهرا شديد الشبه بمظهر عسكري. يدور حديثه الآن عن الصومال، جارة أثيوبيا وعدوّها الدائم. ففي عام 1977 غزته الصومال بينما كان يعزز حكمه بحملة الإرهاب الأحمر. يتحدث منغيستو عن الصومال بدبلوماسية.

"نعم، كانت الصومال عدوي، بيد أني أشعر اليوم بالأسف للشعب الصومالي. لقد سمحوا لأنفسهم بأن يُقسَّموا إلى قبائل متحاربة". لقد نسي منغيستو بأن الصومال، على عكس معظم الأمم الأفريقية، لا وجود فيه لانقسامات قبلية، فما يقسمه هو الانتماءات العشائرية، وليست الإثنية. بيد أن منغيستو يرى، كما يرى معظم الزعماء الأفارقة الذين عاصروه، بأن «القبلية» هي الشر المستطير الذي تعاني منه أفريقيا ما بعد الكولونيالية. "بل لقد سطت أقلية على بلدي، وجرى تقسيمه إلى قبائل. وكما هي الحال في أفريقيا ككل، فإن أثيوبيا تتراجع، تتقهقر نحو الماضي".

لكننا نتحدث عن الصومال وسعيد باري، الذي حكم البلاد من مقديشو بينما كان منغيستو يحكم في أديس أبابا، أليس كذلك؟ "آه، سعيد!" يضحك منغيستو. "عرفته جيدا، بل جيدا جدا بالفعل. ظل عدوي اللدود لوقت طويل". ثم يضحك ثانية.

لدي انطباع بأنه في كل مرة يأتي فيها على ذكر نكسة في حياته، فإنه يفكر فيها على أنها انتصارٌ أخفق في اللحظة الأخيرة في تجسيده على أرض الواقع. فقد خسر الحرب في اللحظة التي تغلّب فيها على مشكلة المجاعة. كما جاءه النفي المُذل عندما وضع بلاده بأمان على الطريق إلى الاشتراكية. وخانه أصدقاؤه الأجانب عندما جعل لأثيوبيا مكانة على خارطة العالم. "حاولت أن أعقد سلاما مع سعيد باري. كان بمقدورنا معا أن نقدِّم الكثير لشعبينا. لكنهم خانوه أيضا".

في كانون الثاني عام 1991، وقبل بضع شهور فقط من سقوط منغيستو، أطاح انقلاب عسكري بسعيد باري. غادر العدوّان الساحة في ذات الوقت تقريبا، وبالطريقة العنيفة ذاتها.

في أوروبا، أخذت الكتلة الشرقية تنهار بكاملها بعد انهيار جدار برلين. وفجأة تلاشت محبوبته جمهورية ألمانيا الديمقراطية، النموذج الذي بنى عليه جمهورية أثيوبيا الديمقراطية الشعبية، وتلاشى حلم منغيستو بعروض عسكرية يمشي فيها الجنود مشية الإوزة. كما أن فشل الانقلاب ضد خصمه الرئيس، ميخائيل غورباتشوف، انقلاب قاده المتشددون الشيوعيون الذي كرهوا وخشوا إصلاحات غورباتشوف ـ كما كرهها وخشيها منغيستو ـ ترك الكرملين بمثابة مُلك خاص لإصلاحي أكثر تفانيا هو بوريس يلتسن.

خائنٌ آخر. وخيانة أخرى.

في الوقت الذي فرّ فيه منغيستو من أديس أبابا، تهاوى أحد آخر معاقل الشيوعية عتيقة الطراز. ففي تيرانا اضطرت أرملة أنور خوجا إلى التخلي عن الحكم الذي استأثرت به طوال نصف قرن وسرعان ما

وضعها في السجن، بعد ذلك مباشرة، زعماء ألبانيا «الديمقراطيون» الجدد.

"لم أكن قطّ مؤيدا لألبانيا، إلا أنني أُعجبت بفلسفتهم الراسخة والمنضبطة". يقول النجاشي الأحمر، ثم يضيف بينما يهز رأسه، "لقد تعرضنا كلنا للخيانة. خانونا جميعنا".

ينهض الكولونيل. ثمة هاتف يرن في الغرفة المجاورة، ومن هناك تصل إلى مسامعي أصوات نساء وأطفال. يبدو متلهفا للإجابة على الهاتف، بيد أنه لا يريدني أن أرى غرفة جلوسه الخاصة، لذلك يغلق الباب وراءه بحذر، تاركا إياي وحيدا في مكتبه المتواضع، حيث لاشيء فيه سوى خارطة أثيوبيا تتدلى على الحائط. لم يُعطني منغيستو أي لمحة عن حياته العائلية.

يبدو وجهه متجهماً عندما يعود. لعله تلقى أنباء سيئة. أو لعل النسور التي تحوم حوله تقترب أكثر فأكثر.

هل ستعود يوما إلى أديس أبابا؟

"أحبّ أثيوبيا أكثر مما أحب حياتي".

هل تشعر بالندم؟

"نعم. لقد أنشأت أحد أقوى الجيوش في أفريقيا، كما أنشأت واحدا من أفضل الأحزاب تنظيما في العالم ككل. دافعت عن وحدة بلدي الإقليمية مثل أمٍ تحمي صغيرها، بيد أن ذلك كله انتهى إلى لا شيء".

هل تؤمن بالديمقراطية؟

"الديمقراطية مجدية في أوروبا، أما التقاليد في أفريقيا فهي مختلفة. انظر إلى حال أثيوبيا اليوم. يقولون بأنهم طرحوا نظام التعددية الحزبية، إلا أنهم في الحقيقة أعادوا القبليّة. فكلٌ فرد يؤيد قبيلته أو دينه، ولا يؤيد

حزبا معينا، كذلك هي الحال في السودان، ورواندا، وبروندي، والكونغو، وكينيا. إنها الحال في كل مكان. سيشهد العالم في أفريقيا حروبا لم يشهد مثيلا لها من قبل قط. ستكون حروبا قبلية فظيعة".

يعلو صوت منغيستو ثانية إذ لا يزال هذا الموضوع، بعد عشر سنوات من فراره من أديس أبابا، يشغله ويثير عاطفته، ذلك أن العالم لم يفهم بعد أن البديل بدا لأمثاله من الرجال على أنه الفوضى، العنف الإثني، وتقسيم الدول.

"ثمة قول شائع عندنا في أثيوبيا مفادُه أن العالم يصرّ على إعطائنا أحذية جديدة جميلة، وعلينا نحن أن نكيف أقدامنا لتناسب هذه الأحذية الجديدة. بيد أن هذه الأحذية الجديدة تؤذي أحيانا أقدام الناس فيتخلصون منها. هل تعي هذه المفارقة؟ بدل أن تكيفوا أحذيتكم لتلاءم أقدامنا، طالبتم بالعكس أنتم الذين في الغرب. وبعد كل ما قيل وما جرى، ما كانت الصنادل التي قدّمتها لترمى بعيدا".

بعد أشهر من حديثي إلى النجاشي الأحمر سمعت إشاعة عن فرار منغيستو مرّة أخرى، فرّ من قفصه المذهَّب.

كان المنزل الصغير في هرر خاويا. يقولون بأنه فر مع زوجته وابنتيه وابنه آنديننت البالغ من العمر عشرين عاما، طالب في جامعة هرر، حمل معه ما خف حمله وغلا ثمنه.

شهد وسط مدينة هرر احتجاجات شبه يومية مناوئة لموغابي. كان الرفيق موغابي قد أرسل قواتا وأموالا لدعم حكومة الرفيق كابيلا في الكونغو، وكانت تلك الحرب تُضعِفُ اقتصاد زيمبابوي. بدأ موغابي بمصادرة المزارع التي يملكها البيض، فاستمرت الاحتجاجات وكُسِرَت

واجهات المتاجر. حاول منغيستو الاتصال بموغابي، إلا أن المعلّم رفض الرد على اتصالاته. أخبره أحد موظفي الحكومة بأن له حرّية الذهاب، واقترح عليه كوبا.

عندما وصل منغيستو إلى زيمبابوي في بداية منفاه، اشترى مزرعة في الريف. كانت تذكره بالوادي الذي نشأ فيه. والآن ودّع منغيستو وطنه بالتبني. كان حُماتُه الجدد بانتظاره في مطار عاصمة أوروبية، وقد ارتدوا جميعهم اللباس ذاته واعتمرا قبعات سوداء، وعاملوه بفظاظة. أخبروه بأنهم سيحطوّن في بكين.

أُشيعَ لبعض الوقت بأن الكولونيل في بيونغ يانغ، كوريا الشمالية. كانت المدينة باردة، وقد نزل منغيستو في شقة في الحي الدبلوماسي. قفصٌ آخر. كان الرئيس ابن نديمه القديم، كيم. ومن باب الاحترام لوالده، لم يخن ابن كيم منغيستو قط.

عاود الكولونيل الظهور بعد شهر. لعله لم يسافر قط، أو لعل بيونغ يانغ لم تَرُقهُ. على أية حال، يمتلك اليوم منزلا جديدا على طراز مزارع تربية الخيول يحمل الرقم (2) شارع كُوي، ناحية تينوولد، مدينة هرر. تينوولد هي المكان الذي يقطنه رجال الأعمال الأثرياء. كما ابتاع أيضا ـ نقدا على ما يبدو ـ المنزل رقم (3) في شارع لشستر، في الضواحي الأنيقة لمدينة إميرالد هيل. وتم تسجيل كلا المنزلين باسم الشاب آندينت، الطالب في كلية العلوم.

زيمبابوي سوق لمن يود الشراء. هذا ما يقوله في اجتماعاتهم النقابية المزارعون البيض الذين لايزالون يرفضون التخلي عن أرضهم. ثمة خروج وشيك لجنرال ما من هرر، وهذا هو الوقت المثالي للاستثمار.

إذاً، في إحدى ضواحي مدينة هرر التي تقطنها عليّة القوم، انضم

أخيرا الصبي القادم من الريف إلى الطبقات العليا. لقد صار إقطاعيا.

وبينما ينتقل بين قفصين تتوفر فيهما أسباب الراحة، بات منغيستو أرستقراطيا في النهاية.



ميلوزوڤيتش

أُفلت من عقاله الآن ذاك الوحش الهائج الذي يعيش داخل الإنسان، فلا يجرؤ على إظهار نفسه إلى أن تزول حواجز القانون والعُرف. أُعطيت الإشارة، وأُنزلت الحواجز. وكما جرت العادة في تاريخ البشرية، تمت الموافقة ضمنيا على أعمال العنف والنهب، بل وحتى الجريمة، إذا ما نُفِّذت باسم مصالح عليا وضدّ فئة معينة من الناس من نمط وعقيدة معينتين.

من الجسر فوق الدرينا لــ آيفو آندريتش.

كانت الڤيلا خالية وكهفية، فقد أُسدلت جميع الستائر، وأُغلقت البوابة الحديدية بإحكام بواسطة سلسلة ثخينة. بدت الحديقة مهملة، ونما العشب في الطريق المحصّب. وبجانب ممر ضيّق غير معبد يُفضي إلى أحد جوانب المنزل جلس شاب قص شعره على الطريقة العسكرية في كشك حراسة مستغرقا بالنظر إلى مجلة بورنو. أجاب الشاب على جميع أسئلتنا بهزّ كتفيه بلامبالاة، بل وادعى بأنه لا يعرف من تكون البروفيسورة ماركوڤيتش.

"هل أنت واثقة بأنه العنوان الصحيح؟" سألتُ مترجمتي مايا. "فالمنزل يبدو مهجورا بالنسبة لي". كنت لا أزال آمل أن يكون العنوان خطأ. أردتها أن تقول لي بأننا قصدنا المنزل الخطأ.

أجابتني إجابة قاطعة، "أنا واثقة تماما". لكنها، إذ أحست بتأنيب الضمير، كما هي عادتها دوما، فتحت دفترها لتتأكد. "نعم إنه العنوان الصحيح. أنا آسفة ريكاردو، آسفة بالفعل".

كنا في بداية شهر أيلول. كانت مدينة بلغراد مشمسة وتتألق بهجة وسرورا. ارتدت الفتيات التنانير القصيرة وتلطخت أوجه المارة بالبوظة.

كانت الكينزا ميخائيلا، المكان المفضّل للقيام بنزهة، تعج بالناس من السابعة صباحاً وحتى منتصف الليل. في هذا المكان الضيق كانت المدينة بأسرها تعرض نفسها، متباهية بأردافها وابتساماتها، ونهديها ونظّاراتها الشمسية من ماركة فالنتينو، في دَفقٍ من الحيوية والنشاط يدل على نهاية عشرة أعوام من الحرب والجنون. وبالمقابل، كانت الكآبة تلف مقر حزب اليسار اليوغسلافي في شارع بعيد عن الكينزا ميخائيلا. بدا المكان عديم التأثر بما حوله.

فشل اللقاء مع ميرا ماركوفيتش حتى قبل أن يتم. لعلّه تأجل، أو أُلغِي. لعل البروفسورة شعرت بالإهانة لأنني خاطبتها في عدّة مناسبات خلال تبادلنا الفاكسات والبريد الإلكتروني بـــ «السيدة ميلوزوفيتش» بدل أن أخاطبها باللقب الذي تُفضّل أن تنادى به «الدكتورة والبروفسورة ميرا ماركوفيتش».

كان لقبها صيغة خطاب غريبة، متواضعة ومتفاخرة في آن معا. كنت أعلم أنها تكره استخدام اسم زوجها الأكثر شهرة، سلوبودان ميلوزوفيتش، وتزعم بأنها تكره ذلك لأنها تريد أن يتعامل الناس معها «كأي بروفسور آخر». والحقيقة أنها، تحب أن تؤكد بأنه هو من يعرّف نفسه بها وليس العكس. وفيما يخص اسمها الأول، فقد غيّرته بنفسها من ميريانا إلى ميرا إحياء لذكرى والدتها، طالبة الفلسفة التي توفيت في ظروف غامضة في نهاية الحرب العالمية الثانية عندما كانت في الرابعة والعشرين من عمرها. أما فيما يخص لقب البروفسورة، فمردّه إلى ترقيتها من مُحاضرة إلى رئيسة قسم علم الاجتماع في جامعة بلغراد، وهي ترقية مشكوك فيها حيث تقول الإشاعة بأنها جاءت محاباة لها بسبب موقعها كسيدة أولى في يوغسلافيا. وبالنسبة للقب دكتورة فهو مؤهّلٌ

أكاديمي حصلت عليه من خلال رسالة دكتوراه في علم الاجتماع. والحق أنها شديدة الفخر بتلك الرسالة ولا تسمح لأيّ كان بأن ينسى ذلك.

كنت لا أزال أعلل نفسي بأن يكون عنوان الدكتورة البروفسورة الذي حصلنا عليه خاطئا. قلت لمايا "إنه منزل كبير جدا كي يكون مقر حزب اليسار اليوغسلافي، إذ لم يُنتخب من الحزب إلا بضعة نواب في الجولة الأخيرة من الانتخابات، صحيح؟ كما أن جميع زعمائه إما في السجن أو حُجبت عنهم الثقة، صحيح؟ لا بد أنه المنزل الخطأ". نظرت إلي مايا وعلى وجهها تعبير يقول بوضوح "لابد أنك صرت تعرف الآن أن كل ما يخص ميرا ماركوفيتش هنا في يوغسلافيا كالح وكبير، وفارغ في الغالب".

نعم. كان العنوان صحيحا.

فجأة أخرجت مايا من حقيبتها هاتفين نقالين وشرعت تستخدمهما في الوقت ذاته. كان هاتف دراغانا كوزومانوفيتش، الناطقة باسم البر فسورة مقفلاً. لذلك قالت مايا أنها ستجرب الهاتف السري. يبدو بأن لدى كل فرد في يوغسلافيا ما بعد ميلوزوفيتش هاتفين نقالين على الأقل، واحد للاستخدام العام وآخر «سري»، بيد أن فائدة هذا الأخير غير واضحة لأن بمقدور كثير من الناس الاتصال به كما في حالة الرقم الآخر. لكن الهاتف الثاني كان مقفلا أيضا في تلك اللحظة.

لم يكن الحارس عونا لنا. "كلا، لم ألمح أحدا اليوم". أصرّ قائلا بينما هز كتفيه.

"لكن هذا غريب، لأن لدينا موعدا مع البروفسورة جرى الترتيب له منذ شهر وتم تثبيته البارحة. لعل ثمة أعضاء من طاقمها داخل المنزل".

هز كتفيه ثانية. "كما أن موقف السيارات فارغ". قال مشيرا إلى

الفناء وراء المنزل حيث عادة ما تقف سيارات المرسيدس الزرقاء التي تقتنيها البروفسورة الدكتورة.

عندما جلسنا ثانية في سيارة أجرة صفراء اللون من ماركة لادا المألوفة تفوح منها رائحة السجائر والعرق، حاولت مايا أن تواسيني بأن تقص عليّ تاريخ المنزل الذي صار دائم الذكر في التقارير الصحفية لصحافة بلغراد بعد سقوط ميلوزوفيتش. كانت قصة نموذجية عن يوغسلافيا في التسعينيات.

كان المنزل قبل الحرب العالمية الثانية مُلكاً لأحد أقطاب صناعة النسيج. أمَّمهُ المارشال تيتو الذي تأثّر بما فيه من طراز الطبقة العليا، على الرغم من أنه كان نصيرا شيوعيا قديما، وأعطاه لشركة تجارية مملوكة للدولة. اشتراه من الدولة عام 1994 شخص يُدعى نيناد جوجيفيتش، كان عميلا سابقا للشرطة السرية الشيوعية وصديقا لميلوسوفيتش، بمبلغ مليوني دولار. ولكي يشتريه، تعيّن على نيناد اقتراض المال من بيوبانكا. وبعبارة أخرى، من الحكومة. وبعبارة أخرى أيضا، من سلوبودان ميلوزوفيتش، الذي كانت تربطه بوجه خاص علاقات قوّية مع المصرف، فقد كان رئيسه قبل أن يدخل السياسة.

بعد عام واحد فقط باع جورجيفتش الفيللا إلى حزب اليسار اليوغسلافي الذي كانت قد أسَّسته مؤخراً زوجة ميلوزوفيتش، أو البروفسورة ماركوفيتش، لكي نكون دقيقين. اعتُبرت البروفسورة المفكرة الإيديولوجية الحقيقية في الحزب الاشتراكي (الشيوعي سابقا) الذي تزعمه زوجها، بيد أنها قرّرت، لأسباب لم تُوضَّح قط بصورة كاملة، دخول معترك السياسة بحزبها الخاص، مع أنه كان حليفا قويا لحزب زوجها. وبفعل مصادفة مثيرة للاهتمام، تمّ تعيين جورجيفتش نائبا لرئيس هذا

الحزب، حزب اليسار اليوغسلافي. ولذلك، عندما باع الفيلا، منح جورجيفتش زملاؤه في الحزب حسما سخيا بلغ 50%. كان شرط البيع أن يتولى الحزب دفع دينه بالكامل لمصرف بيوبانكا.

كانت النتيجة النهائية لهذه الصفقة أن خرج جورجيفيتش منها بربح قدره مليون دولار. ومن جهة أخرى، خرج مصرف بيوناكا من الصفقة بدين ثقيل قدره مليونا دولار كان لابد له من شطبه. أما شركة الاستيراد والتصدير المملوكة للدولة والتي باعت العقار عام 1994 فقد قبضت في حينه مبلغ المليوني دولار الذي أقرضه مصرف البيوبانكا، إلا أن أحدا لا يعرف أين ذهبت الأموال. ذكرت صحف بلغردا في تقاريرها أن الشركة كان يديرها في الحقيقة أصدقاء لميلوزوفيتش استخدموها كمصدر شخصي للتمويل.

على أية حال، كانت لا تزال ثمة بقية لقصة فيلا حزب اليسار اليوغسلافي. فبعد أن باع الفيلا بفترة قصيرة، قطع جورجيفيتش صداقته بالبروفسورة على نحو غامض. بيد أنها انتقمت منه عام 1977 بأن أرسلته إلى السجن بتهمة اختلاس عشرة ملايين دولار من مصلحة الصحة العامة الصربية التي كان مديرا عاما لها. وفي وقت لاحق من ذلك العام، انفجرت قنبلة في المنزل. اعتبرت البروفسورة ماركوفيتش ذلك بأنه "عملٌ قامت به مجموعة معادية قرّرت أن تنشر الذعر في البلاد"، دون أن تشير إلى جهة بالضبط. بيد أن الجميع في بلغراد عرفوا بأن القنبلة والظروف المحيطة بالمنزل لم يكن لها علاقة بالسياسة في حين كانت لها علاقة كبيرة بالمال: الإيديولوجيا الوحيدة لدى الحاشية المحيطة بميرا وسلوبودان ميلوزوفيتش.

"نعم، إنها قصة مثيرة للاهتمام، لكن ماذا عسانا أن نفعل بصدد

المقابلة"؟ قلت محتجّا بينما جلسنا في سيارة الأجرة الصفراء.

"أنا على يقين بأن ماركوفيتش ستلقانا غدا". أجابت مايا.

طيلة ثلاثة أيام التصقنا بهاتف ما، علّه يرن. كنا أشبه بأقارب رهينة مختطفة. كانت دراغانا تهاتفنا بين فينة وأخرى، وقد أشفقت علينا بسبب العدد الهائل من الرسائل التي كانت تجدها على آلات الرد على هواتفها. قالت بأنها لا تزال متفائلة وبأن اللقاء سيتم، فقد أعطت البروفسورة وعدا بذلك. لكن الوضع زاد غموضا بمرور الوقت، إذ لم نقدر حتى أن نعرف لماذا أُلغي الموعد في المنزل. وهكذا، أخذنا زمام المبادرة وقصدنا منزل ميلوزوفيتش في ديدنج، بقعة أرض تقع على جانب تلّ يحتكرها المليونيرات الصرب. كانت المنطقة جنة مصغرة في أعماق الغابة، فيها طرق ريفية ضيقة وبوابات تعمل على الكهرباء. أومأ لنا رجل يحمل مسدسا بأن نتابع التقدم.

أخيرا اتصلت دراغانا "أنا الآن في السيارة مع البروفسورة الدكتورة ماركوفيتش. اضطررنا للسفر إلى مكان ما. كلا، لسنا في بلغراد. نعم، نعلم بأنكم قصدتم المنزل. نحن الآن في طريقنا إلى مكان لا يحق لي أن أعرّف به. وقع أمرٌ في غاية الأهمية. كانت لدينا حالة طارئة".

تمتمت مايا "إن سألتني أقول بأنهما إما في ريببلكا سبراسكا أو في مونتينيغرو. لا أعتقد بأنهما ستعودان قبل يوم الإثنين، عندما تكون رحلة عودتك قد حانت".

إلا أن دراغانا كررت بصوتها الخفيض الأجش "لاتقلق، سنعود خلال أربع وعشرون ساعة على الأكثر".

انقطعت الاتصالات الهاتفية بيننا بعدئذ.

عدت إلى الولايات المتحدة بعد ثلاثة أيام، دون أن ألتقي البروفسورة

أو داراغانا. ودّعتني مايا بوجه كئيب، كما لو أنها أحست بأنها المسؤولة شخصيا عن هذا الإخفاق. "أنا آسفة، آسفة جدا" أعادت القول مرّة تلو أخرى.

عقب عودتي إلى أتلانتا، أخبرتني مايا أن الصحافة اليوغسلافية ذكرت بأن ابن سلوبودان، ماركو ميلوسوفيتش، الذي فرّ إلى سهول كازاخستان بعد تورطه مع عصابة إجرامية في صربيا، عاد ليلتقي زوجته وأولاده الذين تركهم بعهدة والدته في بلغراد. بيد أنه لم يجرؤ على الاقتراب من المدينة التي كان فيها حتى عهد قريب الرجل الأقوى والأكثر هيبة بعد والده. وبدل ذلك، اختار ماركو بقعة في الريببليكا سبراسكا، المقاطعة الصربية المستقلة الواقعة في إقليم البوسنة والهرسك، حيث كان يتمتع بحماية المتشددين من النظام، ذات الناس الذين لا يزالون يخفون رادوفان كاراديتش وراتكو مالديتش، إضافة إلى صرب آخرين على لائحة أهم المطلوبين لارتكابهم جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية.

وكجائزة ترضية لي، كنت أدّعي دوما بأن البروفسورة الدكتورة ماركوفيتش صرفتني عن لقاء ابنها الذي اعتادت أن تناديه "جروي البائس الحبيب" في الفترة التي كان يُرعب فيها مدينة بلغراد.

عدت إلى بلغراد بعد مضي شهر، في شهر تشرين الأول. جدَّدت البروفسورة وعدها حيث أكدّت دراغانا قائلة "البروفسورة جاهزة لاستقبالك".

كانت أشعة الشمس باهتة خارج مقر حزب اليسار اليوغسلافي، لكن النوافذ كانت لا تزال مغلقة والحديقة مهملة. على أية حال، كانت سيارات المرسيدس تقف في الفناء هذه المرّة، كما كان الحارس الذي قصّ شعره

على الطريقة العسكرية أقل فظاظة. فبعد أن طرح عدّة أسئلة قال لنا "حسنا، بمقدوركما الدخول، إنهم في الداخل".

كانت دراغانا بانتظارنا في قاعة استقبال هائلة شبيهة بقاعة الرقص يُطل عليها درج رخامي. لقد بنى تاجر النسيج هذه القاعة في الثلاثينات كيما يلفت أنظار نخبة زبائنه على الأرجح.

كان المنزل شبيها بقلعة تسكنها الأشباح، فقد كان خاليا تتردد في جنباته أصداء الأصوات. ثَبُتَ لي أن دراغانا امرأة جميلة كانت ترتدي السواد بصورة طبيعية. كانت نسخة طبق الأصل عن مورتيشيا آدمز. ارتدت حذاء ذا كعب عال وكانت وجنتاها بارزتين مثل عديد من النساء الصربيات. كما كان شعرها أسودا فاحما مثل شعر البروفسورة. لعلها كانت تريد من وراء ذلك أن تُظهر تضامنها معها: فقد سمعتُ بأنها واحدة من الصديقات القلائل اللواتي بقين مخلصات لها.

كانت غرفة الجلوس الصغيرة التي قادتنا إليها مفروشة بأرائك كهربائية زرقاء، طاولات حمراء، وستائر بيضاء، أي ألوان يوغسلافيا وحزب اليسار اليوغسلافي. بدت دراغانا أكثر شحوبا وسوادا عندما أحاطت بها تلك الألوان التي تنبض بالحيوية والنشاط.

أخيرا وصلت البروفسورة. سمعناها تنزل السلم بينما كان حذاؤها ذو الكعب العالي يطقطق على الرخام بصورة منتظمة. كانت سيماؤها تنم عن جُبن يكادُ يثير الفزع. وقد بدت تعبة. جلست على أريكة كهربائية زرقاء دون أن تنظر باتجاهي. ناولتها دراغانا ظرفا يحتوي تذاكر سفر على متن الخطوط الجوية اليوغسلافية. فتحت البروفسورة التذاكر، تفحصتها، ودون أن تنبس ببنت شفة، وضعتها في حقيبة يدها من ماركة فندي كانت تضمها إلى صدرها. بعدئذ، وبينما كانت لا تزال صامتة،

بدأت تتفحص أظافرها المطلية بلون وردي باهت كأظافر فتاة صغيرة، وعلى وجهها ارتسم تعبير ساخر أحيانا وذاهل أحيانا أخرى.

كان شعرها مصففا بالطريقة التي أَلِفها الملايين من خلال صورها؛ شعر أسود فاحم ومنتفخ يشبه الشعر المستعار، وغرّة مدوّرة تنسدل على جبهتها فتصل إلى منتصفها تماما. لعل تلك التسريحة كانت محصلة ساعات طويلة قضتها في فترة ما بعد الظهر مع مزّينتها المفضلة في الطابق الأرضي لأحد الفنادق الكبيرة في بلغراد، في صالون التجميل ذاته الذي أقرضه مصرف بيوبانكا، مصادفة، مبلغ 225000 دولار لإجراء إصلاحات قبل سقوط ميلوزوڤيتش.

وبينما كنت أَحملق مندهشا بتصفيفة الشعر تلك، رن هاتف البروفسورة النقال. فابتسمت أخيرا ميرا ماركوڤيتش. كان المتصل سلوبودان ميلوزوڤيتش، من رواق في سجن شيفينينجن، بالقرب من محكمة العدل الدولية في لاهاي، حيث يُسمح له أن يُنفق يوميا تسعة وعشرين دولارا على الاتصالات الهاتفية، أي ما يساوي مكالمة هاتفية مع بلغراد تقارب سبع دقائق.

يقول أصدقاؤهما القدامى بأن ميرا وسلوبا اعتمدا، منذ خطوبتهما في جامعة بلغراد، في حديثهما مع بعضهما كلام أطفال، مثل عاشقين مراهقين، وأنهما، حتى عندما كانا يدفعان يوغسلافيا إلى عشرة أعوام من الحروب والمدن المدَمَّرة والجثث الملقاة في قبور جماعية، كانا يزقزقان مع بعضهما كطيور الحب المرسومة على بطاقة خاصة بعيد القديس فالنتين.

كان صوتها الناعم، الطفولي، المشهور يملأ الآن غرفة الجلوس الوطنية بألوانها الحمراء والبيضاء والزرقاء في منزل يعمه الظلام.

أحسست كأني أسترق السمع إلى محادثة حميمة، "ألو، ألو، حبيبي". كادت البروفسورة تتورد خجلا. "إنه معي، ذاك الخطاب... سأريك إياه. وتلك الوثائق أيضاً. ماذا تفعل؟... نعم، أعرف، أعرف... أظن بأننا فرزناها جميعها... سعيدة لأننا سنرى بعضنا قريبا. همم. تمّ ترتيب جدول يوم الاثنين بكامله... البطاقات معي... سأطير في الرحلة المعتادة على متن خ ج ي. حسنا. أُرسل لك قبلة، باي. أراك عاجلاً".

قَبَّلَتْ جهاز الهاتف، ثم التفتت إلي وقالت، كما لو أنها أرادت أن تستبق سؤالي، "كان المتصل زوجي. إننا نحب بعضنا كثيرا، وتلك حقيقة معروفة جيدا. نحن الاثنان عاطفيّان من الطراز القديم. وصفتمونا في الغرب بأننا طاغيتان متعطشان للدم. على العكس تماما، نحن عاطفيان. نعم، كما قلت سابقا، لا زلت أجد سلوبودان ميلوزوفيتش جذّابا جدا. إنه رجل ساحر، رجل جميل بحق، حبيبي سلوبا".

كان ميلوزوفيتش في الخامسة والأربعين عندما انتُخب لمنصب حمل لقباً مطولا هو رئيس اللجنة التنفيذية الدائمة للّجنة المركزية لتحالف الشيوعيين في صربيا. ومعنى ذلك أنه صار زعيم جميع الأحزاب الشيوعية في الإتحاد اليوغسلافي سابقاً. كان الرجل الذي اختاره لذاك المنصب هو إيفان ستامبوليتش، الذي عُيِّن لاحقا رئيسا لصربيا. فبينما كان يبحث عن رجل بوسعه أن يثق فيه كيما يحلّ محله في الحزب، فكّر ستامبوليش مباشرة بسلوبودان الذي كان مَحمِيَّه السياسي. بيد أنه لم يتوصل إلى هذا الخيار إلا بعد أشهر من الصراع وراء الكواليس، إذ لم يكن جميع من في الحزب راغبين بأن يحتل مصرفيّ منصب الرئاسة. فقامت ميرا ماركوفيتش بتحويل فرع الجامعة للحزب لصالحه، وكان صوته حاسما.

بدا، قبل تلك اللحظة، بأن سلوبا انطلق في مسيرة ناجحة إلى حدّ كبير في اقتصاد «الإدارة الذاتية» ليوغسلافيا الاشتراكية. فقبل ذلك بثلاثة أشهر كان لا يزال الرئيس الكفؤ، وإن كان الغُفل، لمصرف بيوغرادسكا المعروف بمصرف بيوبانكا؛ المؤسسة المالية الرائدة في يوغسلافيا.

والحال أن ميرا أدركت جيدا أن السلطة الحقيقية تكمن في السياسة وليس في الأعمال. ولذلك أقنعته بأن يتفرغ للسياسة، هذا الهاجس الذي سيطر عليها، أن «يكرّس نفسه للبلد» الذي كان، برأيها، بحاجة ماسة إلى ذكائه وكرمه. وهكذا، ودون أن يتحمس كثيرا للأمر، بدأ سلوبا يتودد إلى الحزب ويشارك في الانتخابات لمناصب ثانوية إلى أن جاءت القفزة الكبيرة عام 1986.

وحتى بعد انتخابه لم يره معظم رفاقه الحزبيين، أكثر من مجرد تقليدي أشيب، غير مُقدَّرٍ له أن يأتي بأمور عظيمة. قبل ذلك بعام واحد،انتخب الحزب الشيوعي في موسكو أمينا عاما جديدا، عضو شاب في اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي يُدعى ميخائيل غورباتشوف. بدأ غورباتشوف بالحديث عن الإصلاحات وعن «الاشتراكية بوجه إنساني». بيد أن الإعصار الذي كان يتجه إلى يوغسلافيا قادما من روسيا لم يَرُق لميلوزوفيتش الذي أراد أن تظلّ يوغسلافيا بعيدة عن تلك الأفكار الخطرة من قبيل **البيروسترويكا** و**الغلاسنوست**.

وإذا ما كان سلوبا شخصية غير معروفة، فإن ميريانا ماركوفيتش كانت من عائلة معروفة من الأنصار الشيوعيين، المؤيدين لتيتو. كانت فتاة طموحة، تحب بشغف زوجها الذي أحست تجاهه أيضا بالكبرياء الذي يُحسه كشاف ناجح في اكتشاف المواهب.

عندما التقته في إحدى مدارس بلغراد الثانوية، كان سلوبا فتى قليل

الأصدقاء، من خلفية عائلية متواضعة وسرعان ما باتا لا يفترقان. كانت في الثالثة عشرة بينما كان في السادسة عشرة. وبعد عدّة سنوات انتحر والد سلوبا الذي كان يعيش بعيدا عن زوجته في مونتينيغرو. وبعد ذلك بعدّة سنوات، وُجِدت والدة ميلوزوفيتش ميتة، فقد شنقت نفسها في منزلها. كما انتحر واحدٌ من أقربائه أيضا. كانت تلك مآسي عائلية تفهمتها ميرا بشكل جيد. زاد تَعلُّق سلوبا بها. وبدورها قررت أن تجعله زعيما.

عقب زواجهما مباشرة، وقع أمر سيتذكره زملاؤهما في الجامعة بعد عدّة سنوات بوصفه حادثا مهما. فبينما كانت تمشي في أحد أروقة الكلية، توقفت ميرا أمام واحدة من صور تيتو، زعيم يوغسلافيا المحبوب الذي قَدِر أن يحافظ على التوازن السياسي غير المستقر بين الصرب والكروات، القوميتان الأهم في الإتحاد. وبينما نظرت إلى الصورة، عَلّقَت ميرا قائلة "هل ترون تلك الصورة؟ أنا واثقة بأن زوجي، سلوبا، سيأخذ مكان تيتو فيها ذات يوم". لم يُعر أحد انتباهه لذاك التعليق آنذاك، فقد كانت ميرا فتاة غريبة الطباع، ومن الأفضل أن تُترك لأحلامها ولكلامها غير المترابط، وإلا فسوف تغضب أو تنفجر باكية، وهو ما كان يحدث في الغالب الأعم.

كانت السياسة والخداع السياسي يجريان بدم ميرا. كان والدها موظفا شيوعيا، إلا أنه، خلال طفولتها، لم يتحدث إليها قط، بل ولم يعترف بها كابنته. كانت الأم هي من فرّق بينهما.وكان قد اختطفها النازيون كونها نصيرة معروفة. وتوفيت بعدئذ. ثمة روايات عديدة في بلغراد عن سبب موتها. قالت الرواية الرسمية بأن النازيين قتلوها. بيد أن والد ميريان أعطى وزنا أكبر للرواية الأخرى التي تقول بأن النصيرة البطلة التي تنتمي لإحدى أعرق العائلات بدأت بالتعاون مع الألمان، حيث زودتهم

بأسماء وعناوين، وبالتالي كان رفاقها هم من قتلها انتقاما.

كان اسم والدة ميريانا هو ميرا. وذات يوم، أعلنت ميريانا ـ وكانت لا تزال طفلة تعيش مع جدّيها ـ أمام عائلتها وأصدقاءها أنها من تلك اللحظة فصاعدا ستكون ميرا. كانت تلك طريقةً لإنقاذ ذكرى والدتها من الصمت الجليدي الذي أحاط بها.

وبزواجها من سلوبودان، تحكمت ميرا بكل خطوة يخطوها، إذ لم يتخذ قرارا قط دون أن يناقشه معها أولا. يقول أصدقاؤهما بأنها، في المناسبات النادرة التي كانا يتشاجران فيها، كانت تلزم الفراش وتدعي بأنها مريضة طوال عدة أيام في كل مرّة، إلى أن يستسلم ويعترف بأنها كانت على صواب.

بل لقد كان قرار لَعِب ورقة القومية الصربية بدل ورقة الإيديولوجيا الاشتراكية قرارها. فبما أنها عالمة اجتماع، اعتقدت ميرا بأنها فهمت القضية الأقرب إلى قلب كل صربي: ذاك الشعور الذي يعود إلى قرون مضت بأن التاريخ لم يُنصِف صربيا وأن ساعة الانتقام أزفت بعد كثير من الهزائم غير المُستحقَّة. كانت ميرا مُلهِمَة الخطاب الشهير في «سهل الشحارير»، في حقول الذرة حيث حاربت صربيا قبل حوالي ستمائة عام «باسم المسيحية ولمصلحتها» في مواجهة الجيش العثماني، وهزمت شرَّ هزيمة.

التاريخ 24 نيسان 1978. آلاف الصرب يرشقون بالحجارة مندوب حكومة بلغراد الذي يزور المنطقة، مطالبين بالمساعدة على وضع حدٍّ «للقمع الألباني». وبعبارة أخرى، كانوا يطالبون بإعادة توحيد كوسوفو مع صربيا وبوضع حدّ لاستقلال الإقليم. لم يتوقع ميلوزوفيتش، الذي أرسله ستامبوليتش لتقييم الوضع على الأرض، أن يُلقي خطابا. إلا أن زعيم

تحالف شيوعيّ كوسوفو طلب منه أن يُخاطب الحشد كي يُهدِّئ الناس. كان مُقدَّرا لخطاب سلوبا، الذي لاقى موافقة صاخبة ومتواصلة من آلاف الصرب، أن يُصبح نقطة تحوّل في مسيرته. خاطبهم قائلا، "ليس لأحد الحق بأن يضربكم. لا يجب عليكم أن تتخلوا عن أرضكم لمجرد أنه من الصعب عليكم أن تعيشوا على مواردها أو لأنكم مقموعون ومهانون. لست أشير عليكم بأن تتحملوا وضعا مؤسيا، بل على العكس لابد أن تُغيّروا ذاك الوضع بمساعدة الآخرين ذوي العقول التقدمية في صربيا و يوغسلافيا. هذا وطنكم، بلدكم، جنّتكم، ولابد أن تبقوا خدمة لأجدادكم وخدمة للأجيال المستقبلية. فبدون كسوفو ستتفكك يوغسلافيا. لن تتخلى لا يوغسلافيا ولا صربيا عن كوسوفو قط".

كان أول سياسي من بلغراد يتحلى بالشجاعة كيما يُعبِّر عما كان الناس في الأقاليم الصربية يقولونه منذ أمد طويل.

ومنذ تلك اللحظة، صار سلوبودان يُحاط بحشد من المعجبين في كل مرّة يغادر فيها بلغراد. طالبه الناس بالانتقام «للمهانة» المستمرة التي تتعرض لها صربيا ذات التاريخ العريق من جانب كرواتيا وسلوفينيا، الإقليمان الأغنى من صربيا إضافة إلى أنهما «أجنبيين». كما طالبوه بالانتقام «للمذابح الجماعية» التي تُرتكب في إقليمي كوسوفو والبوسنة المُسلمَين بحق الأقليات الصربية والأرثوذوكسية التي زَعِم البعض بأنه يجري استيعابها بالقوّة، وطالبوه بأن يوقف «التوزيع غير العادل» للأموال الاتحادية.

كانت هذه الأفكار هي الأفكار التي عبّرت عنها وثيقة غفلٌ نُشِرت عام 1986 تحت عنوان «مذكِّرة الأكاديمية الصربية للفنون والعلوم». وقد خلقت هذه الوثيقة ضجة كبيرة وأصبحت مباشرة المُنطلق الإيديولوجي

للقومية الصربية الجديدة. وعملا بنصيحة ميرا، تبنى ميلوزوفيتش تلك الأفكار على أنها صيحته التي يُطلقها لِلَمِّ الشمل.

وهكذا كانت في سهل الشحارير بداية الطريق الذي سيقوده ليُصبح بعد عشر سنوات السيد المطلق لـــ«يوغسلافيا الصغرى» (صربيا ومونتينيغرو) والمُدافع عن صربيا العظمى (بأقاليمها الصربية: البوسنة والهرسك، كراوتيا، مقدونيا وما وراءها). وإذا ما استخدمنا رمزية كالحة، فقد كانت إحدى مآسي الماضي المنصة التي انطلقت منها المأساة التي ستعصف بالصرب مستقبلا.

كانت كوسوفو أرضا سقط فيها عدد السكان الصرب سقوطا دراماتيكيا وصارت التركيبة الإثنية فيها ألبانية بنسبة 90% بفضل معدل الولادات المرتفع لدى الألبان. بيد أن السلطة كانت لا تزال بأيدي الصرب الذين اعتبروا كوسوفو القلب الأقدس للوطن الأم. والحال أن بعض الكوسوفيين تطلعوا إلى جبال ألبانيا القريبة، التي يحكمها نظام أنور خوجا المؤيد لماوتسي، على أنها أرضهم الموعودة، وحلموا باستقلال تام عن بلغراد.

وبينما كانا في العاصمة اليوغسلافية عام 1986، العام الذي شهد ظهورهما كأهم ثنائي في الإتحاد، لم يتخيل سلوبودان ميلوزوفيتش وميرا ماركوفيتش قط بأن كوسوفو، بأغنامها وفلاحيها، سوف تقرر مصيرهما يوما ما. كما لم تتخيل **النومنكلاتورا** في بلغراد أن يصير هذا الثنائي بطلين لحرب كانت على وشك أن تزعزع منطقة البلقان من أساسها. وبدوره، لم يتخيل إيفان ستامبوليتش أن محميّه سيسلبه، بعد عدّة شهور فحسب، الغالبية التي يتمتع بها بادعائه بأن قوميته منقوصة، ويرغمه على الاكتفاء بمنصب رئيس صربيا، كما أن أحدا لم يتخيل أن ستامبوليتش

ذاته سوف يختفي بصورة غامضة عشية سقوط ميلوزوفيتش شتاء عام 2000 في مدينة بلغراد حيث سقط عددٌ من الناس البارزين ضحية الجريمة. من المرجّح أنه اغتيل.

في غرفة الجلوس الصغيرة البيضاء، الزرقاء، والحمراء، أجابت ميرا ماركوفيتش على كلّ سؤال بذات الطريقة. كانت تصغي بينما انحنى رأسها فوق حقيبة يدها، ثم ترفع بصرها فيما يكاد يكون تكشيرة.

في الواقع، كانت ثمة تكشيرتان مختلفتان. كانت التكشيرة الأولى، وفيها ترتفع عيناها إلى السماء، تعني: "أي نوع من الأسئلة هذا؟ أنت تطلب مني أن أعلّق على أكذوبة، تُرَّهة". أما التكشيرة الثانية، حيث الشفتان مطبقتان بقوّة تصحبهما هزّة للكتفين للتعبير عن اللامبالاة ونظرة إلى كوزمانوفيتش تكاد تكون غير مصدّقة، فقد كانت تعني "لا تعليق، فالأمر لا يهمني. إضافة إلى ذلك، كيف يمكن لامرأة مثلي تكرّس وقتها للشعر والموسيقا والجمال والأزهار أن تَرُدَّ على سؤال دنيوي ومبتذل كهذا"؟

بعدئذ، كانت البروفسورة تجيب على أسئلتي بحسب التكشيرة المُختارة.

صار الجو أقل تحفظا في منتصف اللقاء. استرخت زوجة ميلوزوفيتش وشرعت تصبغ ملاحظاتها بالتهكم. إنها واحدة من الحيل التي تستخدمها في الكلام إلى جانب كلام الأطفال مع زوجها والتحفظ شديد البرودة مع أعدائها والمضايقة الساخرة مع الآخرين.

"عندما أذهب إلى لاهاي لزيارة زوجي أصل إلى السجن يوم الاثنين بين الحادية عشر والثانية عشر صباحا". تبتسم ابتسامة ساخرة: "وهذا

يعني أنني أُضيّع فترة الصباح كلها تقريبا، إذ بمقدور الزوار البقاء في السجن من التاسعة صباحا وحتى الخامسة عصرا فحسب. يتعيّن عليّ بعدئذ أن أخرج من الإقليم التابع للإتحاد الأوروبي صباح الثلاثاء، فمن غير المسموح لي أن أدخل هذا الإقليم إلا لفترات قصيرة مرخَّص بها.... عادة ما أذهب مع كنّتي، ميليشيا غايتش، التي تأتي في المرتبة الثانية على لائحة غير المرغوب فيهم. سلوبودان هو الأول ويبدو بأنه العدو رقم واحد للإتحاد الأوروبي". ومرّة أخرى، تبتسم ابتسامة صغيرة ساخرة. "نعم، سلوبودان أولا، تليه مليشيا غايتيش، زوجة ابني ماركو، ثم أنا، ثم ابنتي ماريا وبعدها ماركو. والحق أن ماركو غير سعيد بترتيبه على الإطلاق". ابتسامة أخرى صغيرة وساخرة. "لا ينفك يسأل لماذا تأتي ميليشيا قبله على اللائحة. لطالما أراد أن يكون الأول في كل شيء، ولطالما كان فتى لامعا. لابد أن خيبة أمله مبررة، ألا تظن ذلك؟" ابتسامة صغيرة أخرى. "بيد أن ثمة أمرٌ آخر يصيبنا جميعا بخيبة أمل. لمَ لم يوضع ماركو الصغير على اللائحة؟ ذلك غير معقول". تنظر البروفسورة إلي نظرة خوف مبالغ فيه. "بماذا يُفكرون؟ لقد أتم ماركو ميلوزوفيتش الثانية والنصف من عمره ولن يمضي وقت طويل قبل أن يتم الثالثة. ولذلك فهو أيضا عدو مميت للإتحاد الأوروبي، أليس كذلك؟ إنه فرد من عائلة ميلوزوفيتش. مجرم".

كانت هجمات 11 أيلول 2001 الوحشية لا تزال طرية في أذهاننا جميعا. وكان الحزن والغضب يغليان في الولايات المتحدة حيث أعيش. كان الجميع يعرفون بأننا على شفير حرب.

بدا وكأن ذلك يُرضي ميرا ماركوفيتش، إذ سيفهم العالم أخيرا

المعايير المزدوجة التي أشارت وسلوبودان إليها عندما ذكرا «جرائم الناتو» و«نفاق الأميركيين».

بدأت البروفسورة مونولوجا طويلا.

"لا أعتبر الإرهاب ظاهرة مرتبطة بشعب، أو بلد، أو دين مُعيّن. الإرهاب، ببساطة، هو وسيلة لشن الحرب. على ما يبدو، فإن الجماعات الإسلامية هي مصدر الإرهاب الموجود حالياً وهو إرهاب موجّه ضد الولايات المتحدة. بيد أن صربيا كانت أولى ضحايا الإرهاب. ولذلك كنا أوّل من حارب الإرهاب والمتشددين الإسلاميين. كنّا أول من وقف في وجههم. فمن العار أن يكون قائد هذه المقاومة في السجن في لاهاي الآن، بينما يتمتع الزعماء الذين شجّعوا الإرهاب في بلدان غير بلدانهم بدعم الرأي العام في بلدانهم وفي شتى أنحاء العالم. ليس ذلك بعدل، كما أنه أمر سخيف أيضا".

"إن القوى العظمى تعطي لنفسها حرية أن يكون لديها معيار مزدوج: واحد لها وآخر لسواها من الناس. لقد دعم بيل كلينتون وإدارته الإرهاب الذي مارسه الانفصاليون الألبان في كوسوفو. كان الأميركيون حلفاء للإرهابيين، ومافيا المخدرات، ومجرمي كوسوفو. وقد استخدمت إدارة كلينتون هؤلاء الإرهابيين وتجار المخدرات والمجرمين كوسيلة لنزع استقرار يوغسلافيا وتدميرها، في حين يقبع الرجل الذي دافع عن وطنه في سجن لاهاي، متهما بجرائم مُلفَّقة لا وجود لها".

"ضرب الإرهاب الأميركيين، وعلى الرغم من أنه كان إرهابا أقل مأساوية من الإرهاب الذي عانيناه إلا أنهم قرروا الدفاع عن أنفسهم بكل الوسائل المتاحة لديهم، وذلك من حقهم إلا أنني أسأل: لِمَ لم يكن بمقدورنا الدفاع عن أنفسنا بجميع الوسائل المتاحة لدينا؟ ولماذا عوقبنا بأن قُصفت

عاصمتنا بينما كنا نحاول الدفاع عن أنفسنا في مواجهة مجاهدي كوسوفو؟ كان ذلك محض نفاق. نعم، نفاق. لابد أن يخوض الجميع الحرب ضد الإرهاب بالأسلحة ذاتها. كما يتعين تطبيق المعايير ذاتها على كل بلد وكل شعب. ولا يمكن معاملة القادة كأبطال حينا ومجرمي حرب حينا آخر. كما ينبغي معاملة حتى الإرهابيين بالمثل؛ إذ ليس بوسعك أن تعاملهم كمجرمين حيناً وكشهداء أو محررين حينا آخر. عامل زوجي الجميع بالمثل، ولم تكن لديه معايير مزدوجة".

صمتت البروفسورة غاضبة. ثم أشرق وجهها فجأة، كما لو أن فكرة تُعزّيها خطرت ببالها توّاً. "إذاً، من هو الإرهابي الأشد خطرا في العالم اليوم"؟ سألتني بصوت خافت. "لا أحد يعلم علم اليقين. فالإرهابيون يختبئون في أقل الأماكن إثارة للشبهة. لديهم الوسائل النفسية والتكنولوجية الأكثر تطورا، وتحميهم تكنولوجيا وأنظمة اتصال معقدين. لعلهم يختبئون في مدينة حديثة، أو مركز إداري. بل لعلهم يختبئون في حاضرة غربية...".

ثم ضحكت ضحكتها الساخرة.

كيف يبدو وجه رجل ارتكب جرائم حرب ضد الإنسانية؟

وجه سيموزاريتش مدوّر، طلق المحيا. إنه وجه واحد من أولاد الأرض الشرفاء. فيه قليل من الصرامة، بيد أنه معذور في ذلك، فأمامه رحلة طويلة يقوم بها. يتعين عليه غدا أن يُغادر مسقط رأسه، بوزانسكي ساماش، ويستقل طائرة عائدا إلى هولندا كيما يُودَع السجن في شفينينجن، مع ميلوزوفيتش، وقرابة خمسين آخرين.

في السجن الذي يؤوي مجرمي البلقان يدعونه «باغانيني»، لأنه

يعزف الكمان مثل إله ويحاول مساعدة الجميع على الانسجام والتآلف مع بعضهم البعض مثل أوركسترا صغيرة، بما فيهم السجناء الذين حاربوا ضد بعضهم البعض.

سمحت له محكمة لاهاي بالخروج من السجن لبضعة أشهر، وقد انتهت هذه المهلة الزمنية الآن. أثناء وجوده في بوزانسكي ساماش. ينتقل سيمو باستمرار من مأدبة غداء عند أحد الأصدقاء إلى مأدبة عشاء عند صديق آخر. غير أنه لا يجلس قط حتى نهاية المأدبة، بل ينهض في منتصفها، يعتذر، ثم ينتقل إلى الغداء أو العشاء التالي. "يتعين عليّ أن أودّع الجميع، الأقارب والأصدقاء. إنه أمر مُضن، لكني لا أقدر أن أخيب أمل أي منهم. ومن حسن الحظ أنّ بمقدوري أن أرتاح عندما أعود إلى زنزانتي". يقول مازحا.

بوزانسكي ساماش مدينة صغيرة طبيعية جدا. ثمة بضع شوارع تضم حانات ذات أسماء موحية على غرار الحانات المنتشرة في شتى أنحاء صربيا والبوسنة: سكسي غيرل، بارادايز، فيراري كلوب، كوكتيل كيس، ولكل منها نصيبها من الزبائن الشبان الذين يرتدون سراويل وأحذية رياضية ويشربون القهوة التركية لساعات دون انقطاع. ثمة بضع مدارس مبنيّة على طراز فن العمارة في هابسبرغ، وسيارات قديمة ماركة أودي جلبها المهاجرون الذين يعملون في ألمانيا. كما يمر بالقرب من المدينة نهرٌ يرسم الحدود مع كرواتيا.

كان تعداد سكان بوازانسكي ساماش قبل يوم 29 شباط عام 1992 ثلاثمائة ألف نسمة نصفهم من الصرب، وربعهم من الكروات، والربع الآخر من المسلمين، والأهم من ذلك أنها كانت في يوغسلافيا. في ذلك اليوم، غدت بوازنسكي ساماش جزءا من جمهورية البوسنة والهرسك

الجديدة. وعندما أعلنت البوسنة استقلالها عن يوغسلافيا ميلوزوفيتش، اعترفت بها الولايات المتحدة والإتحاد الأوروبي يوم 7 نيسان 1992. غير أن بوزانسكي ساماش لم تنعم سوى بعشرة أيام من السلام. ففي يوم 17 نيسان، قامت باحتلال المدينة فرق من المظليين الصرب المسلحين ببنادق آلية وقد عصبوا رؤوسهم بمناديل عليها رسوم وارتسمت على وجوههم تعابير خُلوٍّ من الهم كتلك التعابير التي ترتسم على وجوه صِبيةٍ يوم نزهتهم، وأعلنوها «بلدية صربية». وبذلك سلبت هذه القوات المدينة من البوسنة ووضعتها تحت وصاية الريبيليكا سبراسكا، الدولة ذات الإثنية الوحيدة التي جرى اصطناعها بزعامة رادوفان كارادیش ودعمها بصورة أساسية الجيش الفدرالي اليوغسلافي. وبعبارة أخرى، ميلوزوفيتش.

لا يزال 33000 شخص يعيشون اليوم في بوازانسكي ساماش. حيث عدد الكروات يبلغ مئة شخصٍ فقط، وعدد المسلمين ثلاثمائة، أما الآخرون فقد رحلوا جميعهم. ومن الناجيات فاطمة، امرأة ضخمة وحزينة ترتدي ثوباً أرجوانياً وقد طلت أظافرها بطلاء أسود. فاطمة زوجة سيمو زاريتش.

طُرِدَ ما مجموعه 17000 كرواتي ومسلم عنوة إلى «معسكرات للأشغال الشاقة» أُقيمت على التلال المجاورة للنهر. ذاق معظم هؤلاء الأمرّين في مدرسة «ميتا تريفونوفيتش» الإعدادية، فقد حوّل رجال الميليشيا الصرب صفوفها إلى زنزانات للتعذيب، وهناك قتلوا واغتصبوا وضربوا كلّ من كان ذنبه أنه كرواتي أو مسلم.

في تلك الآونة، لم يكن باغانيني يعزف على كمانه، بل كان يرتدي، عوضا عن ذلك، بزّة عسكرية ويداعب بندقية كلاشينكوف. كان يؤلف أغنية تسمى «التطهير العرقي».

عندما يتذكر تلك الأيام، يهز سيمو رأسه بحياد محزن لرجل يتذكر مصيبة وقعت بعيدا عنه في أرض غريبة. "إنها قصة مريعة، ياصديقي. مريعة".

"لكن ألم تر ما كان يجري داخل المدرسة وخارجها"؟

"نعم، بالطبع. رأيت أمورا تحدث لم أحبذها. بل لقد حاولت أن أضع حدّاً لها. إلا أن القادة لم يقيموا لي اعتباراً. وبالفعلُ، أفهمني القادة المظليون الذين أتوا جميعهم من الخارج، مجرمون وضيعون ارتدوا البزّات العسكرية في آخر لحظة، أنهم سيقتلونني إن أنا أصريت على ذلك. كان نظامهم قائما على الخوف. كان حزب رادوفان كاراديتش يحميهم. أي أنه كان لديهم غطاء سياسي، ألا تفهمني؟ كان من غير المجدي أن أشكوهم إلى سلطات الدولة، فهل يمكن لسيمو زاريتش أن يوقف كارادينش؟ أو من هم فوق كارادينش، ميلوزوفيتش وزوجته؟ أو ذاك الزعيم السياسي، ذاك الرجل المثقف الموجود معنا في لاهاي الآن، مومشيلو كارايزنتيش. أولئك الذين كانوا يمسكون الخيوط هم المذنبون، صدقني، أولئك الذين جلسوا مرتاحين في مكاتبهم بينما أصدروا الأوامر. أولئك هم المذنبون، وليس أولئك الذين كانوا على الأرض".

يبلغ سيمو الرابعة والسبعين. في «الأيام الخوالي»، عندما كانت بوزانسكي ساماش بلدة يوغسلافية وليست بوسنية، كان سيمو رجل شرطة، ثم تطوّع في سلك المخابرات اليوغسلافية، كانت تلك وظيفة ثانوية، قليلة الأجر، لكنها غير متعبة، إذ لم يكن آنذاك ثمة أعداء كثر للدولة في بوازنسكي ساماش. لم تكن زوجته مسلمة فحسب، بل وكانت إحدى بناته متزوجة بكرواتي، وكانت شقيقته أيضا متزوجة بمسلم. يضحك سيمو جذِلا. "ها أنت الآن تفهم ما كنت أقوله. هل يُعقل أن أكون

مذنبا؟ أنا مواطن مثالي في يوغسلافيا السابقة. كانت عائلتي أيضا مثالية، فقد كانت عائلة مختلطة. أنا سعيد، بل وفخور، لأني عشت في يوغسلافيا تيتو، ذاك البلد الرائع. بلد دمّره أولئك الذين شرعوا في تقسيمه إلى جمهوريات متعددة، وليس نحن الصرب بكل تأكيد".

أثبتوا في السجن بأن سيمو كان ضابطا برتبة عالية في وحدة عسكرية تُدعى «الكتيبة الرابعة». كانت جزءا من لواء بوسافينا، فيلق للمتطوعين تم دمجه مع جيش ريببليكا سبراسكا الجديد. كانت «الكتيبة الرابعة» متمركزة في بوزانسكي ساماش. وبحسب المحكمة، تنقّل ضباطها وجنودها من منزل إلى آخر فنصحوا الـ 17000 كرواتي ومسلم قائلين "ينبغي أن تغادروا بيوتكم وتذهبوا إلى معسكرات العزل التي أقمناها ضمانا لسلامتكم". فإن رفض السكان "النصيحة"، كانوا يستخدمون القوّة.

ترحيل الأشخاص بصورة لا شرعية هو جريمة بحق الإنسانية. إلا أن سيمو زاريتش لا يشعر بأنه مجرم، وإنما مجرد وطني.

وكيما يكون بمقدورنا أن نتحدث بهدوء، بعيدا عن الأقارب الذين يريدون أن يشربوا نخبه، أو المعارف والمارة الذين يريدون أن يربتوا على كتفه كي يُظهروا دعمهم، يأخذني سيمو إلى مكتب صديقه، مدير معمل النسيج في بوزانسكي ساماش. كانا معا في الجيش الصربي خلال تلك الأشهر الفظيعة وخدما معا في «الكتيبة الرابعة» وحاربا الكرواتيين معا. كانت «حربا حقيقية ضدّ الفاشيين». لا تزال الطلقات الكرواتية التي أُطلقت من الضفة الأخرى للنهر مطمورة في جدار المعمل.

وعدني سيمو بأن يقصّ عليّ كل شيء. "إنه أمر صعب علي، لكنني سأقوم به لأنني أؤمن ببراءتي فعلا. أريد الحقيقة ولا شيء سواها". شرطهُ الوحيد أن أُصغي أولا إلى قصّته من البداية. تبدأ القصة في بداية

الحرب العالمية الثانية، كحال الامتعاض والكُره اللذان زلزلا يوغسلافيا في التسعينيات.

"كان شقيقي الأكبر نصيرا معروفا. قُتل في مذبحة مات فيها ثمانمائة صربي. ذبحتهم قوات الأوستاشا من كرواتيا في نهاية الحرب العالمية الثانية". يلتفت سيمو بسرعة باتجاه نقطة غير واضحة فوق النهر أطلقتْ منها المدافع النار على المصنع. "دُمِّرَت القرية بكاملها وقُتل مائتان واثنان وأربعون فردا من عائلتي. لهذا عندما ولدت أسموني باسم شقيقي المشهور". يروي عديد من الصرب القصة ذاتها في هذه المنطقة الحدودية الواقعة على بُعد عدّة كيلومترات فقط من كرواتيا. إنها القصة ذاتها التي سيرويها لأولادهم أولئك الذين نجوا من الغارات الصربية على بوزانسكي ساماش.

يحتسي سيمو فنجانا من القهوة ثم يقول "ها أنت تعرف الآن مَنبَتي. أنا على استعداد لأقص عليك كل شيء. ما الذي تُريد معرفته"؟

أسأله عن الفظائع التي ارتكبتها وحدته.

"لم تقتل الكتيبة الرابعة أحدا أو تشن أي غارة. حتى أننا لم ندخل المدينة قط. المظليون الذين قدموا من الخارج هم من ارتكب الاعتداءات بقيادة شخص اسمه ستيفان تودوروفيتش، ويدعى ستيفو. كانوا يدعونه أيضاً بـــ الوحش. كنا مجرّد جنود عاديين في جيش الريببليكا سبراسكا، جنود نظاميون محترفون. كنا نخفر الحدود، ولم نشارك في أعمال السلب والنهب. كنا إما في ثكنات أو على الجبهة".

توصلت المحكمة إلى قرار آخر، بالطبع. أسأله، ولكن حتى وإن كانت الوقائع كما وصفتها، ألم يكن بمقدوركم، وأنتم جنود نظاميين، أن توقفوا المظليين؟

يجيب سيمو بالنفي، وبأن ذلك لم يكن ممكنا. بل لقد كان مستحيلا قطعا. قال بأنه لطالما أراد أن يوقفهم، بيد أنه أُعدِمَ الوسيلة. كان الوحش ورجاله يسيطرون على الوضع. كانوا خطرين.

ولكن، كم كان عدد الجنود في الكتيبة الرابعة؟

"خمسمائة جندي"، يقول سيمو.

مسلحون؟

نعم.

وكم كان عدد المظليين؟

"ثلاثون"

خمسمائة مقابل ثلاثين، ولم يجرؤ أحد من هؤلاء الخمسمائة أن يقف في وجه الثلاثين الذين قادهم ستيفو ـ الوحش، المُغتصب والجلاد، قائد «قوات الأمن» في مدينة ساماش التي يسيطر عليها الصرب.

كذلك اكتشفتْ محكمة لاهاي أن سيمو كان واحداً من المسؤولين في لجنة «تبادل الأسرى»، اللجنة التي كانت تطرد غير الصربيين، فتسلّمهم بالقوّة إلى السلطات الإسلامية أو الكرواتية. وكانت، بالمقابل، تستقبل اللاجئين الصرب من المناطق الأخرى، ضحايا حروب أخرى، فتعطيهم البيوت، والسيارات، والوظائف التي تخلى عنها الكروات والمسلمون «طواعية». وبعبارة أخرى، أعادت اللجنة تشكيل التركيبة الإثنية في بوزانسكي ساماش.

"أوه، نعم". يقول سيمو، كما لو أن أمراً كهذا من الممكن أن يفوت ذاكرة المرء. يحاول أن يبدو سيمو غايةً في الرّقة. يلطمني على كتفي ويضحك. وبين نوبة وأخرى من الضحك يمتقع وجهه ويغدو جادا "كان

وضعا منفلتا. كان ذلك عارا، عار حقيقي. أعترف بذلك. ولكن هل كان باليد حيلة"؟

في الواقع، يقول سيمو، حتى اللجنة لم تكن الملومة، وبأنها كانت "ضرورة تقنيّة".

"خلقت الحرب وضعا أراد فيه الناس من غير الصرب مغادرة بوزانسكي ساماش. وقد ساعدناهم". إذاً، فقد ترك أولئك الناس بيوتهم وكل ممتلكاتهم طواعية؟ "نعم". ولم يكن ذلك نتيجة الترهيب وإنما نتيجة قرارات عفويّة؟ "بالضبط، يا صديقي. بالضبط. كانت حربا قذرة".

وبفعل "ضرورة تقنية" تلو أخرى، نجح صرب بوازانسكي ساماش في خلق مدينة "نقية إثنيا"، على عكس يوغسلافيا المتسامحة ذات التعددية الإثنية التي يزعم سيمو وغيره من "المعتدلين" بأنهم أحبوها.

"ارتكب الجميع أخطاء: الصرب، والكروات، والمسلمون. لقد سمحنا لأنفسنا أن يضحك علينا قادة أشرار".

عندما كان غير الصربيين يُطردون من المدينة، كانوا يُأخذون إلى «معسكرات عزل»، هل كانت تلك المعسكرات سجونا؟ "كلا، ليس بالضبط"، يعترض سيمو. كيف كانت إذاً؟ "السجن هو السجن. كانوا يُعزلون هناك لصالحهم الخاص. كما كان يُسمح لهم بالعمل".

كدت أن أضرب سيمو زاريتش، باغانيني شيفينيجن. لكنني، عوضاً عن ذلك، قررت أن أسأله عن الكتاب الذي ألّفه في معرض دفاعه. تظهر على غلاف الكتاب صورة لمظاهرة تأييد له نُظّمت في بوزانسكي ساماش قبل أن يأتي رجال لاهاي لاعتقاله. يظهر سيمو في الصورة أصغر سنا وأكثر نحافة، يرتدي ربطة عنق حمراء، ويحمل لافتة تقول "ليست جريمة أن تقفوا إلى جانب أحبائكم في الأوقات العصيبة".

سألته إن كان يأسف لتلك العبارة، فثمة ظروفٍ قد يُسيء فيها الأحبة التصرف. هل الولاء الإثني أشد أهمية من المبادئ الأخلاقية؟ "كنت أحاول أن أقول أن على المرء أن يقف بجانب أحبائه حتى عندما لا يكون ذلك في صالحه"، يقول سيمو. فعلى سبيل المثال، لو أنه غادر بوزانسكي سأماش مع الآخرين، لوقعت جرائم أخرى كثيرة ولراح ضحيتها أناس آخرون. كان وجودهم يكبح جماح الوحش.

سيمو هو المشتبه به الرئيس. يحترمونه في لاهاي لأنه سَلَّم نفسه بملء إرادته بتاريخ 24 شباط 1998 إلى SFOR، القوّة الدولية المُرسَلة إلى البوسنة. سلّم صديقاه ميلان سيمتيش وميروسلاف تاديتش نفسيهما قبله بعشرة أيام. كان شقيق سيميتش «المحافظ» الصربي لمدينة بوزانسكي ساماتش. أما تاديتش فقد كان نائب زاريتش في «لجنة تبادل الأسرى». سلّم سيميتش، وتاديتش، وزاريتش أنفسهم لعلمهم بأنهم ليسوا بالأهمية التي تجعلهم أهلا ليكونوا في حماية القوّات المسلحة البوسنية ـ الصربية. كما كانوا أكثر شهرة من أن يتفادوا الاعتقال عاجلا أم آجلا. ولذلك لعبوا ورقة التعاون مع المحكمة.

كان الوحش أيضا في سجن لاهاي، وفي الطابق ذاته مع سيمو، ولكن في زنزانة أخرى. "حتى أننا لا نتبادل الحديث، فأنا أحتقره. أعزف الكمان للجميع باستثنائه"، يقول سيمو. كان سلوبودان ميلكوفيتش، المعروف بـــ"الأخرق"، واحدا من الشخصيات القيادية الأخرى في بوزانسكي ساماش خلال تلك الأشهر الفظيعة. كان ميلكوفيتش قائد «الكتيبة الرابعة». اغتيل في ظروف غامضة في البوسنة في أيلول 1998.

خرجنا من المصنع. قال لي سيمو بأنه يريدني أن ألتقي ابنه. وجدناه في البار. وقد يرتدي سروالا وصندلا كالآخرين، ويجلس تحت مظلة

رخيصة مستوردة من إيطاليا. وكانت زوجته فاطمة حاضرة أيضا. سألتها إن كانت صحيحا بأن فظائع ارتكبت داخل المدرسة بحيث لم يكن بمقدور أحد أن يرى ما كان يدور في الداخل، وإن كان ذلك هو السبب في أن الناس لا يعرفون ولا يخمنون شيئاً. تنهض فاطمة عن الكرسي البلاستيكي. "ضُرِب الناس وقُتِلوا في الشارع الرئيس في بوزانسكي ساماش بصورة يومية. نعم، في الشارع. قَتَلوا المسلمين لأجل بيوتهم، لكي يعطوها للصرب الذين أتوا من خارج المدينة. أذكر أناسا توسلوهم ألا يؤذوهم، بيد أنهم استمروا، مع ذلك، بالضرب وإطلاق الرصاص".

لا يخالفها سيمو الرأي، وإنما يحني رأسه فوق الطاولة ويطلب عصير أجاص.

عندما أنهت فاطمة كلامها، خاطبني، ولكن كما لو كان يخاطب زوجته. "لو أننا عرفنا فعلا كل شيء، فربما كان بعضنا سيتصرف. إلا أن يوغسلافيا السابقة بأسرها كانت قد جنت من حولنا. إضافة إلى ذلك، كنا مسجونين في ثكناتنا".

انتهى الآن كل شيء وبانت الحقيقة. لم يعد بمقدور الناس أن يقولوا بأنهم لا يعرفون شيئا. اعتُقل البعض، مثل سيمو، وغدت بوزانسكي ساماش وحيدة الإثنية. لم يعد ليوغسلافيا ميلوزوفيتش وجود. سلوبا في لاهاي، إنه أوّل رئيس دولة يُتّهم بجرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية. لا يزال رادوفان كاراديتش فارّاً بعد أن سرق ملايين الدولارات من محبوبته ريببليكا سبراسكا. وباختصار، لم يعد بمقدور أولئك الذين يشدّون الخيوط من وراء الستار أن يأمروا بارتكاب الجرائم. والناس الطيّبون اللطفاء في بوزانسكي ساماش، الذين يشربون قهوتهم الأبدية في حانة الكوكتيل كيس، ماذا يفعلون؟ ألا يملؤهم الحزن؟ ألا تعصف الشكوك بهم؟ كلا، بل

يصوِّتون بالإجماع لحزب كاراديتش، الـــ SPD، الحزب الذي مثّل التطهير العرقي، والذي منح ستيفو الوحش وجميع الباقين حماية سياسية.

"لا أفهمهم"، يقول سيمو، الذي أوشك على العودة لعزف الكمان لجمهوره المختار المؤلف من خمسين مجرم حرب. إنما فاطمة، من ناحية أخرى، تفهمهم تماما. تحدجه بنظرة صارمة. "سيمو، أنت تعرف تماما لم يفعلون ذلك. إنهم يخشون أن يسمح حزب آخر للمسلمين والكروات بالعودة إلى منازلهم هنا في بوزانسكي ساماش. يخشون أن يُرمى بهم من أسِرَّتهم. إنهم متمسّكون بما سرقوه من متاع. هذا كل ما في الأمر. ولذلك يستمرون بالتصويت للمجرمين".

عندما تكون زوجته حاضرة، لا يبتسم سيمو كثيرا، ويكف عن صفع الناس على ظهورهم، ولا يُلقي النكات. "نعم، إنهم يصوّتون للمجرمين، المجرمين الحقيقيين. إنهم يصوّتون للسمكة الكبيرة، كاراديتيش، ولميرا وسلوبودان ميلوزوفيتش. لم يكن ليحدث ما حدث قط لولا ميلوزوفيتش. إنه الوحيد الذي يتعيّن لومه".

على أية حال، ترى البروفسورة ماركوفيتش أن التافهين، أمثال سيمو زاريتش، هم الذين "تمادوا".

"لقد أوضحت هذا الأمر مرارا وتكرارا في آلاف الصفحات في كتبي، والحقيقة أني سئمت من إيضاحه. صار لي أكثر من عشر سنوات أتحدث وأكتب عن ذلك. ومع ذلك، سأوضّح الأمر باختصار. ثمة قوى معيّنة اقتصادية، سياسية، وعسكرية في الغرب كانت لديها النيّة في السيطرة على دول البلقان. في السابق، وجدت هذه القوى بأن السيطرة على دول البلقان أمر سهل نسبيا، فحاولت أن تفعل الشيء ذاته مع

يوغسلافيا. غير أن هذا البلد أثبت أنه جوزة يصعب كسرها، كما أنها كانت بلدا مهماً لأنها حققت، على مرّ عدة سنوات بعد الحرب العالمية الثانية، توازنا ناجحا بين الشرق والغرب. كانت الجسر بين الاشتراكية والمجتمع البرجوازي، حيث قامت سياستها على المبادئ العليا. ولهذا كانت محترمة جدا بين دول العالم. لذلك كان الإستراتيجيون الغربيون مهتمين بتفكيك هذه اليوغسلافيا. فقد كانت بلدا متعدد الأعراق، وبرأيي، كانت نموذجا يحتذى من التآلف الاجتماعي بالنسبة للمجتمع الغربي ذاته. ولهذا السبب، أظنّ بأن الإستراتيجيين الغربيين حرّضوا على الكره والتعصب العرقيين بين الشعوب اليوغسلافية، فجروهم إلى العنف والحرب. لقد وجد أولئك الإستراتيجيون لهم حلفاء بين جميع الشعوب اليوغسلافية: الكروات، والصرب، والمسلمين. دمّرتنا هذه القومية البدائية والغبيّة. نحن ضحايا الكره الذي جاءنا من الخارج".

وماذا عن سياسة التطهير العرقي التي شجع عليها سلوبودان ميلوزوفيتش وجرى تنفيذها بأسلحة قدّمها الجيش اليوغسلافي؟ وماذا عن مذبحة فوكوفار؟ وسربرينيكا؟ زينيكا؟ والقبور الجماعية؟

أحمل في يدي كتاباً بعنوان **حرب الأعوام العشرة**. صورة الغلاف واحدة من الصور التقليدية لمدينة سراييغو تحت الحصار. إنها صورة أناس عاديين، يُمسكون حقائب تسوّق، ويركضون عبر واحدة من ساحات المدينة الشهيرة بينما تنهمر عليهم الطلقات والقذائف الصربية من فوق، من الهضاب في خلفية الصورة. ترى البروفسورة الصورة فتأخذ الكتاب مني. تحملق في الغلاف، ثم تسأل "ماذا تُبيّن هذه؟ ما هذه الصورة"؟

لا يسعني أن أجزم إن كانت جادة أم ساخرة. لقد حرّكت تلك الصورة، وكثيرات مثلها، ضمير ملايين الأوروبيين في بداية الحرب. إن

صورا كهذه هي التي أدّت في النهاية إلى قصف الناتو لبلغراد. لابد أن البروفسورة تعرف ذلك. ولكن، وكما سعى سلوبا لأن يؤكد أمام محكمة لاهاي بأن "الصرب هم من تمت التضحية بهم وعُرّضوا للمعاناة. لقد قَتَلنا الإرهابيون الكوسوفيون والفاشيون الكروات. صحيح بأن الحروب اندلعت في كوسوفو، بيد أنها اندلعت لأن المسلمين قتلوا بعض الصرب في حفل زفاف صربي. أتتذكرون؟ نحن لم نبدأ الحرب".

لكن، ألم تأتي أسلحة كاراديتش، والأسلحة التي استُخدِمت في ذاك الحصار المأساوي، من بلغراد؟ من عند ميلوزوفيتش؟

غضبت البروفسورة لهذه الأسئلة "لِمَ تسألني؟ لم أكن وزير الدفاع! فأنا أحاضر في علم الاجتماع في الجامعة. كيف لي أن أعرف تفاصيل كهذه"؟

هذه التفاصيل هي «الضرورات التقنية»، كما يقول سيموزاريتش، التي أجّجت عشرة أعوام من الحرب والمذابح. "ما أعرفه، ويعرفه شعبنا بأسره، هو أن صربيا ويوغسلافيا قدّمتا مساعدة عينية للصرب الذين يقاتلون في البوسنة وكرواتيا. قمنا بما نقدر عليه، أرسلنا إليهم شاحنات محملة بالبطانيات والطعام والأدوية والخيام، والملابس.... إنه أمر منطقي، ولا علم لي بأنه جريمة. أما فيما يخص الأسلحة، فقد استخدم صرب البوسنة وكرواتيا الأسلحة التي خلّفها الجيش الاتحادي اليوغسلافي قبل أن تعلن مختلف الجمهوريات استقلالها. لكن، إن كانوا سيحققون فيمن أمدّ الصرب بالأسلحة، يتعيّن عندئذ أن يحققوا أيضا فيمن كان يمد الكروات والمسلمين بالأسلحة. لم لا تسألون أنتم الغربيون أنفسكم هذا السؤال قط؟ اشتركت في تلك الحرب ثلاثة شعوب، وليس شعبا واحدا فحسب. لِمَ لا يقولون بأن أسامة بن لادن سلّح مسلمي كوسوفو؟ ولم لا

يقولون بأن ذاك الزعيم الألباني، ما اسمه؟ نعم، إبراهيم روغوبا، اعترف بوجود معسكرات لتدريب المتمردين الإسلاميين في كوسوفو عام 1998؟ ليس صحيحا أن أناسا أبرياء قُتلوا في كوسوفو وأُخذت جثثهم إلى صربيا ليتم إخفاؤها. هذه أكاذيب، هل تفهم؟ كانت الجثث التي نتحدث عنها جثثا قديمة، عمرها مئة أو مئتي عام. إننا نقدّم الأدلة على ذلك في لاهاي. وبحوزتنا وثائق وصور. أنت تحاول أن تشوّه سمعة يوغسلافيا وصربيا، ولا تنفك تسألني عن رادوفان كاراديتش ومالديتش. لست على علم بما كانا يفعلانه، وما كان يدور في ساحة المعركة. كنت أعيش في يوغسلافيا، وليس في البوسنة أو كرواتيا. اسأل أولئك الذين كانوا هناك، ولا تسألنا نحن".

سيمو زاريتش واحد من الذين كانوا هناك، على الجبهة. رأى المزارع تُحرق لإجلاء الناس الذين عاشوا فيها. كما رأى عمليات الاغتصاب، ومصادرة الممتلكات.

"ذات يوم جاء الوحش إلى ثكناتنا كيما يُفتِّشنا. لم يؤد الخدمة العسكرية قط، لكنه رأى ضباطاً محترفين، جنوداً حقيقيين وقد اصطفّوا أمامه طائعين. وقف الجنود منتصبين بلا حراك. كانوا خائفين. كنا جميعا خائفين يجب أن تفهم ذلك كنا نرتجف من الداخل، بالرغم من أننا لم نُظهر ذلك. قال الوحش [إن لم تتصرفوا كصرب حقيقيين فسوف تلقون نهاية بشعة]".

أسأل سيمو، لكن إن كان ذلك كله نتيجة الإكراه، لماذا يستمر سكان بوزانسكي ساماش بتأييد الحزب الذي شجّع الجريمة وحمى الوحش عندما زال الإكراه؟

"لا أعلم، لا أعلم، لقد أجبتُ على ما يكفي من الأسئلة. يتعين عليّ أن أذهب الآن".

لا يحسّ سيمو زاريتش، في قرارة نفسه بتعاسة بالغة حيال عودته إلى سجن شفينينجن. ثمة يوغسلافيا جديدة خُلقت هناك، يوغسلافيا كما كانت في الماضي، فيها الصرب، والكروات، والمسلمون، جميعهم متساوون، جميعهم مذنبون، وجميعهم سعداء بالاستماع إلى الموسيقا المتأثرة بموسيقا الغجر التي يعزفها باغانيني على كمانه.

"أنا مُلحِدة، جيلي بأكمله مُلحد، لكني لست ماركسية. كتبتم أنتم الغربيون بأني ماركسية، لكن ألم تقرؤوا كتبي قط؟ أنا، بكل بساطةٍ ووضوح، عالمة اجتماع، ولست عالمة اجتماع ماركسية. أُدرّس علم الاجتماع ذاته الذي يُدرّس في جميع أنحاء العالم، لكني أؤمن بنوع من الاشتراكية يقوم على أفضل النماذج، النظرية منها والعملية. أؤمن بالاشتراكية كما عرفناها حتى هذه اللحظة، كما أؤمن بالرأسمالية أيضا. غير أن مجتمعا كهذا لن يدعى مجتمعا اشتراكيا، لعله سيُدعى باسم آخر، ولكن ليس هذا بذي شأن. ما يهم هو أن الناس في هذا المجتمع يجب أن يكونوا سعداء، وأن يعيشوا في رخاء، وأن تكون لديهم حقوق متساوية. أما بالنسبة للقومية، فتلك كذبة أخرى روّجت عنّا: نحن وطنيون، ولسنا قوميين. لقد ذهبنا إلى الجامعة، وقرأنا الكتب، ونعي الفرق تماما".

اعتادت البروفسورة أن تناديه بـــ "جروي الحبيب". أما بالنسبة للآخرين، فقد كان ماركو ميلوزوفيتش رجل عصابات. لم يكن في مَرقَصِه، واسمه مادونا، ما هو مقدّس سوى اسمه، وكانت تقصده مافيا بلغراد بأسرها. افتُتِح المرقص في بوزاريفاتش، المدينة الصغيرة مسقط

رأس سلوبودان ميلوزوفيتش. كان ماركو رجل أعمال، معظمها تجارة التهريب. بيد أنه كان يمتلك أيضا مدينة ملاه، 'بامبي لاند، وعيادة إجهاض، وسلسلة مخابز، ومزوّد خدمة الإنترنت مادونا، إضافة إلى كثير من الأفضال على الأصدقاء. قال سلوبودان ميلوزوفيتش لابنه أن يضبط نفسه. "انسَ أمر عيادة الإجهاض"، صرخ سلوبا على الهاتف عندما اتصل ماركو كيما يخبر والديه عن آخر أفكاره الذكية فيما يخص العمل. "ركّز على مادونا واجعله عملا شريفا".

خلال محادثةٍ هاتفية أخرى، تحدث ميلوزوفيتش إلى ابنته ماريا التي تملك محطة تلفاز (تمولها الحكومة) "أرجوكِ، إنه العام الجديد عند الجميع. لابد أن الناس سئموا رؤيتي على التلفاز. دعيني ودعي الآخرين بسلام ليوم واحد فقط. الله نفسه ملّ رؤيتي على التلفاز. وأنا أيضا مللت".

"أما أنا فلم أملّ، ومع هذا، سأفعل ما تقول".

لا تتذكر البروفسورة هذه الأحاديث التي سجلتها المخابرات الكرواتية، بيد أنها تحاول أن تنسى الخوف الذي بثّه النظام بين الناس البسطاء، والرقابة المفروضة على الصحافة. كانت صحف وتلفزيون بلغراد يحرّضان فيما مضى على الكره بعرضِ صور للصرب في ظل المعاناة، ويدعمان نظام ميلوزوفيتش.

تجيب البروفسورة "أنت تكتب بأننا أغنياء، بيد أننا لسنا كذلك. تكتب بأنّ ميلوزفيتش أوتوقراطي، لكن ذلك غير صحيح. لو كان أوتوقراطيا لما كانت خمس وتسعون بالمائة من وسائل الإعلام بأيدي المعارضة التي تهاجمه باستمرار".

خمسٌ وتسعون بالمائة.

صحيح. لكن الأمر هو أن خمساً وتسعون بالمائة من الصحف

ومحطات التلفاز كانت مأجورة لميلوزوفيتش أما الخمسة بالمائة الباقية فهي التي عارضته، وقد دفع من عمل فيها حياته ثمن ذلك، على الأرجح.

يدعونها في بلغراد بـــ «الساحرة الحمراء». عندما كانت سلطتها في أوجها، كان لميرا عمودٌ بعنوان «ليلاً نهاراً» في عدّة مجلات نسائية. كان الجميع يقرأون العمود ليعرفوا من هو الضحية التالية في «تبادل إطلاق نار بين مجهولين» أو من كان ذو حظوة. أو لمعرفة مزاج سلوبون ميلوزوفيتش.

وبحنان أمومي، كانت ميرا تكتب ، عقب كل حادث في سلسلة الحوادث غير المعدودة التي كان ابنها ماركو يتلف فيه سيارة بورش أو مرسيدس، "يحب ماركو أن يلعب بسياراته كما كان يفعل عندما كان طفلا". كانت تحتفل أحيانا بزقزقة العصافير في الحقول صباح يوم ربيعي، أو بتفتح الأزهار على جبال صربيا. وفي الغالب الأعم كانت تكتب عن الموسيقى.

"أنا من برج السرطان. يقولون بأن الموسيقى هي الحياة نفسها بالنسبة لمواليد برج السرطان. أحب الموسيقى التي تذكّرني بأشياء معينة، الموسيقى الجميلة، الراقية، والحديثة... أحب جميع أنواع الموسيقا ما عدا الكلاسيكية. لا تكتب ذلك، ولكنني لا أحبُّ كل ما هو قديم. لا أزور المتاحف قط. كنت أزورها في الماضي مرضاة لشعب المدينة التي كنت أزورها مع سلوبودان ميلوزوفيتش. بيد أننا نفضل الأشياء الحديثة، الأشياء الجديدة".

"ليس بمقدوري أن أتحدث نيابة عن زوجي. ليس بمقدوري فعلا أن أقول إن كان قد ارتكب أي خطأ. أما فيما يخصّني، أفكر أحيانا أنه ربما كان يجدر بي أن أركّز طاقاتي أكثر. شغلتني الجامعة، والدعاية، والعلم،

والسياسة، انشغلتُ بها كلها في الوقت ذاته، ولعل ذاك هو السبب في أني لم أُصِب نجاحا أكبر. لكن ربما أواسي نفسي بالتفكير عندئذٍ بأن جميع هذه الأمور تكمل بعضها البعض.

وماذا بشأن اعتقال ميلوزوفيتش؟ هل كان من الخطأ الموافقة على تسليمه؟ "لا أعلم، أفضّل ألا أقول". تقول البروفسورة.

لقد شتّت هذا السجال عشيرة ميلوزوفيتش. كانت الابنة ماريا، ضدّ أن يُسلِّم والدها نفسه، وأطلقت النار على الشرطة. لا تزال غاضبة منه وترفض زيارته في لاهاي لأنه رفض العمل بنصيحتها: الانتحار. يقولون بأنها مدمنة على المخدرات، وبأنهم وجدوا في منزلها، عقب اعتقالها لإطلاقها النار على الشرطة، أدوية تكفي لملئ صيدلية. تعيش ماريا وحيدة في مونتينيغرو.

وماركو؟ أين يعيش؟ "أوه، يعيش في مكان بعيد". تقول ميرا ماركوفيتش. "لا يريد قط أن يعيش هنا ثانية فقد أغاظه كل ما حدث". هل يعني ذلك أنه يحس بالندم؟ يكاد السؤال أن يفرّ من بين شفتيّ بصورة عفوية، لكني لم لا أجرؤ على طرحه. "لا شك أنه لا يزال فتيا، وربما سيتغير ما يشعر به في المستقبل، أما الآن فإنه متأثر بشدة ولا يقدر ببساطة أن يصدّق أن الناس عاملوا والده على هذا النحو. والدٌ ضحّى بحياته وعائلته وحياتنا جميعاً لأجل الشعب".

عزيزي زوران،

لم يسبق أن كنت بعيدة عنك وقريبة منك إلى هذا الحد. أنا الآن في جنوب الهند، في مدينة مدراس. ليس بمقدوري أن أكون اليوم في بلغراد كي أقول لك وداعا، يا من كنت أفضل صديق لي

خلال الخمسة عشر عاما الماضية، لكنني أُرسل إليك رسالة تطير فوق البحار والمحيطات. ولن أفترق عنك ما حييت.

في البداية فكرت: لم يعد بيننا أحاديث، ولا تشاركٌ بالأفكار، ولا عواطف متبادلة أو شجارات أو آمال. تبادرت هذه الأشياء كلها إلى ذهني دفعة واحدة. هذه الأشياء التي دامت لسنين طويلة.

سأفتقدك ما حييت. وأتمنى لو كان بمقدورك أن تقول لي، الآن وأنت على وشك أن تفارقني، بأنك لن تتركني. أرجوك، اعتنِ بنا نحن الذين بقينا هنا، وأعدك بالمقابل أن أعتني بك. كما أرجوك ألا تغضب مني بسبب المرات القليلة التي سخرت منك فيها، إذ لطالما كنت رفيقي. إضافة إلى ذلك، لقد سامحتك على كل شيء.

لقد ساعدت الجميع، سواء كانوا أم لم يكونوا بحاجة إلى مساعدتك.

كان هذا ما جمعنا.

سأكون هنا على الدوام لأجل دانييلا، وسأحب أولادك كما أحببتك.

وداعاً.

ميرا.

التاريخ 24 تشرين الأول 1997. كان زوران تودوروفتش، الملقّب بـــ «كونداك»، المدير فاحش الثراء لشركة البيو بترول والأمين العام لحزب اليسار اليوغسلافي البالغ من العمر ثمانية وثلاثين عاماً، قد خرج لتوه من سيارته المرسيدس السوداء وعلى وشك أن يدخل مقرّ الإدارة. كان كونداك الحليف الرئيس لميرا ماركوفيتش، حيث قاما معا بإقالة جميع مدراء الشركات المملوكة للدولة في يوغسلافيا، وسمّيا ذلك «ثورة ضد البيروقراطية» ليدخل بعدئذ في صفقات شراء الشركات التي تمت

خصخصتها حديثا، مستفيدا من معلومات سرية لم تكن متاحة إلا لزعماء حزب اليسار اليوغسلافي. عاد بعدئذٍ ليزاول السياسة. ومثل ميرا، كان كونداك شاعرا يكتب باسم مستعار، وزميلا مقرّبا من سلوبودان ميلوزوفيتش. بيد أنه كان أيضا مصدر إزعاج فضّل تحاشيه عديد من أعضاء الحزب الاشتراكي الصربي، بما فيهم الزعيم سلوبا. في ذاك اليوم، اقترب منه رجل يحمل مسدساً مزوداً بكاتم للصوت وأرداه بطلقتين. كانت ميرا في الهند تروّج لكتابها الأخير. قُرئت رسالتها التي وصلت بالفاكس على مسامع جميع القادة اليوغسلافيين.

في الجنازة، أجهش ميلوزوفتش بالبكاء.

لم يُلقى القبض على القاتل قط.

قبل ذلك بثمانية أشهر، اغتيل فلادا كوفاسيفيتش، المعروف بـ«تريف». كان تريف شريك ماركو ميلوزوفيتش في أعماله، ومؤسس شركة تريف لسباق السيارات، كما كان شريكه في شركة إنترسبيد. تخصّص تريف بتجارة السجائر المهرّبة والسلع غير الخاضعة للرسوم، كما تاجر بكل ما جعل الحظر الذي فرضته الأمم المتحدة الحصول عليه أمرا صعبا.

أطلق القاتل أربع رصاصات. وبعد خمس عشرة دقيقة ظهر ماركو ميلوزوفيتش إلى جانب جثة صديقه باكيا.

حان دور رادوفان ستويسيتش، الملقب بـ«بادزا» وأحيانا «بروتوس» فبتاريخ 11 نيسان 1997 كان بادزا وكيل وزير الداخلية، وكان يجلس إلى طاولة في مطعم ماما ميِا، يتناول طبق السباغيتي المعتاد. قضى ستويستش حياته مرتديا البزّة العسكرية، كضابط شرطة في البداية، ثم كمنظمّ للمظليين «المتطوعين» الذين أُرسلوا للقتال في كرواتيا والبوسنة.

جمع ستويستش حفنة من الشباب الصرب، قتلة مأجورون مطلوبون من الإنتربول، وجعلهم قادة كتائب خاصة بالمهام فائقة الخطورة. كان أحد هؤلاء القادة «الكوماندر أركان»، لص مصارف اسمه زيليكو رازناتوفيتش، كان قد لعب دورا رئيسا في الغارات الوحشية التي وقعت في شرقي سلافونيا. أمدَّهم بادزا بالأسلحة والأموال، وكان هو نفسه قائد وحدة تدعى «القبعات الحمر»، نظّمها وزير الداخلية اليوغسلافي وأقر عديد من الشهود بأنها كانت المسؤولة عن الأعمال الوحشية، خصوصا في مدينة كارابينا الكرواتية.

أُردي ستويسيتش قتيلا بسبعة طلقات أطلقها من مسافة قريبة رجل يضع قناعا. وُجدت إلى جانب الجثة حقيبة تحتوي على 700000 مارك ألماني. حضر سلوبودان وماركو وماريا ميلوزوفيتش جنازته. وفي هذه المناسبة، أيضاً، أجهش سلوبودان بالبكاء. كما كان أركان حاضرا وقد اغرورقت عيناه بالدموع.

بعد عامين بالضبط، بتاريخ 11 نيسان 1999، اغتيل صحفي مشهور كان صديقا شخصيا لميرا ماركوفيتش بينما كان يركن سيارته. كان اسمه سلافكو كوروفيا. كان كوروفيا مالكا لعدة صحف منها صحيفة **ديفني تلغراف**، إحدى الصحف القليلة التي تجرأت على انتقاد النظام. إنه الرجل الذي نشر صور ماركو ميلوزوفيتش وهو يضع مسدسا في حزامه. كما نشر مقابلات مثيرة للسخط مع مظليين سابقين كشفوا عن تفاصيل العلاقة بين ساسة بلغراد والمجازر المُرتكبة على الجبهات في كارابينا وسلافونيا والبوسنة. ذات مساء، نشب شجار بين سلافكو كوروفيا وميرا ماركوفيتش في منزل ميلوزوفيتش. ارتفعت أصواتهما عاليا. ألمحت ميرا في عمودها «ليلا نهارا» إلى أن كوروفيا رجل مشبوه، يتجه صوب الليل

أكثر مما يتجه صوب النهار. أثار اغتياله ضجة في الخارج، بيد أن قذائف الناتو كانت تتساقط على بلغراد، ولم يتسن لأحد في يوغسلافيا الوقت لكي يبكيه. لم تحضر عائلة ميلوزوفيتش الجنازة.

بعد ثلاثة سنوات، اغتيل القائد أركان في أحد فنادق بلغراد. كان أركان قد تحوّل مؤخراً إلى رجل أعمال.

مات آخرون كُثُر خلال هذه الأشهر.

يقول وزير الداخلية الصربي الجديد، دوسان ميخايلوفيتش، بأن الشرطة السرية اليوغسلافية السابقة، الــSDB، هي التي اغتالت كوروفيا والرئيس السابق إيفان ستامبوليتش، ولعلّها اغتالت أيضاً أركان. كانوا ثلاثتهم أصدقاء سابقين عرفوا أمورا كثيرة.

لا تزال البروفسورة تندب صديقها «كونداك»، الشاعر والمقاول المطّلع.

"لم تكن بوزانسكي ساماش المكان الوحيد الذي كانت تُسفك فيه الدماء. كنّا سجناء وضع أكبر منا. لعلنا لم نُبد مقاومة كافية، وأنا آسف لذلك. بالمقابل، لابد أن تذهب إلى المدن الكبيرة، بلغراد، بالي، وبانيا لوكا، حيث كان القادة موجدين، كيما تجد من هو المذنب الحقيقي".

يمسك سيمو زاريتش حقيبته. غدا سيكون في أورانج أوتيل، كما يدعى السجن في شفينينيجن، البناء الذي يحمل رقم 32 على طريق يُدعى بمبستايشنزفيج.

كذلك تمسك البروفسورة ماركوفيتش بحقيبتها، فبعد وقت قصير ستنطلق أيضا قاصدة أورانج أوتيل.

"سيُعتبر زوجي بطل الناس البسطاء الذين وقعوا ضحية غطرسة

القوى العظمى. وسيُخلِّده التاريخ بوصفه مقاتلا عظيما لأجل الحرية. القبور الجماعية؟ تلفيق. أنا فخورة بشعبي. الشيء الوحيد الذي لا أشعر بالفخر حياله هو اعتقال قائد هذا الشعب بصورة غير شرعية وتسليمه إلى السلطات المختصة بفضل حكومة أُلعُوبة بيد الغرب". عندما تتحدث عن المحكمة، تكرر البروفسورة كلمة «متغطرسة» عدّة مرات كما لو كانت تتحدث عن اللياقة الاجتماعية والشكليات التي يتعامل بها الناس المحترمون.

رافقتنا دراغانا كوزومانوفيتش إلى باب مقر حزب اليسار اليوغسلافي. كان أحد الأصدقاء، واسمه إيفو، بانتظارنا في Bierhalle. إيفو مغني أوبرا، في حوالي الثلاثين من عمره، ذو وجه مدور كوجوه الصرب في الميثيولوجيا والفلولكلور، ولحية حمراء ووجنتان ورديتان بلون التفاح.

أحكي لإيفو عن سيمو والبروفسورة. كان إيفو يؤدي خدمته العسكرية عندما بدأ قصف الناتو لبلغراد. "سيمو واحدٌ ممن يؤمنون بالدعاية التي بثّها ميلوزوفيتش كي يجعلنا نصدّق بأن الصرب كانوا يُذبحون ويُعذبون في شتى أنحاء كرواتيا فيما العالم لا يهتم لأمرهم البتة. أنت واحدٌ من كثيرين في أوروبا يعتقدون بأن قصفنا بالقنابل وقتل المدنيين كان أمرا صائبا. أنا واحد ممن لن يسامحوا سلوبودان قط، بيد أني لن أسامح الغرب أيضا. يجب أن تكونوا أنتم الغربيون في قفص الاتهام إلى جانب سلوبا في لاهاي. على أية حال، دعونا نحتسي شراباً الآن".

تصل البيرة التي طلبناها ومعها طبق من الوجبات الخفيفة على سفود. ثمة فرقة آلات وترية كمان، فيولا، وغيتار تعزف أغان شعبية

مليئة بحزن مرير وألحان حنينيّة. يغني إيفو وقد حرّكته المشاعر حتى كاد يبكي. على الطاولة بقربي يُطفئ رجال يرتدون بزّات سوداء وربطات عنق بيضاء هواتفهم النقالة (حتى السرية منها) ويستمعون إلى إيفو والفرقة، يبدو أن الجميع يعرفون الكلمات.

هذه بلغراد، مدينة دنيوية وعالمية، وليست بوزانسكي ساماش، تلك المدينة الفقيرة، المغلقة على نفسها، سجينة نفق التطهير العرقي. يختلف إيفو عما سواه، فقد سافر إلى الخارج، ويتحدث الإنجليزية. عندما تتوقف الموسيقا يغمزني ويقول "القلب الصربي الكبير والعريق... إنه الشيء الوحيد الذي لم يُمسّ فيما بات كل شيء آخر حطاما. سترى بأننا سننتقم لأنفسنا يوما ما".

لكن تلك الفرصة لن تتاح قط لمن مرّوا بمدرسة «ميتا تريفونو فيتش» الإعدادية.

الجنرال

مانويل أنطونيو نورييغا

2 آب 2000

السيد أوريزيو المحترم

شكراً لك لأنك أرسلت لي كتابك عن **قبائل بيضاء ضائعة** إنني أقرأ هذا الكتاب المثير للاهتمام بمساعدة القواميس وقد بدأت اليوم بقراءة الفصل عن العبيد الجرمان في جامايكا.

بالإشارة إلى طلبك إجراء لقاء معي له علاقة بمشروع كتاب عن «أفراد منسيين»، أشخاص كانوا في موقع سلطة ذات مرّة، وكانوا المُلامين بسبب مشاكل عانت منها بلدانهم، إلخ، فإن ردّي هو أنني لا أعتبر نفسي [شخصا منسيا]، لأن الله، الخالق العظيم الذي خلق الكون، الله الذي يقرر مصائر الناس، وإن يكن بصورة غير عادلة أحيانا، لم يَقُل بعد كلمته الأخيرة بشأن مانويل ا. نورييغا.

شكرا على رسائلك الكريمة والأنيقة التي أرسلتها في شهر حزيران وكذلك على اتصالك الهاتفي بالسيّد أرتورو بلانكو.

مع فائق احترامي

مانويل أنطونيو نورييغا.

بماذا يشعر الديكتاتور بعد أن يطاح به. هل يندم على ما فعله؟ وهل يعترف بقرارة نفسه أنه ارتكب جرائم؟ هل يترجى الشفقة أم الغفران؟ كيف يتقبل أن يقرر مصيره أناس كان يعتبرهم دون مرتبة البشر؟ وإن عوقب قبل أن يتمكن من الهرب، كيف يتقبل عقوبته؟ هل ينفض الناس عنه ويصبح معزولاً بدون مناصرين؟ أم يبقى له من يواسيه ويؤيده؟

يحاول هذا الكتاب مقاربة الإجابة على هذه التساؤلات وغيرها من خلال ما قاله سبعة طغاة حكموا بلدانهم سنوات طويلة بكل قسوة ووحشية (عيدي أمين، بوكاسا، ياروزلسكي، أنور خوجا، دوفالييه، منغيستو، ميلوزوفيتش). سبعة طغاة نجوا من القتل على يد من أطاح بهم وسقطوا إلى الخزي. التقاهم الكاتب في منافيهم وسجونهم ونقل لنا عبر هذا الكتاب ما حصل معه وما دار بينه وبينهم.

بعد أن ننهي قراءة هذا الكتاب ونتعرف جيداً على هؤلاء الطغاة، هل سنشعر أنه يمكننا الغفران لهم ومسامحتهم والتعاطف معهم، هم وأمثالهم؟ هل نحسدهم على ما كانوا عليه ونتمنى أن نحظى بما كان لهم من سطوة وسلطان؟ أم نربأ بأنفسنا عما كانوا عليه ونرفض أن نتخلى عن بشريتنا وإنسانيتنا؟

